دراسة

د.عبد الكريم معمري

الانتحالُ في الشّعر العربيِّ القديم

د.عبد الكريم معمري

الانتحالُ في الشّعر العربيِّ القديم

د.عبد الكريم معمري

الانتحالُ في الشّعر العربيِّ القديم

قضية الانتحال في الشعر العربي القديم قضية شائكة تعني تلك القصائد والمقطوعات الشعرية التي تنسب إلى غير قائليها، أو هي قضية الخطأ في الرواية من حيث المتن أو النسبة.

ومن ثمة ارتأيت أن أسير في هذا الأمر، وأن أبلغ فيه مبلغا و أنهج به طريقا لأجمع ما تناثر في كتب القدامى والمحدثين من العرب والمستشرقين حول موضوع انتحال الشعر العربي القديم، والشّك في نصوصه التي يقال إنّ بعضها أو كلّها لم يُقَل في العصر الجاهلي، وإنما قيل في عصرٍ ساد فيه الإسلامُ الجزيرةَ العربية، متعلّلين بأسبابٍ تتراوح بين القوة والضّعف وبين المنطق واللاّمنطق، وتتأرجح أحيانا بين الواقع والخيال.

الدكتور عبد الكريم معمري أستاذ النحو والأدب القديم.

أستاذ جامعي بكلية الآداب واللغات بجامعة المسيلة منذ 2006، عضو هيئة التدريس بقسم اللغة والأدب العربي وقسم الترجمة، شغل مناصب إدارية وبيداغوجية، فكان عضو لجنة تسيير الكلية في بداياتها، وشغل عضوا في اللجان المتساوية ، ومجالس التأديب، وعضوية مخابر الكلية ومجالسها ومجلاتها، وإعداد مسابقات الدكتوراه .

درس بجامعات سطيف والجزائر العاصمة، وجامعة مرسيليا، يشغل حاليا نائب رئيس القسم للبيداغوجيا.

له مقالات منشورة بمجلات وطنية ودولية، ساهم في أبحاث مختلفة وملتقيات في الوطن وخارجه.

له كتب في تحقيق المخطوطات، أشرف وناقش عددا هاما من رسائل الدكتوراه والماستر والليسانس

ISBN:978-9931-840-28-2

ورات وهج
WAHAJ PUBLI

الانتحالُ في الشّعر العربيِّ القديم

د.عبد الكريم معمري

المؤلف: د.عبد الكريم معمري

عنوان الكتاب: الانـتحالُ في الشّعر العربيّ القديم

الإخراج الفني: هبة حناش

ISBN :978-9931-840-28-2

الإيداع القانوني : نوفمبر 2025

وهج للإعلام، الثقافة والفنون.

حي 08 ماي 1945 سيدي عيسى ولاية المسيلة.

البريد الإلكتروني:wahaj.fdn@gmail.com

الهاتف: **0664157131**

جميع الحقوق محفوظة

لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيًا أو إلكترونيًا أو أي وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها بأي شكل من الأشكال دون إذن خطيّ من الناشر، نستثني منه الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

مقــدّمة

قضية الانتحال في الشعر العربي القديم قضية شائكة تحوم حولها الشــكوك والاتهامات وإن كانت تعني تلك القصــائد والمقطوعات الشــعرية التي تنســب إلى غير قائليها، أو هي قضــية الخطأ في الرواية من حيث المتن أو النسبة .

ولقد يعتبر هذا الطرح مقدّمة للدفع الذي جذبني إليه هذا الموضوع، وخاصة عندما كنت منتسبا إلى الجامعة طالبا في قسم اللغة العربية وآدابها حين اطّلعت آنذاك، على كتاب الدكتور طه حســين " فيالأدب الجاهلي " حيث لاحظت جرأته وكيفيّة طرحه للموضــوع، ولقد أُعجِبت بآرائه أيّما إعجاب بالرغم من أنّ بعض الموضــوعات كانت غامضــة، وهذا لحداثة السّــن، آنذاك، ولتشــعّب القضــايا المطروحة، والتي تحتاج إلى نضــجٍ وعلمٍ وفهمٍ ليس باليســير ولا بالقليل، وإلى ذكاءٍ وفطنةٍ وبعدِ نظر.

ولقد زاد الله في العمر وزاد الموضــوع كبرا وضــخامة، وكان أن أهدى إليّ أحدُ أصــدقائي مشــكورا، كتابا للرافعي وهو " تحت راية القرآن"، وإذا أنا أمام نقد لاذع موجّه إلى طه حســين وكتابه مدعّم بالحجج والبراهين، وكان أن أطّلعتُ على كتبٍ قيّمة في التراث العربي من مثل طبقات ابن ســلام وأغاني الأصــفهاني ومزهر الســيوطي، وخزانة البغدادي وكتبٍ أخرى للمســتشــرقين بلاشــيروبروكلمان، وتبيّن لي أن طه حســين، وإن أتى بــأشــيــاء جــديــدة في الطرح، مقلــدٌ لما أفــاض فيــه المســتشــرقون والعرب من شــكٍّ في نصــوص هذا الشــعر وانتحال الرواة

القدامى له.

لقد يكون هذا الدافع أكثرَ الدوافع تأثيرا في نفسي، ومن ثمة ارتأيت أن أسير في هذا الأمر، وأن أبلغ فيه مبلغا وأنهج به طريقا لأجمع ما تناثر في كتب القدامى والمحدثين من العرب والمستشرقين حول موضوع انتحال الشعر العربي القديم، والشّك في نصوصه التي يقال إنّ بعضها أو كلّها لم يُقَل في العصر الجاهلي، وإنما قيل في عصرٍ ساد فيه الإسلام الجزيرةَ العربية، متعّللين بأسبابٍ تتراوح بين القوة والضّعف وبين المنطق واللاّمنطق، وتتأرجح أحيانا بين الواقع والخيال .

وبالرغم من هذه الدراسات الكثيرة التي أثيرت حول الشعر العربي القديم من حيث القضايا أو النصوص إلاّ أن جوانب منه لا تزال بحاجة إلى المزيد من البحث، كما لا تزال بعض الدراسات لم تصل إلى حدّ اليقين والقطع بالثبوت، وهذا دَيْدَنُ الإنسان إذ أنّ علمه ناقصٌ مهما بلغ به البحث والتقصي وهو بعيدٌ عن الكمال أبد الدّهر، ونكاد نتفق على أنه لم يأت الوقت لكي نضع في هذا الموضوع، وفي غيره من الموضوعات، نقطة الفصل وفصلَ الخطاب .

لهذه الأسباب مجتمعةً، ولغيرها مما نعرفه أو لا نعرفه ارتأيت أن أقسّم بحثي هذا إلى ثلاثة فصول، كان الفصل الأول منه بمثابة مدخل تاريخي لشبه الجزيرة العربية من حيث جغرافيتها، وتاريخ العرب فيها منذ القدم، وذكرت فيه نواحي الحياة العربية من اجتماعية ودينية وسياسية وثقافية مما يساعدنا على إعطاء نظرة شاملة للمكان والزمان، واهتممتُ بشكل خاص فيه بالحديث عن الواقع اللغوي للعرب قبل الإسلام ومراحل تطور اللغة العربية وأهمّ اللهجات التي كانت العرب يلهجون بها، والتي كانت هي المنبعَ الذي لا ينضب لهذه اللغة التي نُظِم بها

الشـــعر وقيـل بهـا النثر، ذاكرا آراء العرب القـدامى المحـدثين وآراء المســتشــرقين في أصـــل العربيـة، ومـدى مكانـة لغـة قريش وعلاقتهـا بـالفصـــحى، وبيّنـت أثر القراءات القرآنيـة في النقـل اللّغوي مقارنـةً مع الشـــعر القـديم الـذي أصـــابه التّحريف في الروايـة، ذلك أنّ القراءات تعتمد على التّلقي والعرض وهما وســيلتان تكفلان بحقٍّ صـحّةَ النّقل ودقّته، وهذا الذي كان ينقص رواية الشـــعر، الذي جعلته مدار حديثي في الفصـل الثاني حيث تناولتُ رواية الشـعر العربي القديم وتدوينه، ثمّ درسـت قضـية الانتحال في هذا الشـعر واقتصـرت على رجلين من رجالات الدّين والأدب وهما ابن هشـــام صـــاحب الســـيرة وابن ســـلاّم صـــاحب الطبقات .

أما الفصـل الأخير فقد خصّـصـته للمحدَثين من العرب والمسـتشـرقين، وأتيـتُ إلى أهمّ آرائهم في الانتحـال فـذكرتهـا، وكـذا أهمّ نقـاط البحـث وخطوطه العريضة.

وبالرغم من الصـعوبات التي تكتنف مثل هذه الدراسـات الدقيقة والتي يشـترك فيها أغلب الباحثين إلاّ أنني اسـتعنتُ بكتبٍ هامّة في الموضـوع، فخلاف كتب التاريخ الأدبي للعرب اســتفدت من كتاب الطبقات لابن ســلام والمزهر للســيوطي، وفي الأدب الجاهلي لطه حســين وســيرة ابن هشام وغيرهم .

ولا أنســى كلَّ من ســاعدني في هذا البحث وأخصّ بالذكر عمّال مكتبة جامعة الجزائر وجامعة المسيلة، وجامعة سطيف، وجامعة قسنطينة.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

المسيلة في 02/ أفريل/2025

الفصل الأول

العرب في شبه الجزيرة العربية:

أ- تحديد الجو الإقليمي للعرب:

سكن العرب القدامى الجزيرة التي تنسب إليهم، وإن أردنا التدقيق فقد كان شمال الجزيرة ومنتصفها هو الإقليمَ الذي استوطن فيه أجداد العربي منذ أزيَد من ألفي عام قبل الميلاد[1] وهي تتوسط العالم القديم في جنوب غرب قارة آسيا، تُحدُّ من الشمال ببادية الشام، ومن الجنوب بالمحيط الهندي ومن الشرق بخليج فارس وبحر عمان، ومن الغرب بالبحر الأحمر، وهي في الأصل شبه جزيرة إذ تحدّها المياه من جهاتها الثلاث " إنما سميت جزيرة بالغلبة كما سميت جزيرة العرب".[2]

ولقد قسّم الجغرافيون اليونان و الرومان القدامى بلاد العرب

---

[1] تاريخ الأدب العربي. بلاشيررجيس. ترجمة إبراهيم الكيلاني. الدار التونسية للنشر و م.و.ك.الجزائر.1986. 19/1.

[2] معجم البلدان. ياقوت الحموي. دار الفكر. بيروت.(د.ط).(د.ت) 1/ 263 .

ينظر أيضا إلى: تاريخ العرب قبل الإسلام.عبد العزيز السيد سالم. مؤسسة شباب الجامعة.الإسكندرية.مصر 1997. 64/1.

واللّهجات العربية في القراءات القرآنية.عبدهالراجحي.دار المعرفة الجامعية. مصر. 1998. ص: 8 وما بعدها، وفيه تفصيل للحدود الجغرافية لشبه الجزيرة عند الجغرافيين القدامى من عربٍ وغيرهم.

إلى ثلاثة أقسام اتفقت مع الناحية السياسية[3] وهي:

1- بلاد العرب الصخرية: وتقع في الشمال من بلاد العرب.

2- بلاد العرب السعيدة: ويقصد بها بلاد اليمن أو الأرض الخضراء.

3- بلاد العرب الصحراوية:" ولم يعيّنوا حدودها ولكن يفهم من كلامهم أنهم كانوا يطلقونها على البادية الشمالية التي تصاقب بلاد الشام غربا وتمتد شرقا إلى العراق والحيرة" .[4]

وتعتبر بلاد العرب الصحراوية هي القسم الأكبر من هذه الأقسام الثلاثة، وتنقسم بدورها إلى ثلاثة أقسام:

1- **الحرّات:**

وهي جمع حَرَّة، والحرة كما جاء في معجم ياقوت: " أرضٌ ذات حجارة سود نَخِرة كأنها أُحْرِقَت بالنار"[5]، وهذه الحرات مقذوفات بركانية تبتدئ من شرقي حوران وتمتد منتشرة إلى المدينة[6].

وقد عدّ ياقوت الحَمَوي في معجمه تسعا وعشرين حرة. [1]

---

[3] تاريخ العرب قبل الإسلام.السيد سالم. 65/1.

[4] العصر الجاهلي.شوقي ضيف. دار المعارف. مصر. ط18. 1995.ص: 17 .- وينظر:تاريخ العرب قبل الإسلام.السيد سالم.65/1 وما بعدها.

[5] معجم البلدان للحموي. مادة " حرة ". 245/2. وينظر: لسان العرب. ابن منظور. دار صادر. بيروت.(د.ط). (د.ت). مادة: حرر.

[6] فجر الإسلام. أحمد أمين. دار الكتاب العربي. لبنان. ط11. 1975.ص: 02. وينظر: تاريخ العرب قبل الإسلام.عبد العزيز سالم. 67/1، وفيه بيتٌ لشاعر اسمه عَرْعَرة من بني نمير يصف بركانا ثائرا في حرة القوس .(ينظر المصدر نفسه. هامش ص: 66).

[1] معجم البلدان. للحموي. مادة:" حرة" . وينظر أيضا: تاريخ العرب قبل الإسلام ع

2- الدّهناء (صحراء الجنوب): وهي التي نعرفها الآن باسم الربع الخالي[2] حيث تشغل ساحة كبيرةً من الجزيرة العربية، وقد قسّمها العرب إلى عدة أجزاء" فالجزء الأول بين شرقي اليمن وحَضْرَمَوْت يسمى صَيْهَدا، والذي بين شمالي حضرموت وشرقَيها يسمّى الأحقاف، والذي في شمالي مَهَرة يسمّى الدهناء ويسمى الآن جميعُه بالرّبع الخالي".[3]

3- صحراء النفود (بادية السَّماوة): وهي صحراء سميت قديما ببادية السّماوة أو ما يعرف الآن بصحراء النفود، وهو اسمٌ لم تكن تعرفه العرب من قبل، وهي تمتاز عن غيرها من الصحارى بكثبانها الرملية السهلة اللينة التي يصعب المشي عليها حيث تغوص الرجل عند السير.[4]

ب- أقسام جزيرة العرب:

قسم جغرافيو العرب القدامى بلاد العرب إلى خمسة أقسام كبرى، وهي تهامة ونجد والحجاز والعروض واليمن، ولقد زاد ابن حَوقَل في كتاب " صورة الأرض" بادية العراق وبادية الجزيرة وبادية الشام[5]

العزيز سالم 67/1. و فجر الإسلام. أحمد أمين. ص: 02.

[2] ينظر: تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 21/1. و تاريخ العرب قبل الإسلام.عبد العزيز سالم.69/1

[3] فجر الإسلام. أحمد أمين. ص: 02.

[4] تاريخ العرب قبل الإسلام. عبد العزيز سالم. 69/1.و فجر الإسلام. أحمد أمين. ص:01

[5] تاريخ العرب قبل الإسلام. عبد العزيز سالم. 70/1، و جاء في لسان العرب. مادة " تهم " قول الشاعر أمية بن أبي عائذ الهذلي، وفيه تقسيم لأرض العرب:

شَآمٌ يَمَانٍ مُنجِدٌ مُتَتَهِّمٌ حِجازِيّة أعْجَازُه وهْوَ مُسْهِلُ

ونلاحظ بأنه ذكر الشام دون ذكر " العروض" .

وظاهرٌ أنهم استندوا في هذا التقسيم على الطبيعة الجغرافية والجيولوجية .

تهامة: وهي المنطقة المتصوِّبة على طول ساحل البحر الأحمر (بحر القلزم)، وجاء في لسان العرب " حكى ابن قتيبة في غريب الحديث عن الزيادي عن الأصمعي أن التهمة الأرضُ المتَصَوِّبة إلى البحر"[6] وقيل إنها سميت من التَّهَم، ويعنون به شدة الحر مع ركود الريح، ولانخفاضها أيضا سموها بالغور[7] وهي ممتدة " من أقصى الجنوب إلى خليج العقبة، وتقال أحيانا مضافة إلى القسم الذي تحاذيه، فقال تهامة اليمن، وتهامة عسير، وتهامة الحجاز.[1]

2- نجد: وهي الأرض المرتفعة عن تهامة، وتتكون من هضبة فسيحة تمتد إلى أرض العراق، قال صاحب اللسان " وما ارتفع عن تهامة إلى أرض العراق فهو نجد"[2]،وهي أوسع أقاليم جزيرة العرب وأطيَبُها أرضا حيث تغنّى الشعراء قديما برياضها ورُبَاهَا، وإليها ينسب جَبَلا أَجَأ و سَلْمَى[3] في

---

[6] لسان العرب. ابن منظور. مادة "تهم"- ينظر أيضا إلى: معجم البلدان. الحموي. مادة " تهامة" .

[7] تاريخ العرب قبل الإسلام. عبد العزيز سالم. 70/1 - وينظر أيضا: العصر الجاهلي. شوقي ضيف. ص: 18.

وجاء في اللسان - مادة حجز-: " وقيل لأنه حجز بين تهامة ونجد، وقيل سميت بذلك لأنها حجزت بين نجد والغَوْر" .

[1] في تاريخ الأدب الجاهلي. علي الجندي. دار غريب. القاهرة. مصر. 1998. ص: 13.

[2] لسان العرب. ابن منظور. مادة " نجد".

[3] ينظر: معجم البلدان للحَموي. مادة " أجأ " و " سلمى"، ومنه قول لبيد يصف كتيبةً للنعمان: كَأَرْكانِ سَلمَى إذْ بَدَتْ أو كَأَنَّها هِضَابُ أجَأ إذْ لاحَ فِيهِ مَواسِيلُ

قبيلة طيء.

3- الحجاز: وهو ما بين نجد وتهامة، أو أنه يفصل ويحجز بين شيئين " لأنه فَصَلَ بين الغور والشام والبادية... وقيل لأنه حَجَزَ بين تهامة ونجد"[4] وهو قطرٌ فقير إلاّ أنّ أهميته راجعةٌ إلى وقوعه على الطريق التجارية التي تربط اليمن ببلاد الشمال. وإليه رحل اليهود وأسسوا حواضر فيه كخيبر والمدينة وغيرهما، وقد كَفَل " لسَاكنيه الاستقرار والتّحضّر حيث توجد مدينة تجارية دينية مثل مكّة أو مناطق زراعية مثل يثرب".[5]

4- العروض: وتشمل اليمامة والبحرين وما والاهما[6]،ويرسم ابن الكلبي حدودَها في قوله:" وأرض العالية والبحرين إلى عمان من العروض"[7] وسبب تسميتها بالعروض راجع إلى أنها تعترض بين اليمن ونجد والعراق، في حين يذهب أبو إسحاق الحربي إلى القول:" وأخرج عمر بن الخطاب اليهودَ والنصارى من جزيرة العرب، إلاّ أنه لم يخرجهم من

---

[4] لسان العرب. ابن منظور. مادة " حجز" . و ينظر أيضا: معجم البلدان. للحموي. مادة " حجاز" .

[5] اللهجات العربية في القراءات القرآنية.عبده الراجحي. ص: 15.

[6] معجم البلدان. للحموي. مادة" عروض". و ينظر أيضا: العصر الجاهلي.شوقي ضيف.ص19. و تاريخ العرب قبل الإسلام.عبد العزيز سالم. 73/1. و في تاريخ الأدب الجاهلي. علي الجندي. ص: 14. و فجر الإسلام. أحمد أمين. ص: 2-3.

[7] معجم ما استعجم. البكري. تحقيق مصطفى السقا. عالم الكتب. بيروت.ط3. 1403هـ 10/1.

و أيضا: اللهجات العربية .عبده الراجحي.ص: 18.

نجران و لا اليمامة والبحرين فسُمِّيت العروض".[8]

وهي أرض صحراوية خاصة عند ابتعادنا عن ساحل الخليج العربي أو ما يعرف بالخليج الفارسي أو بحر فارس، ولذلك فإن أهلها أهلُ بداوة يطلبون مواطن الماء والكلأ.

5- اليمن: وهي منطقة واسعة تمتد عن تهامة شرقا إلى العروض غربا " واليمن ما كان على يمين القِبلة من بلاد الغَوْر (تهامة) ... وقيل لناحية اليمن يَمَن لأنها تَلِي يمين الكعبة، كما قيل لناحية الشأم شأم لأنها من شمال الكعبة".[1]

على أن سبب تسميتها باليمن أيضا يعود إلى اليُمْنِ أي الخير والبركة، ذلك أنها أرض خصبة عرفها العرب بقولهم الأرض الخضراء، وفيها يقول الكلاعيُّ:

هِيَ الخَضْراءُ فاسْألْ عَن رُبَاهَا يُخْبِرِكَ اليَقِينَ المخْبِرونا
ويُمْطِرُها المُهَيمِنُ في زَمَانٍ بِهِ كلُّ البَرِيَّةِ يَضْمَؤونا
وفي أَجْبَالِها عِزٌّ عَزِيز يَظَلُّ له الوَرَى مُتَقَاصِرينَا
وأشجَارٌ مُنَوَّرةٌ و زُرُوعٌ وفاكِهةٌ تَروقُ الأَكِلِينا[2]

---

[8] المصدر نفسه. 12/1. و اللهجات العربية.عبده الراجحي. ص: 18. غير أننا نجد في لسان العرب- مادة عرض- أن العروض " هي مكة والمدينة واليمن وما حولها"، وقال ابن سيده: والعروض مكة والمدينة، وفسّروا قول لبيد: " تُقَاتِلُ ما بين العَروضِ وخَثْعَما "، أي ما بين مكة واليمن.

[1] لسان العرب. ابن منظور. مادة – يمن- .

[2] تاريخ العرب قبل الإسلام. عبد العزيز سالم. 74/1. (وجاء في كتاب" صفة أرض العرب" للهمذاني قوله: " سمِّيتِ اليمن الخضراءَ لكثرة أشجارها وثمارها وزروعِها " ، اللهجات العربية. الراجحي ص:16). و ينظر أيضا: في تاريخ

وقد أشـــار القرآن إلى أرضـــها وخيراتها في ســـورة ســـبأ في قوله تعالى:" **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِيمَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** {15}"[3]

وكان لهذا للتفضـــيل الرباني أثرُه في بناء دول وحضـــارة " منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادي".[4]

ج- مناخ الجزيرة العربية:

لمّا أن أكثر أراضـي الجزيرة العربية صـحراوية فإنّ مناخها يكاد يكون حارا وجافا، إذ الأمطار نادرةُ السّقوط إلاّ في الجنوب بأرض اليمن، حيث تنزل أمطار الرياح الموســمية في الصــيف، وإلا في الشــمال الغربي حيث تســقط أمطار الرياح الغربية وقت الشــتاء، وكثيرا ما تؤدي هذه الأمطار إلى خراب[5] حيث تتحول إلى ســيولٍ جارفة كما يحدث في اليمن وشمالَي الحجاز.

وتبعا لهذا المناخ الجاف فإنّ حياة العرب آنذاك كانت تعتمد على الرحلة في طلب أماكن الماء والكلأ، ولا يوجد الاستقرار إلا في بعض

الأدب الجاهلي. علي الجندي. ص: 14.

[3] سورة سبأ. رقم 34.آية: 15 .

[4] العصر الجاهلي. شوقي ضيف. ص: 20.

[5] ينظر: تاريخ الأدب العربي. بلاشير 21/1. و تاريخ العرب قبل الإسلام. عبد العزيز سالم. 78/1. و العصر الجاهلي. شوقي ضيف. ص: 20 وما بعدها (وفيه يذكر خبرا عن وصف امرئ القيس في معلّقته سيلا جارفا حدث بالقرب من تَيماء، حيث منازلُ بني أسد)

ينظر إلى أبيات امرئ القيس رقم: 70إلى 81 (نهاية المعلقة) في : شرح المعلقات السبع.الزوزني.مكتبة المعارف. بيروت. 1994.ص: 54-60.

المناطق كاليمن والحجاز واليمامة حيث الاعتماد على الزراعة وتربية الحيوانات، أما نبات الأرض فقد وصف الشعراء القدامى أرضَهم التي تنبت فيها بعض الأزهار كالخزامى والعَرار وبعض الأشجار كالأرطى والسّدر والغضا والحنظل وغيرها.

كما كانت تعيش على أرضهم بعض الحيوانات الوحشية كالضبع والذئب وابن آوى، ونجد في الصحارى الحمارَ الوحشيَّ والنعام والغزال وبقر الوحش والظباء، أما حيواناتهم الأليفة فنجد الإبل والخيل والبقر والماعز والغنم، ومن الطيور الصقر والنسر والغراب والبوم والحدأة، ومن الزواحف الأفاعي والثعابين والضّب والعقرب، وكل ذلك مذكور في شعرهم.

د- تاريخ الجنس العربي و تحديد أصوله:

إن الحديث عن الجنس العربي يقودنا بادئ ذي بدء إلى الحديث عن كلمة" عرب" التي قيل إنها وجدت في وثائق آشورية وبابلية منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وقد كانت تعني البادية التي تقع غربا من بلاد الرافدين ويعنون بها بادية العراق .[1]

ويذكر الأستاذ جواد علي في كتابه " تاريخ العرب قبل الإسلام" أن كلمة " عربانية" ظهرت لأول مرة في النصوص الفارسية قاصدين بها " البادية الفاصلة بين العراق والشام بما فيها شبه جزيرة سيناء"[2] في

---

[1] ينظر: تاريخ العرب قبل الإسلام. عبد العزيز سالم. 43/1. و تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 19/1.

[2] المصدر نفسه. 43/1 .

حين كان أهل الحضر يُسَمَّون بأسماء قبائلهم أو بأسماء الأماكن التي يسكنونها، غير أن المؤرخين لا يعرفون على وجه التدقيق متى استعمل لفظ العرب للدلالة على هذا الجنس " والقرآن الكريم هو أول مصدر ورد فيه لفظ العرب[3] للدلالة بوضوح عن هذا المعنى"[4]ومن البديهي أن القرآن يخاطب قوما هم على علم مسبق بهذا اللفظ وبهذا المعنى.

1- أصل العرب و طبقاتهم:

أ- أصل العرب:

لن يختلف هذا التحديد في أصل العرب وطبقاتهم عما سبقه من بعض الموضوعات وما سيأتي لاحقا في أثناء هذا البحث عن اختلاف وجهات النظر في سبب تسميةٍ أو تحديد سنةٍ أو تأكيد نسبةٍ أو غير ذلك مما لا تختلف فيه الفنون والعلوم والآداب مع اختلاف الألسن.

---

[3] وردت كلمة" عرب" في القرآن بإضافة ياء النّسبة (عربيّ)، و باختلاف الإعراب نصبا ورفعا (عربيًا- عربيٌّ) إحدى عشرة مرة منها عشرة نعتا للقرآن، وواحدة نعتا للرسول ص فقد جاء " عن سعيد بن جُبَير أنه قال في هذه الآية : (" لولا فُصِّلَتْ آياتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وعَرَبِي" قال: لو كان هذا القرآن أعجميًّا لقالوا القرآن أعجمي ومحمد عربي") . ينظر تفسير الطبري. دار الفكر.بيروت. 1405هـ 126/24. و ينظر المصدر نفسه. 127/24 و 191/26)

أما السور والآيات فهي كالتالي: سورة يوسف (12) آية (02)/ سورة الرعد(13) آية (37)/ سورة النحل (16)آية 103/ سورة طه (20)آية: 113/ سورة الشعراء(26)آية 195/ سورة الزمر(39) آية 128/سورة فصّلت (41)آية 03 و 44 /سورة الشورى(42)آية: 07 / سورة الزخرف (43)آية 03/ سورة الأحقاف (46) آية: 12 .

[4] تاريخ العرب قبل الإسلام. عبد العزيز سالم. 45/1.

مما لا يختلف فيه المؤرخون والإخباريون أن العرب من الشعوب السامية نسبةً إلى سام بن نوح وعلى هذا قول النبي ص:" سام أبو العرب وحام أبو الحبش"[1] وأما يافث " فمن ولده التُّركُ والصين والصّقالبة ويأجوج ومأجوج".[2]

وقد تحدث اللغويون والأدباء والمؤرخون عن سبب تسمية العرب بهذا الاسم، حيث ذهب الألوسي في " بلوغ الأرب" إلى القول :" إنهم سُمُّوا بالعرب لاشتهارهم بالفصاحة والبيان، من قولهم: أَعْرَبَ الرجلُ عمَّا في ضميره إذا أبَانَ عنه"[3] والسبب نفسه نجده عند ابن خلدون حيث يقول: "... ثم إنّ العرب لم يزالوا موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام والفصاحة في المنطق والذلاقة في اللسان ولذلك سُمُّوا بهذا الاسم فإنه مشتق من الإبانة لقولهم: أَعْربَ الرجل عما في ضميره إذا أبان عنه"[4] في حين نجد في معجم البلدان للحموي قوله:" عَرَبَة (بالتحريك) هي في الأصل اسمٌ لبلاد العرب، قال أبو منصور: اختلف الناس في العرب لم سموا عربا فقال بعضهم: أول من أنطق الله لسانَه بلغة العرب يَعْرُب بن قحطان وهو أبو اليمن... وقال آخرون نشأ أولاد إسماعيل بعَرَبَة، وهي من تهامة، فنُسِبوا إلى بلدهم"[5] ولكن في قول الرسول ص لأبي ذر الغفاري" أربعة من العرب: هود وصالح وشعيب

---

[1] البداية والنهاية. ابن كثير. مكتبة المعارف. بيروت. (د.ت). 1/ 115 .

[2] تاريخ ابن خلدون. دار إحياء التراث العربي. 1971. 10/2.

[3] في تاريخ الأدب الجاهلي.علي الجندي. ص: 21.

[4] تاريخ ابن خلدون. 15/2.

[5] معجم البلدان للحموي. مادة " عربة".

ونبيّك يا أبا ذر"[6]دليل على قِدَم العربية لأنّ فيهم من كان قبل إسماعيل (عليه السلام)، في حين نجد الأزهريَّ يقول:" والأقرب عندي أنهم سموا عربا باسم بلدهم العَرَبَات".[7]

ويقول مصطفى صادق الرافعي- وإن كان قوله نجده مبثوثا في كتب عدّة منها معجم البلدان ولسان العرب- :" إن اللفظة قديمة يراد بها في اللغات السامية معنى البدو والبادية، وكانت هذه خاصية العرب في التاريخ القديم، ولكن لما تحضّر بعضهم وسكنوا المدن وأقاموا فيها خصُّوا لفظة " العرب" لهؤلاء الذين يعيشون في المدن، وأطلق على سكان البادية " الأعراب"، ولما جاء الإسلام أصبح لفظ الأعرابي يدل على الجفاء وغلظ الطبع، وبذلك خرجت الكلمة عن معنى البادية"[1].

لقد تكون هذه الآراء وغيرها مما لم نذكر دليلا على أننا لن نطمئن إلى سبب من الأسباب ذي رجحان وقوةِ برهان، وسواء كانت هذه اللفظة دالة على أرضٍ بعينها أو على لسانٍ يفصح به أو حالة بدوٍ وبادية، إلاّ أننا لن نعثر على رابطٍ بينهم إلا أن نقول إن هذا الجنس العربي الذي عاش في بادية من شبه الجزيرة العربية ولم يختلط بغيره وقتا من الزمان

---

[6] البداية والنهاية. ابن كثير. 120/1. و ينظر أيضا: معجم البلدان للحموي. مادة " عربة".

[7] لسان العرب.ابن منظور. مادة " عرب". وجاء فيه شعر:

وعَرْبَةُ أرضٌ ما يَحِلُّ حَرَامَها مِنَ النّاسِ إلاّ اللّوْذَعِيُّ الحُلاحِلُ (يعني النبيﷺ)

وقول الآخر: ورُجِّتْ بَاحَةُ العَرَبَاتِ رَجًّا تَرَقْرَقُ في مَنَاكِبِهَا الدِّماءُ.

[1] تاريخ آداب العرب. مصطفى صادق الرافعي. المكتبة العصرية. بيروت.ط1. 2000م.45/1.بتصرفٍ بعضَ الشّيء .

لحريٌّ أن يستقيم لسانه ويفصح ويعرب بالمنطوق عن أغراضه المختلفة، ولأمرٍ ما ظلّ الأعراب الذي استقروا في باديتهم إلى ما بعد الإسلام بزمن مهوى أفئدة الكثيرين من الرعيل الأول من علماء العربية حيث " كان الرواة يلتمسونهم ويحملون عنهم، ويرون فيهم أنهم أهل اللغة العربية الفصحى".[2]

ب- طبقات العرب:

مهما اختلف الرواة والإخباريون ومؤرخو العرب في تقسيم العرب وتحديد طبقاتهم إلا أن الاختلاف لفظيٌّ فقط، وإننا بذلك لن نخرج عن نطاق أنهم ينقسمون إلى قسمين كبيرين: عرب بائدة وعرب باقية.[3]

1- العرب البائدة:

يرى المؤرخون والرواة أنّ العرب البائدة إنما تشمل: عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت وكل من ينتمي

---

[2] المصدر نفسه. 1/ 46 .

[3] يقسم ابن خلدون في تاريخه العربَ إلى أربعة طبقات متعاقبة تاريخيا: العرب العاربة وهم البائدة، ثم العرب المستعربة وهم القحطانية، ثم العرب التابعة لهم من عدنان والأوس والخزرج والغساسنة والمناذرة، ثم العرب المستعجمة وهم الذين دخلوا في نفوذ الدولة الإسلامية، وسموا بذلك لاستعجام لغتهم على اللسان المضري الذي نزل به القرآن الكريم. (ينظر تاريخ ابن خلدون. 16/2 وما بعدها).
وهناك من قسّم العرب إلى ثلاث طبقات هي: عرب عاربة(بائدة) وعرب متعرّبة (القحطانية) وعرب مستعربة(العدنانية).(ينظر: تاريخ الجاهلية عمر فروخ. بيروت. 1964. ص: 75). وهناك من يقسِّم العرب إلى طبقتين فقط: قحطانية باليمن وعدنانية بالحجاز.

إليهم، ويذكرابن خلدون بأن "هذه الأمة أقدم الأمم من بعد قوم نوح وأعظمهم قدرةً وأشـــدهم قوةً وآثارا في الأرض وأول أجيال العرب من الخليقة فيما سمعناه".[4]

ويصـــرح بأن هذه الأخبار المســـموعة إنما جيء بها من القرآن الكريم في قصـــص الأنبياء الأقدمين أو مما نُقِل عن زعماء المفسّـــرين والذين نقلوها هم عن السّـلف من التابعين الذين أخذوا عن الصحابة أو ســـمعوه عمّن هاجروا وأســـلموا من علماء اليهود وأحبارهم أصـحابِ التوراة، وأن ماعدا هؤلاء فأحاديثُ قُصّـــاصٍ و إخباريين وأســـاطير لا يُعَوَّلُ عليها في شيء.

ويذكر أيضـا أنهم سـكنوا الجزيرة العربية وامتد مُلكُهم فيها إلى الشـام ومصـر، وأنهم انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل حين زاحمهم فيها بنو حام، ثم كان لكلِّ فرقة ملوكٌ وقصـــور، حتى غلب عليهم بنو يعرب بن قحطان.[1]

كما ســـميت العرب البائدة بالعرب العاربة أيضـا ويقصـــد به التـأكيـد للمبـالغـة والرســـوخ في العربيـة أو بمعنى الفـاعلـة للعروبيـة والمبتدعة لها.

أما سـبب تسـميتهم المشـهورة بالعرب البائدة بمعنى " الهالكة" لأنهم بادوا كلُّهم وامَّحَت آثارهم من على الأرض، ولم يبق أحد من نسلهم، فقد أبادهم الله جراء كفرهم وطغيانهم وعبادتهم الأوثانَ مع ما بعث الله

---

[4] تاريخ ابن خلدون. 18/2.

[1] المصدر السابق .18/2 وما بعدها .

لهم من أنبياء، فقد أرسل الله إلى عاد أخاهم هودا عليه السلام وكانت مساكنهم بالأحقاف فكفروا وأعرضوا فأرسل الله عليهم ريحا عاتية أهلكتهم ودمّرتهم شرَّ تدمير[2] .وبعث إلى ثمود [3] أخاهم صالحا، وكانوا بالحجر ووادي القرى بين الحجاز والشام فأعرضوا هم أيضا وكفروا وعقروا ناقة صالح فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في ديارهم جاثمين[4]، وأرسل الله النبي شعيب (عليه السلام) إلى مَدْيَن حيث كانوا يقطعون الطريق ويبخسون المكيال فحذّرهم من ذلك ودعاهم إلى الإيمان بالله فأعرضوا فأخذتهم الرجفة فهلكوا[5]،وأما جُرْهُم فهم أمَّتان: الأولى على عهد عاد وقد هلكت، وأما الثانية فترجع إلى جرهم بن قحطان أخي يَعْرب " وهذه الأمة الثانية هي التي بعث الله إليهم إسماعيل (عليه السلام)

---

[2] القرآن الكريم: الشعراء رقم: 26، آية: 123-130- فصّلت (41) آية: 16-الأحقاف (46) آية: 24-25- الذاريات (51) آية 41-42

النجم (53)آية: 50-51- القمر(54) آية : 18-20- الفجر (89) آية: 6-7.

[3] القرآن الكريم: الأعراف (7)آية 73-78- هود(11)آية 67-68- الشعراء(26)آية: 141-158- النمل(27) آية 45-52- فصلت (41)آية: 13-18- الذاريات (51) آية: 23-51- القمر (54) آية31.

[4] قال ابن خلدون:" وكذلك يزعم بعض النسّابة أن ثَقِيفا من بقايا ثمود هؤلاء، وهو مردود، وكان الحجّاجُ إذا سمع ذلك يقول: كذبوا، وقال: والله جلّ من قائل: وثمودا فما أبقى . أي أهْلَكَهم". تاريخ ابن خلدون. 42/2.

[5] " فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين" سورة الأعراف (07) آية: 91. وقوله تعالى:" فَكَذَّبوه فأخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فأصبَحُوا في دَارِهِم جاثِمِين" سورة العنكبوت (29) آية: 37 .

وتزوج فيهم".[6]

وأما حضرموت فيذكرون أنها معدودة في العرب العاربة وليسوا من العرب البائدة لأنهم باقون في الأجيال المتأخّرة.

2- العرب الباقية:

وهي قسمان: متعربة و مستعربة:

أ- العرب المتعربة:أو عرب الجنوب أو القحطانيون أو اليمنيون، ويقال إنهم نزحوا من الفرات واتخذوا اليمنَ منازل لهم، وهم ينتسبون إلى قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح [1]وتواترت الأخبار أن قحطانا هذا سكن اليمن واتخذها عاصمة لملكه، وأنه من بعده ابنه يعرب، ثم مَلَكَ ابنه يشجب ثم ابنه عبدُ شمس، وهذا الأخير كان يسمى "سبأ" وإليه تنسب الدولة السبئية، وهي دولة أتت بعد الدولة المعينية التي كانت عاصمتها " قرنا " ثم كانت الدولة القتبانية وعاصمتها" تيماء" في الدور الثالث، وأخيرا الدولة الحضرمية وعاصمتها شكوة .[2]

وتعتبر حضارة سبأ من أهم الحضارات اليمنية القديمة،

---

[6] تاريخ ابن خلدون. 31/2.

[1] تاريخ ابن خلدون. 32/2. في حين نجده في سفر التكوين- الاصحاح العاشر- هو يقطان بن عابر بن شالخ بن أرفكشاد بن سام بن نوح (تاريخ العرب قبل الإسلام.عبد العزيز سالم. 49/1 (هامش رقم1).

[2]ينظر:تاريخ الفكر الديني الجاهلي.محمدالفيومي.دار الفكر العربي.القاهرة.(ط4).1994.ص:104. في حين نجد أنّ عاصمة مملكة قتبان هي تِمْنع، أما مملكة حضرمَوت فعاصمتها شبوة.(ينظَر: العصر الجاهلي.شوقي ضيف.ص:27).

وباسمها سميت سورة في القرآن الكريم[3]وقصة ملكتها بلقيس مع سليمان(عليه السلام)معروفة[4]، وكذا قصة سدِّها وخرابه من بعد ما أصاب أهلَها التّرفُ والفساد فأهلكهم الله بسيل العرم[5] ومزّقهم في الأرض كلَّ مُمَزَّق.

ويعتبر المؤرخون أن الجنوبيين هجروا بلادهم بعد خراب سد مأرب إلى أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة العربية، ويذكر القلقشندي بأنّ من العدنانيين عربِ الشمال المستقرّين في الحجاز من هاجر إلى اليمن، ويقول:" وصار بعض عرب اليمن إلى الحجاز فأقاموا به، وربما صار بعض عرب الحجاز إلى اليمن فأقاموا به، وبقي من بقي منهم بالحجاز واليمن على ذلك".[6]

ومن قوله الأخير يتبين أن اليمنيين لم يهجروا بلادَهم كلُّهم، ويذهب

---

[3] قال تعالى ذاكرا سبأ ومبيّنا للحضارة الراقية والثراء الفاحش:﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾سبأ (34) آية :15 .

[4] يقول تعالى:﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ {22} إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله تعالى:﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة النمل (27) آية (22-44).

[5] قال تعالى:﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ سورة سبأ (رقم 34)آية: 16. ومن أمثلة العرب قولهم:" تفرّقوا أيادِي سَبَأ" و " أيادي سبأ" اسم مركب مبني على فتح الجزئين في محل نصبٍ حال تقديره " متفرّقين" .

[6] اللهجات العربية في القراءات القرآنية. عبده الراجحي. ص: 21.

بلاشير إلى القول:" ولا يذهبنَّ بنا الظن إلى اعتبار الهجرة الجنوبية سيلا جارفا اتجه من الجنوب إلى شمال شبه الجزيرة[1] بل إن هذا التداخل في الهجرات فيما لا نعرف من الوقت والظّروف على وجهٍ من الدقة،مما ذهب بالدكتور عبده الراجحي إلى التساؤل فيما " هل نستطيع أن نقبل تقسيم العرب إلى قحطانيين وعدنانيين على أنه تمييز قاطع بينهما؟ [2] ثم يجيب بالنفي، لكنه يدلل على أن المنهج العلمي يتطلب التقسيم والتصنيف، ثم يستطرد قائلا:" نحن إذن مضطرون إلى الأخذ بتقسيم العرب إلى قحطانيين وعدنانيين ولكن ليس على أنّ هؤلاء عدنانيون وأولئك قحطانيون، بل على أنها أسماء قبائل مهما تكن هذه الأسماء، وكلّ الذي يهمّنا الآن من هذه الأسماء أن نعرف منازلها من شبه الجزيرة".[3]

وحرِيٌّ بنا بعد هذا أن نعرف أنّ أهمّ قبائل اليمن أربعٌ هم: حمير وكهلان وأشعر وعاملة.

---

[1]تاريخ الأدب العربي.بلاشير.33/1.

[2] اللهجات العربية في القراءات القرآنية.عبده الراجحي. ص: 22.

[3] المرجع نفسه. ص: 22. وللإشارة فإننا نجد صاحبَ الأغاني وبالتحديد في موضوع " نسَب جميل وأخباره" يقول: " والنّسّابون مختلفون في قضاعة
فمنهم من يزعم أن قضاعة بن معدّ وهو أخو نزار...ومنهم مَن يزعم أنهم من حِمْيَر" (الأغاني.الأصفهاني.ط2. شرح سمير جابر. دار الكتب
العلمية. بيروت. ط2. 1992. 95/8). و ينظر في الموضوع أيضا في: تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 25/1.

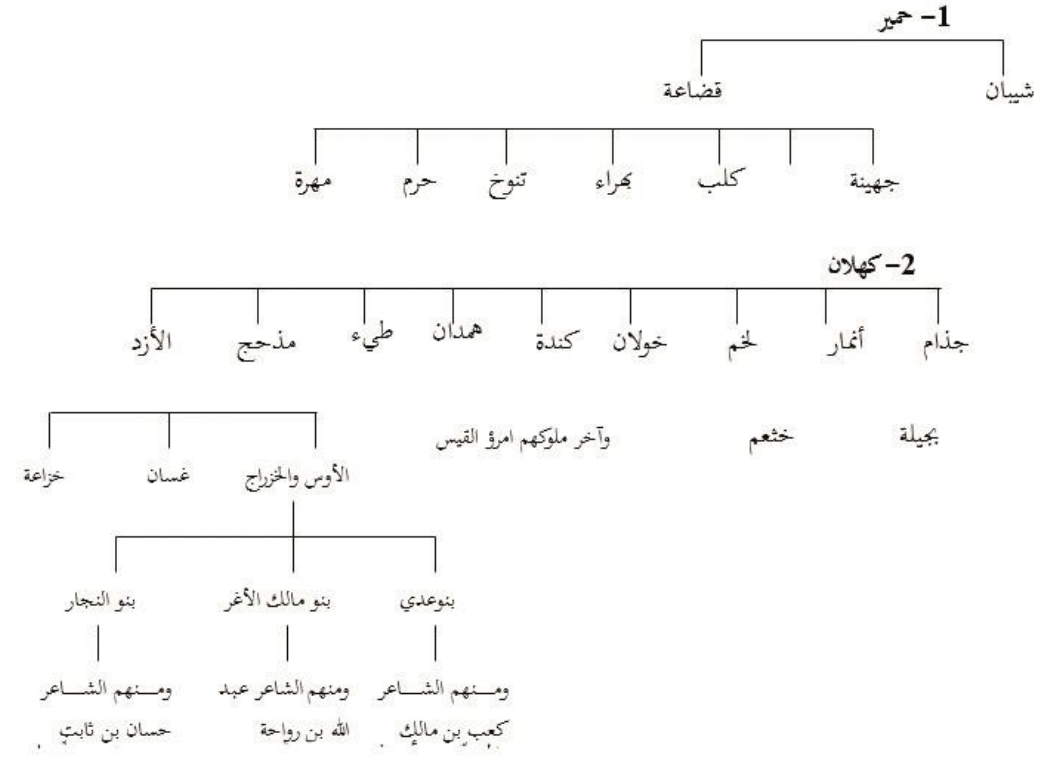
1- حمير
شيبان
قضاعة
جهينة
كلب
بحراء
تنوخ
حرم
مهرة
2- كهلان
جذام
أنمار
لخم
خولان
كندة
همدان
طيء
مذحج
الأزد
بجيلة
خثعم
وآخر ملوكهم امرؤ القيس
الأوس والخزرج
غسان
خزاعة
بنوعدي
بنو مالك الأغر
بنو النجار
ومنهم الشاعر كعب بن مالك
ومنهم الشاعر عبد الله بن رواحة
ومنهم الشاعر حسان بن ثابت

ب- **العرب المستعربة :** أو عرب الشمال أو المعدّيون أو العدنانيون أو الإسماعيليون إما نسبةً إلى الأرض التي كانوا يسكنونها، وهي شمال اليمن في تهامة والحجاز ونجد حتى مشارف العراق والشام ، وإما نسبة إلى معد بن عدنان، أحد أحفاد إسماعيل بن إبراهيم (ع) من ناحية النسب[1] كما سمّوا بالعرب المستعربة وذلك لأن إسماعيل (ع) عندما نزل مكة كان يتكلم العبرانية، ولما صاهر اليمنية تعلم العربية منهم.

ولقد ظلّ عرب الشمال يعيشون معيشة صحراوية تعتمد على رعي الإبل والغنم وتتبع مساقط الغيث، ومنابت الكلأ، ولم تكن لهم حواضر إلا بالواحات في الحجاز، ويذكرون أن " مواطن بني عدنان مختصة بنجد، وكلها بادية رحالة إلا قريشا بمكة ونجد. قال السهيلي : ولا يشارك بني عدنان من العرب في أرض نجد أحدٌ بن قحطان إلا طيء من كهلان، فيما بين الجبلين سلمى وأجأ، قال: ثم إفترق بنو عدنان في تهامة والحجاز، ثم في العراق والجزيرة يعني الجزيرة الفُراتية " [2] . أما

---

[1]وقد روى ابن عباس أن النبي " ص " انتَسَبَ فلمّا بلغ عدنان وقف، وقال: كذب النسّابون، وقد روى ابن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عائشة أن النبي (ص) قال: استقامت نسبة الناس إلى عدنان " – عن: الفكر الديني الجاهلي. الفيومي. ص:101. وجاء في كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين ص:05: " سُئِل مالك رحمه الله عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم، فَكَرِهَ ذلك، وقال: مِن أين يعلم ذلك ؟ فَقِيل له فإلى إسماعيل فأنكَرَ ذلك، وقال: ومَن يخبره به " – ينظر أيضا: تاريخ ابن خلدون. 2/ 03 - وينظر أيضا: في تاريخ الأدب الجاهلي. على الكندي. ص: 28. وفي هذا دليل على أن الأنساب كانت ولا تزال في مجموعها مجالا للشك.

[2] اللهجات العربية.عبدهالراجحي.ص: 30.

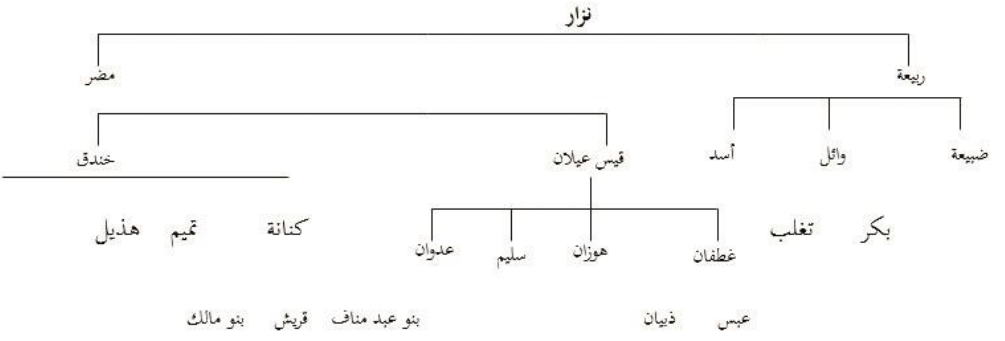

أشهر قبائلهم فهي نزار ومنها تفرّع البطنان الكبيران: مضر وربيعة:

لقد يكون الذي ذكرناه سابقا خلاصةً لأهم القبائل العربية وسواء صحّت أنسابهم أم لم تصح إلا أنهم اعتنقوها وقبلوها، ولا سيما المتأخرين منهم، حيث بنوا عصبياتهم التي نفسِّر بها أحداثا تاريخية هامة، ونفهم بها شعرا وأدبا كثيرين، وخاصة فيما يتعلق بالفخر والهجاء. وتموقع كل الناس على أنهم إما من ربيعة أو من مضر أو من اليمن، بل إننا نجد أن الصراع كان يدور بين القيسية واليمنية، حيث تصبح قيس عيلان شاملةً لكل بني نزار من مضر وربيعة. وبهذه العقيدة الراسخة في عقولهم أنشأوا كثيرا من تفاخرهم ومهاجاتهم ولا سيّما خلفاء بني أمية ومن جاء بعدهم، حيث أذكَوا نارَ الأنساب حين كثرت الأحزاب المنادية بالملك والخلافة .

الحياة الاجتماعية للعرب :

لم يكن النظام الاجتماعي للعرب بدعا من الأنظمة البدائية الأخرى، فقد كان العرب تبعا لإيمانهم بالأنساب إيمانا شديدا، يتّبعون نظاما سياسيا متمثّلا في القبيلة التي كان يشعر أفرادها بالانتساب إليها والاعتزاز بها، مثلما هو الحال بالنسبة إلى الوطن في وقتنا هذا، فلقد كانوا يؤمنون بالأصل الواحد ذي الدم الواحد واللحم الواحد، وكذا الوطن الواحد بالنسبة للحضريين منهم. أما البدو الرحّل فكان موطنهم يرحل معهم إلى حيث المراعي والماء، وكان يجمع القبيلةَ عصبيةٌ هي أساس بقائهم ولكن هذه العصبية ضئيلة، حيث لم يتمكن العرب من أن يجمعوا أنفسهم تحت ملك واحد أو رئيس واحد، حتى أصحاب الملك والإمارات منهم فإنهم " لم ينفذوا فعلا إلى فكرة الأمة العربية أو الجنس العربي ، بحيث يجمعون تحت لواء واحد ، إنما هنالك إتحاد قَبَليٌّ له

رئيس "[1]

وعادة ما يكون رئيس القبيلة أو سيدها شيخا كبيرا مجرّبا خَبِر الحياة وضروبَها ويتميز بالحنكة والحكمة وتقدير الأمور وسعة الثروة وكثرة الولد وبشجاعةٍ مشهودة له، حيث يَسُوسُ القبيلة ويقودها في الحروب ويستقبل الوفود ويعقد الصلح والحلف وغير ذلك مما تتطلبه حياة المجتمع القبلي غير أن سلطة السيد معنوية يستمدّها من أقرانه ومُثَلائِه في القبيلة رؤساءِ الأُسَر والرّهوط، وهم جميعا يمثّلون مجلسا قَبَليا تلعب فيه الشورى دورا كبيرا " وهذا ما يُسَوّغ إطلاق صفة الديمقراطية على المجتمع العربي، وهي تسمية صحيحة إذا كان المراد منها التوازن الديمقراطي بوصفه غريزة اجتماعية تقوم مقام المؤسسات السياسية "[2]

وكانت هذه السلطة المعنوية إذا تطورت وأخذت منحًى استبداديا فجزاؤها مثل جزاء كُلَيب التّغلبي الذي قتله جَسَّاس بن مُرَّة من بني بكر بعد أن بغى كليب وتجبّر [3]، وماكان بعد ذلك من خبر حرب البسوس والتي أخذت بُعدا أسطوريا. [1]

---

[1]العصر الجاهلي. شوقي ضيف. ص 58 .

[2] تاريخ الأدب العربي . بلاشير 1/ 36 وما بعدها

[3] ينظر إلى القصة كاملة إلى " حرب البسوس " في الأغاني 5/39-69 . وتاريخ العرب قبل الإسلام.عبد العزيز سالم. 378/1 وما بعدها .

[1]يذهب أكثر المستشرقين إلى أنّ حرب البسوس شابتها الأسطورة. (ينظر في تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 37/1 ،وفي: 258/1 حيث ترجمة
" مُهَلْهِل " أخي كُلَيْب .

كما أن سـيد القبيلة[2] لابد أن يتحلى بصـفات أخرى كالكرم والنجدة والشـجاعة وإغاثة الملهوف ومعاونة الضـعيف والمعوزّ ، ولا بد أن يكون حليما كبيرَ النّفس حازما مهيبا ذكيا متحمّلا لأكبر قسـطٍ من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديّات .

ولقد كان أفراد القبيلة الواحدة جميعُهم يضـعون أنفسَـهم وأموالهم في خدمتها وصَـونِ حقوقها ، بل إنهم كانوا لا يؤمنون إلا بها، وهذا ما يفسّـر تجاهلهم للقبائل الأخرى مما جعلهم يتميّزون بحب الإغارة والسـلب والسّبي[3] مما يشيع في نفوسهم نوعا من الزهو والخيلاء كمنتصرين غير

---

[2]ظاهرٌ أنّ فردية العربي وإباءه وحبّه لحريّته وقف حائلا لمبدأ الوراثة في الرئاسة القَبَلية, بل إن شيوخ القبائل كانوا يأنَفُون من التسوّد عن طريق الوراثة وقد أشار إلى هذا المعنى عامرُ بنُ الطُّفَيل أحدُ ساداتِ بني عامر في قوله :

وإني وإنْ كُنتُ ابنَ سيّد عَامِرٍ وفي السِّرِ منها والصَّريحِ المُهَذَّبِ
مَا سَوَّدَتْني عَامرٌ عَن وِرَاثَةٍ أَبَى الله أنْ أسمُو بأمٍّ ولا أَبِ
ولَكنَّني أحْمِي حِمَاها وأتَّقِي أذَاهَا وأرمِي مَن رَمَاهَا بمَقنبِ

(ينظر تاريخ العرب قبل الإسلام . ع العزيز سالم. 362/1 .هامش رقم: 1)

[3]لعلّ خير ما يمثّل ذلك قولُ القَطَاميّ الشاعر:

فَمَن تَكنِ الحَضَارةُ أعْجَبَتهُ فَأيَّ رجَالِ بادِيةٍ تَرانا
ومَن رَبَطَ الجِحَاشَ فإنَّ فِينا قَنا سُلُباً و أفْرَاساً حِسَانا
وكُنَّ إذا أغَرْنَ عَلَى قَبِيلٍ فَأَعْوزَهُنَّ نَهْبٌ حَيثُ كَانا
أَغَرْنَ مِن الضّباب عَلى حِلالٍ و ضَبَّةَ إنهُ مَن حَانَ حَانا
و أحْياناً عَلى بَكْرٍ أخِينَا إذَا لم نَجِدْ إلاَّ أَخَانا

(قنا: جمع قناء، و سلبا: طوالا، قبيل: الجمع من الناس، الضباب: اسم قبيلة، والحِلال: المجاور-،وقوله من حان حانا: أي من جاء أجَلُه فهو لابدَّ هالك)

مبالين بالآخرين الذين يُلْقُون في قلوبهم الرعب، وكانت الغارات على مدار الحول إلا الأشـــهر الحرم، بل إن حميّتهم الجاهلية كانت تدفعهم إلى القتال في هذه الأشـــهر غير مبالين، كما كان في حرب الفِجَار[4] " بين قريش ومَن معها من كنانة، وبين قيس عَيلان[5] "، وقد شهدها الرسول (ص) وهو ابن أربع عشرة سنة، حيث قال: " شهِدتُ الفِجَارَ وأنا ابنُ أربع عشرة سنة، وكنت أنبل على عُمُومَتي ". [6]

وكانت هذه الحرب – مثل غيرها من الحروب الأخرى والتي ســـموها بأيام العرب- على مبدأ عامٍ هو " يومٌ لَكَ ويومٌ عَلَيك". ومن أشهر هذه الحروب والأيام، يوم ذِي قار وفيها انتصـــر العرب على الفرس ويوم شِـــعَبِ جَبَلَة وكان بين عبس وذبيان وحلفائهما من بني عامر وبني تميم، ويوم البَسُوس ويوم داحِس والغَبراء ويوم خزار ويوم الكُلابِ الأول ويوم دَارَة مَـأْسَـــل وغيرها مما لا مجال إلى ذكره الآن وهو مبثوث في كتب الســـير والتاريخ القديم.

ينظر: فجر الإسلام، احمد أمين، ص: 09.

[4]الفِجار (بكسر الفاء) بمعنى المفاجرة، وذلك أنه كان قتالا في الشهر الحرام فَفَجَروا فيه جميعا فسمي الفجار، وهذا هو الفِجار الأخير وقبله أيامٌ ثلاثة: الفِجار الأول، والثاني، والثالث (ينظر تفصيل هذه الحروب. الأغاني.22/58-79).

[5]سيرة ابن هشام. شرح و تعليق: طه ع الرؤوف سعد.مكتبة الرياض الحديثة. (د.ت)168/1. و فيها سبب حرب الفجار حيث قتل البراضُ بن قيس عروةَ الرّحال بنَ عتبة في الشهر الحرام، والأشهر الحرم هي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب.

[6] البيان و التبيين. الجاحظ. تحقيق و شرح: عبد السلام هارون. دار الفكر . (د.ت).290/3.

طبقات المجتمع:

كان المجتمع القبلي يتألف من ثلاث طبقات اجتماعية، طبقة الصُّرحاء وهم أبناء القبيلة" ذوو الدم النقي لأنهم من أب واحد ومنهم الطبقة الأرستقراطية في القبيلة وفيهم رئاستها"[1] وتعطي القبيلة لهذه الطبقة حقوقا منها أنها تسبغ حمايتها عليهم وتعطي لهم حق الإجارة، فإذا سلك فردٌ منها سلوكا غير مقبول يسيء إلى سمعة القبيلة و يجلب لها العار والسّبّة خلعته وطردته فيُسَمَّى خليعا أو طريدا " وكان هذا الخلع يتخذ صورة إعلانٍ رسميٍّ يذاع على الناس في المواسم والأسواق... وقد يبعثون مناديا بذلك، وقد يكتبون به كتابا "[2]، وقد يفعلون غير ذلك من أجل ألا تتحمّل القبيلة جرائره أو جريرة مَن يعتدي عليه، وتنزع عنه الحصانة والجنسية القبلية، ومن هؤلاء الخلعاء طائفةُ الشعراء الصعاليك المشهورة كالشنفرى وتأبط شرا وعمرو بن براق.

أما الطبقة الثانية فهي طبقة الموالي، وهم عتقاء القبيلة من العبيد الذين يظهرون بأسا وقوة، أو الأحرار الذين لجأوا إلى القبيلة من قبائل أخرى بعد خلعهم فيطلبون الجوار والحماية أو يدخلون ضمن حلف. ورابطة الجوار مؤقتة تنتهي بخروج الجار من كنف مجيره، أما رابطة الحِلف فهي قوية غير مؤقتة ومن أشهر الأحلاف العربية[3] والتي

---

[1] الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم).حنّا الفاخوري.دارالجيل.بير وت.1986.ص:90.

[2] المرجع نفسه. ص: 89.

[3] كان العرب يعقدون الحِلفَ على دم الذبائح، أو بغمس الأيدي في جفانٍ مملوءة بالدماء، أو بغمسها في الطيب أو غيرها.

تمت بين القبائل: حلف الفُضُـول وقد شـهده النبي[4]ص وحِلف الرّباب وحلف الحِمس وحلف قريش والأحابيش .[5]

أما الطبقة الأخيرة فهي طبقة العبيد الذين يؤسَـرون في الحرب أو الرقيق الـذين يجلَبون من الحبشـــة وغيرها، ويباعون في الأســـواق، وكانت هذه الطبقة محرومة من الامتيازات وتستعمل للأعمال الشاقة أو التي تنفر العرب من القيام بها كالحِدادة والرعي والنجارة وغيرها.

وكما هو الحال في كل مجتمع وحضـــارة منذ القديم إلى يومنا هذا فإن طبقة الأغنياء تمثل قلّة إذا ما قيسـت بالسـكان، حيث كان من العرب فريقٌ ينعَم بالثروة الفاحشـة والترف الباذخ، وفريق يمثل السَّـوادَ الأعظم يعـاني من الفقر والحـاجـة والعَوَز، وكان الأغنيـاء منهم يعملون بالتجارة والزراعة في الواحات الداخلية، وأدى اختلاطهم بالروم والفرس إلى الأخذ منهم في عادات أكلهم وشـــربهم فكانوا يتأنّقون فيهما، ويذكرون أن عبد الله بن جدعان أتى إلى العرب بطعامٍ لا عهد لهم به وهو الفالوذج

---

[4]قال رسول الله ﷺ:" لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا، ما أحبُّ أنَّ لي به حُمُر النّعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت "

- سيرة ابن هشام.123/1 و ما بعدها. و في الكتاب أيضا أشهر أحلاف العرب.

و كان حلف الفُضُول بعد الفِجار، ومفاده أنّ قبائلَ من قريش تداعَوا إلى حلفٍ فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان وتعاقدوا وتعاهدوا على ألاّ

يجدوا بمكّة مظلوما من أهلها و غيرهم ممَّن دخلها من سائر الناس إلاّ قاموا معه وكانوا على مَن ظلمه حتى تُرَدَّ عليه مَظْلَمَتُه.

(ينظر: سيرة ابن هشام. 22/1 وما بعدها).

[5] ينظر تاريخ العرب قبل الإسلام. عبد العزيز سالم. 384/1.

الفارسي.[1]

كما لعبت الأسواق في مثل سوق عدن وعكاظ وذي المجاز والمجنة والمربد دورا هاما في تنمية رؤوس أموال الأغنياء وتنشيط الحركة الاقتصادية التي أثّرت بنوع أو بآخر في حياة العرب ومعيشتهم.

صفات العرب:

يعد الكرم صفةً من صفات العرب الأكثر شيوعا في طبيعتهم بل " حتى أصبح التذكير بمظاهره ضربا من نوافل الكلام"[2]، وقد كانت الصحراء سببا قويا في تنمية هذه الفضيلة لديهم بما تحمله من كل معاني القحط والجفاف، حيث كان الغني الكريم يذبح إبله ويطعم بها عشيرته كما يذبحها مرتاحَ البال قريرَ العين لكلِّ من يطرق بابه من الأضياف، وكان منهم من يشعل النار على رؤوس الجبال لدعوة كلّ من ضلّ الطريق، وقد تغنّى الشاعر القديم بكرمه أو بكرم ممدوحه، ومن ذلك نرى لبيدَ بنَ ربيعة العامريَّ يقول في معلقته:[3]

وجَزُورِ أَيسَارٍ دَعَوتُ لِحَتفِها ... بمَغالِق مُتشابِهٍ أجْسَامُها

أدعُو لهُنَّ لِعاقِرٍ أو مُطْفِلٍ ... بُذِلَت لجيران الجَميع لِحامُها

فالضّيفُ والجارُ الجَنِيبُ كأنّما ... هَبَطا تبالَةَ مُخْصِباً أهْضامُها

تِأْوِي إلى الأَطْنابِ كلُّ رَذِيلَةٍ ... مِثل البَلِيَّةِ قَالِصٌ أهْدامُها

---

[1] ينظر المصدر السابق.386/1.

[2] تاريخ الأدب العربي. بلاشير.43/1.

[3] شرح المعلقات السبع. الزوزني. (معلقة لبيد)ص: 248 و ما بعدها.

(الجنيب: الغريب- الأطناب: حبال البيت- رذية: الناقة التي تخلف في السفر لهزالها وكلالها. واستعارها للفقيرة، البليّة: الناقة التي تشد على قبر

صاحبها حتى تموت- قالص: قاصر- أهدامها: الخَلِقُ من الثياب والبالي منها).

فهو يفتخر بنحره لإبله التي هي من صُـلب ماله لا من كسـب القمار، وإنّ منها الناقةَ العاقر لأنها أسـمن، ومنها النّاقةَ التي معها ولدُها لأنها أنفسُ وأغلى، وأنها محلّلة للجيران وللضيف وللغرباء، وشبَّه نزولَهم عليه كمَن نزل وادي تبالة أيام الربيع، ثم يذكر بأنه تأوي إلى حبال بيته كلُّ فقيرةٍ مسكينة ضعيفة ويشبّهها بالبليّة في قلّة تصرّفها وعجزها عن الكسب والارتزاق.

ونجد شاعرا آخر لا يقلّ كرما عن سابقه، وهو طرفة بن العبد، يقول في معلّقته مبيّنا كرمَه:[1]

وبَرْكٍ هُجودٍ قد أثَارَتْ مَخَافَتِي ... بَوادِيها أمشِي بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ
فَمَرَّتْ كَهاةٌ ذاتُ خَيْفٍ جُلالَةٌ ... عَقِيلَةُ شَيخٍ كالوَبِيلِ يَلَنْدَدِ
يَقولُ وقَد تَرَّ الوظِيفُ وسَاقُها ... أَلَسْتَ تَرى أنْ قَد أَتَيتُ بِمُؤْبِدِ
وقال: ألاَ ماذا تَرَونَ بشَارِبٍ ... شَديدٍ عَلَينا بَغيُهُ مُتَعَمِّدِ
وقال: ذَرُوهُ إنّما نَفْعُها لَه ... وإلاَّ تَكُفُّوا قَاصِيَ البَرْكِ يَزْدَدِ
فَظَلّ الإماءُ يَمْتَلِلْنَ حُوارَها ... ويَسعَى بها بالسَّدِيفِ المُسَرْهَدِ

فهو يسرد لنا حاله وهو مارٌّ بإبلٍ كثيرة باركة قد خافت منه وهو يحمل سيفا حادّا، ونفرت منه لِتَعَوُّدِها على ذلك، ثم يذكر بأنه قد مرّت به ناقةٌ ضخمة وهي كريمةُ مالِ الشيخ أبيه الذي كبر فَنَحُل جسمُه حتى صار كالعصا الضخمة يَبَسا وهو شديد الخصومة، ثم يصوّر أباه

---

[1] المصدر السابق. (معلقة طرفة بن العبد)ص: 97 و ما بعدها.

(برك: الإبل الكثيرة الباركة- بواديها: أوائلها- عضب: سيف قاطع- الكهاة والجلالة: الناقة الضخمة السمينة -العقيلة: كريمة المال و النساء- الوبيل: العصا الضخمة- يلندد: الشديد الخصومة- تَرَّ: سقط- المؤبّد: الداهية العظيمة).

وهو يقول بعد أن سقط وظيفُ الناقة وساقُها بأنْ قد أتى بداهية شديدة بعقره هذه الناقة الكريمة، ويستطرد أبوه الشيخ قائلا للحاضرين: أيّ شيءٍ ترون أن نفعل بشارب خمرٍ بغى علينا عن تعمّد وقصد، ثم يصوره قائلا وقد استقرّ رأيه: إنما نَفْعُ هذه الناقة له، وإن أنتم لم تكفّوه ازداد نحرا للإبل، وأخيرا يصوّر طرفةُ الإماءَ وهنّ يشوين ولد الناقة الذي خرج من بطنها، وذِكرُ الحُوار دالٌّ على أنها كانت حُبلى وهي من أنفس الإبل عندهم.

وإلى جانب الكرم نجد الوفاء بالعهود والوعود، ومن ثمة أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وضربوا على أنفسهم عهدا بالوفاء له ونصرته مادام محتميا بالمجِير، ومن أمثلتهم المشهورة في الوفاء قولهم:" أوفى من السّموأل" وهو السموأل بن عريض بن عادياء اليهودي صاحبُ الحصن المعروف بالأبْلَق[2] بتيماء، ويضرب به المثل في الوفاء لأنه أسْلَمَ ابنَه للقتل، ولم يخن أمانته في دروعٍ ائتَمَنَها عنده امرؤ القيس الشاعرُ لما صار إلى القسطنطينية طالبا معونة القيصر[3] وفي ذلك يقول:[4]

وَفَيتُ بِأدْرُعِ الكِنْدِيّ إنّي إذا مَا ذُمَّ أقوامٌ وَفَيْتُ

---

[2]و في ذلك يقول امرؤ القيس مادحا:

و لقَد أَتَيتُ بني المصّاصِ مُفَاخِرا و إلى السَّمَوأَلِ زُرتُه بِالأبْلَقِ

فَأتَيتُ أفْضَلَ مَن تَحَمَّل حَاجَةً إنْ جِئتَهُ في غَارِمٍ أو مُرهِقِ

عَرَفَتْ له الأقْوامُ كُلَّ فَضيلَةٍ و حَوَى المكَارِمَ سَابقاً لم يُسْبَقِ (الأغاني.116/9)

[3]أنظر خبر امرئ القيس مع السموأل في: الأغاني: 123/22 و 140/9 و 115/9.

[4]المصدر نفسه.125/22 و 140/9 (الكندي: هو امرؤ القيس منسوبا إلى كِندَة موطِنِه).

وأوصَى عَادِيا يومًا بألاَّ تُهَدِّمَ يا سَمَوألُ ما بَنيتُ
بَنَى لي عَادِيا حِصناً حَصِينا ومَاءً كُلَّما شِئْتُ اسْتَقَيْتُ

وفي ذلك يقول الأعشى مادحا السموأل ومستجيرا بابنه شُرَيح ويعرض عليه أن يكون كوالده في الوفاء:[1]

كُن كالسموأل إذْ طافَ الهُمامُ به في جَحْفلٍ كسَوادِ الليلِ جَرَّارِ
إذ سَامهُ خَطَّتَي خَسْفٍ فقال قُل ما تشَاء فإني سَامعٌ حَارِ
فقال: غَدرٌ وثَكلٌ أنتَ بينهما فاخْتَر، وما فيهما حَظٌّ لمخْتارِ
فشَكّ غيرَ طويلٍ ثمّ قالَ له اقتُل أسِيرَكَ إني مَانِعٌ جارِي
وسَوفَ يَعْقُبُنِيهِ إنْ ظَفِرتُ به رَبٌّ كريمٌ وبِيضٌ ذاتُ أطْهارِ

كما كان العرب يتغنون بالشجاعة والعزة والكرامة والأَنَفَة، ويغيثون الملهوف ويحملون الضعيف ويعفُون عند المقدرة ويأنفون من الضيم، كما أنِفَ عمرو بن كلثوم وثار على عمرو بن هند حين علِم بإهانة أمِّه في بلاطه فأرداه قتيلا[2]، وصوّر كلَّ ذلك في معلقته الشهيرة .

على أن العرب شاعت بينهم آفات اجتماعية من أهمها الخمر و سبي النساء و القمار ووأد البنات و الأخذ بالثأر، و قد حدّثونا عن الأعشى بأنه عَدَل عن وجهته إلى الرسول ص مادحا عندما لقيه أبوسفيان وقال له:" إنه ينهاك عن خلالٍ كلّها بك رافِقٌ ولك موافق" فلما سأله عنها أجابه

---

[1] المصدر السابق.139/9 و 126/22 (حارِ: مُرَخَّم حارث بن ظالم، وهو الذي قتل ابنَ السَّمَوأل- بيضٌ ذات أطهار: نساء بيض طاهرات).

[2] ينظر إلى قتل ابن كلثوم لعمروِ بنِ هِند، وذلك بعد أن أهانت هندٌ وهي عمّة امرئ القيس الشاعر ليلى بنتَ مهَلهِل أخي كليب أمَّ عمرو بنِ كُلْثوم ينظَر إلى القصة في: الأغاني.56/11.

بقوله: الزّنا والقمار والخمر[3]، ولأمرٍ ما هاجم الإسلام[4] هذه الآفات ووضع لكلٍّ منها عقابا صارما حتى يكفّوا عنها ويتّبعوا الطريقَ السّوي.

المرأة في المجتمع الجاهلي:

في مجتمع الجاهلية نوعان من النساء: حُرّات وإماء، فأما الإماء فمنهن السُودُ، ومنهن الجواري اللّواتي كنّ يُسْبَين من الحروب والغزوات، وكانت هذه الطبقة تباع في الأسواق مثلها مثل العبيد، وكان منها العاهرات اللواتي يمارسن الفاحشة ويعملن في الحانات المنتشرة يَسْقِين الخمر، وكان منها القَينَاتُ اللائي يضربن على المزهر ويُغنّين، وكان منها أيضا النساء اللواتي يخدمن في البيوت ويقمن بأعمال الشريفات وقد يرعين الإبل والأغنام، ولا يُعتَقْن إلا بعد أن يُنجِبن أولادا ذكورا يقومون بأعمالٍ بطولية مُشرّفة كما هو الحال مع عنترة بن شداد العبسي عندما أظهر شجاعةً وبسالة لا نظير لهما أدخلته ضمن رجال الأساطير.

وأما الحُرّات فكنّ يُعاملنَ معاملة خاصة، وكنّ يقمن بطهي الطعام ونسج الثياب إلا إذا كنّ من الشريفات المخدومات اللواتي يتخذنَ الجواري والإماء ليقمن بأعمال البيت، وكن يخترن أزواجهن[1]

---

[3] ينظر إلى القصة كاملة في الأغاني. 147/9.

[4] في القرآن آيات عديدات نزلت منفِّرة من هذه الآفات منها:
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ البقرة آية: 219.و قوله:﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ سورة المائدة (05) آية:91.و قوله تعالى:﴿و لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ سورة الإسراء(17) آية : 32.

[1] جاء في كتاب الأغاني أنّ دُريد بن الصّمة الشاعر خطب الخنساء من أبيها فقال له

ويفارقونهم إذا لم يحسنوا معاملتهن.

كما كنّ يرافقن الرجالَ في الحروب " يحمّسن المهاجمين ويُقَرِّعْن المعوِّقين والجبناء، فتُحمَل ابنة السيد على جملٍ في هودج... يدافعون عنها حتى الموت"[2].

وكنّ يداوين الجرحى ويشتركن في القتال ويرثين موتاهم كما فعلت الخنساء في رثاء أخويها صخر ومعاوية[3]، وكنّ يحرّضن على الثأر

بعدما أثنى عليه:" ...ولكن لهذه المرأة في نفسها ما ليس لغيرها، وأنا ذاكرُكَ لها وهي فاعلة " فرفضت وقالت لأبيها:" يا أبتِ أتُراني تاركةً بني عمّي مثل عوالي الرّماح،وناكحةً شيخَ بني جُشَم هامةَ اليوم أو غد "أي أن هلاكه وموتَه قريب. الأغاني.27/10.

[2]تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 45/1.

[3]ينظر الخنساء و خبرها و خبر مقتل أخويها في: الأغاني: 15/72-108.

[4]كما كانت تفعل هند بنت عتبة زوج أبي سفيان حين حضّت على الثأر بعد مقتل أبيها و عمها و أخيها في معركة بدر الكبرى، قال صاحب الأغاني في : 15/185:" قامت هند بنت عتبة في النسوة اللواتي معها و أخذن الدفوف يضربن خلف الرجال و يحرّضنَهم، فقالت هند فيما تقول: (رجز)

إنْ تُقبِلوا نُعانِقْ و نَفرشُ النَّمارِقْ

أو تُدبِروا نُفارِقْ فِراقَ غيرَ وَامِقْ

و تقول

إيْهًا بَنِي عَبْدِ الدَّارْ إيْهًا حُمَاةَ الأَدْبَارْ

ضَرباً بِكُلِّ بَتَّارْ

و ينظر أيضا: الأغاني: 12/391 و ما بعدها و 24/86.

للقتلى[4] ويغضبن ويُعَيِّرنَ الرجالَ إن هم قبِلوا بالدّيّة مثلما فعلت كَبْشَةُ أخت عمرو بن معد يكرب، وقد سمعت بمقتل أخٍ لها، وقد همّ عمرو هذا بقبول الدية فقالت تعيّره وتحرّض قومَها على الثأر[5]

ودَعْ عنكَ عَمْرا إنّ عمْرا مسالِمٌ وهل بَطنُ عمروٍ غيرُ شِبرٍ لمَطْعَمِ
فإنْ أنتمُ لم تقبلُوا واتَّدَيْتُمُ فَمَشُّوا بآذَانِ النَّعامِ المُصَلَّمِ

وقال عمرو قصيدةً له بعد ذلك منها[1]

أرِقتُ وأمْسَيتُ لا أرقُدُ وسَاوَرَني الموجِعُ الأسودُ
وبتُّ لذِكرى بني مَازِنٍ كَأنّي مُرتَفِقٌ أرْمَدُ

ومن أهمية المرأة عند العرب ابتداؤهم في قصائدهم بذكر حبيباتهم وصواحبهم وزوجاتهم حيث لم " تكن المرأة مهملة، بل كان لها قدرها عندهم، كما كان لها كثير من الحرية، فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء، وقصة اتجار الرسول ص في أموال خديجة أمّ المؤمنين مشهورة".[2]

ولقد حرّم الإسلام بعض الزيجات التي تهان بها المرأة، وقد اشتهر في الجاهلية زواج المتعة إلى أجَلٍ فإذا انقضى افترقت المرأة عن الرجل، وكان زواج المقت وهو أن يتزوج الرجل زوجة أبيه، وزواج الشغار وهو أن يتزوج رجلٌ أختَ صديقه على أن يزوجه أخته، إلى غير ذلك مما

---

[5] المصدر نفسه. 221/15 (اتديتم: قبلتم الدية - المصلّم: المجدّع أي المقطوعة أذنه)

[1] المصدر السابق.(مرتفق:متّكئ على مرفق يده)

[2] العصر الجاهلي.شوقي ضيف.ص:75.

كانوا يبيحونه لأنفسهم.

وأما ما كان من وأد البنات فأكثر العلماء والمفسرين يرجعون هذه الظاهرة لأسباب منها الدينية كإظهار الشكر لله على نعمه، ومنها الاجتماعية كالفقر والعوز وكثرة البنات، وظاهر من قوله تعالى:﴿ **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُم إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً** ﴾[3]وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ**﴾[4] أن العامل الاقتصادي هو أقوى هذه الأسباب والعوامل، والظاهر أن الوأد كان من صفات أجلاف قساة القلوب لا يفارقهم إلى غيرهم من حيث إنّ البنات يتعرضن للسّبي والخطف، وحسب ذلك من سُبَّةٍ لهم ما بعدها سُبّة، وعار يلحقهم أبد الدهر ما بعده عار.

و- الحياة الدّينية:

أ- الوثنية في أرض العرب:

كانت الكثرة الغالبة من العرب في الجاهلية على الوثنية التي تؤمن بقوى إلهية كثيرة، وتذكر الروايات أن عمْرا بنَ لُحَيٍّ هو أول من أدخل هذه الأوثان والأصنام إلى أرض العرب، فقد جاء في السيرة أن الرسول ص قال لأكثم بن الجون الخزاعي: " يا أكثمُ، رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قُصْبَهُ (أمعاءه) في النار، فما رأيت رجلا أشبهَ برجلٍ منكَ به، ولا بك منه، فقال أكثم عسى أن يضرّني شَبَهُهُ يا رسول الله ؟ قال: لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غيّر دينَ إسماعيل فنصب الأوثان وبَحَرَ البحيرة وسيّب السائبة ووصَل الوصيلة وحمى

---

[3]سورة الإسراء (17).آية:31.

[4]سورة الأنعام (06).آية:151.

الحامي".[1]

وجاء في السيرة أيضا أن ابن لحي هذا خرج من مكة قاصدا الشام، فلما حلّ بقرية مآب وكان يسكنها يومئذ العماليق، فرآهم يعبدون الأصنام، فلما سألهم عن ذلك:" قالوا له: هذه الأصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنما فأسيرَ به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنما يقال له هُبَل، فقدم به مكة، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه".[2]

والصنم يكون غالبا عبارة عن تمثال، أمّا الوثن فيكون حجرا، وقال السهيلي: " يقال لكلّ ما كان من حجر وغيره صنمٌ، ولا يقال وثن إلا ما كان من غير الصخر كالنحاس وغيره"[3]، والظاهر من أسماء القبائل العربية أنهم كانوا قريبي عهد بالطوطمية (Totemism)[4] ، فقد كان منهم من يسمَّى بأسماء الحيوانات مثل: بني أسد، وبني كلب، وبني ضبعة، أو

---

[1]سيرة ابن هشام، 71/1 و من ذلك قوله تعالى:﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذبَ، و أكثرهم لا يعقلون﴾، - ينظر تعريف كل واحدة منها في معجم اللغة و أيضا في : سيرة ابن هشام. 84-82/1.

وفي: العصر الجاهلي. شوقي ضيف.ص: 93. وفي: تاريخ الفكر الديني الجاهلي. محمد إبراهيم الفيومي، 497 و ما بعدها.

[2]المصدر نفسه.72/1.

[3] في تاريخ الأدب الجاهلي. علي الجندي. ص: 77.

[4] ينظر: العصر الجاهلي شوقي ضيف. ص:89 . و تاريخ العرب قبل الإسلام. عبد العزيز سالم. 405/1.

(5) سورة النجم (53) آية: 19-20.

بأســماء الطيور مثل عقاب، نســر، أو بأســماء نباتات مثل حنظلة، حرملة، أو بأجزاء من الأرض كصخر وجبل وسهل.

وكان للعرب أصــنـام أشــهرهـا التي جـاء ذكرهـا في القرآن الكريم:﴿أَفَرَ أَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى {19} وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾[5]وقولـه تعالى:﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُـوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾.[6]

أما اللات فكانت بالطائف، وذكروا بأنها صخرة مربعة بيضاء[7] بَنَت عليها ثقيف بيتا فهي تعظمه وتكســوه وتحرم واديه، وكانت قريش وجميع العرب يعظمونه أيضا.

وأما العُزَّى فقيل بأنها شـجرة لغطفان، ويذكر ابن هشــام أنها لقريش وبني كنانة وأنها نخلة، وهي من أعظم الأصـنام عند قريش فكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالدِّباغ ويذكرون أن قريشــا كانت تطوف بـالكعبـة وتقول:" واللات والعزى ومنـاة الثـالثـة الأخرى فـإنهنّ الغرانيقُ العُلى وإنّ شــفـاعتهن لتُرتَجى"[1]وكان ممن يتقدم إليها بالنذور والهدايا الوليدُ بن المغيرة، وحين فتح الرســول ص مكة في العام الثامن للهجرة أمر خالدا بن الوليد بن المغيرة بقطع شجرة العزى فقطّعَها.[2]

---

(6)سورة نوح (71) آية: 23.

(7) ينظر: العصر الجاهلي. شوقي ضيف.ص:90. و تاريخ الفكر الديني الجاهلي. إبراهيم الفيومي. ص: 414 ، وفيه لم سمّيت اللاّت بهذا الاسم. و أنظر: معجم البلدان للحموي مادة (اللات) .

[1]تاريخ العرب قبل الإسلام. عبد العزيز سالم. 422/1.

[2]المصدر نفسه. 422/1. و في تاريخ الأدب الجاهلي. علي الجندي. هامش رقم 07

وأما مناة فكانت للأوس والخزرج وقيل لخزاعة وهذيل وهي من أصنام العرب القديمة كانت العرب تعظّمها وتذبح لها وتهديها الهدايا، فلما فتح الرسول ص مكة بعث إليها علي بن أبي طالب فهدّمها،وقيل أبا سفيان بن حرب،وهذه الأصنام الثلاثة المذكورة في القرآن إناث عند عرب الجاهلية.

ومن أصنامهم أيضا" إساف" و " نائلة"، وذكروا أن عائشة (ض) قالت:" مازلنا نسمع أنّ إساف ونائلة كانا رجلا وامرأة من جُرْهُم، أحدثا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حَجَرَين والله أعلم".[3]

أما هُبَل فكان من أعظم أصنام قريش، وكانوا يستسقمون عنده بالقداح، وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله، بعد أن أقبل به إلى إساف ونائلة ليذبحه[4]، وباسمه كان ينادي أبو سفيان في معركة أحُد صائحا: أُعْلُ هُبَل.[5]

وأما الأصنام الأخرى التي ذكرناها سابقا فقد زعم ابنُ الكلبي" أنّ خمسة أصنام من أصنام العرب من زمن نوح، وهي: وُدّ وسُواع ويَغوث ويَعوق ونسر"[6] وقد ذكرت في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿**قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً {21} وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً {22} وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً**

.ص: 78.

[3]سيرة ابن هشام. 77/1.

[4]المصدر نفسه. 14/1. وفيه ذكر نذر عبد المطلب ذبح ولده عبد الله، وكان به سبعة أقداح هي: العقل- لا- نعم- ملصق- منكم- من غيركم- المياه)

[5]العصر الجاهلي. شوقي ضيف. ص: 91.

[6]تاريخ الفكر الديني الجاهلي. الفيومي. ص: 420.

وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَوَنَسْراً {23} وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً﴾ .[7]

فأما ودّ فكان بدومة الجندل، وأما سواغ فكان لبني هذيل وكنانة، وكان على شكل امرأة، وأما يغوث فكان صنما لمذحج وعشائر من هوزان، وأما يعوق فكان بأرض همذان من اليمن، وكان نسر معبود حمير.[1]

وهناك روايةٌ لابن الكلبي جاء فيها أن وُدًّا وسُواعا ويَغوث ويَعوق ونِسرا كانوا قوما صالحين

" ماتوا في شهرٍ، فجَزِع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجلٌ من بني قابيل: يا قومُ، هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم، غير أني لا أقدر أن أجعل فيهم أرواحا، قالوا : نعم، فنَحَتَ لهم خمسة أصنام على صورهم ونَصَبَها".[2]

ب- الصابئة والمجوس:

وكان من العرب من يعبد الكواكب والنار وهم الصّائبة والمجوس، ومن خلال ذكر الله للصابئة في القرآن الكريم يتضح لنا أن هناك فرقتين لهم هما صابئة الحنفاء والصابئة المشركون.

فأما الأولى فالتي ذكرت في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْوَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ**

---

[7]سورة نوح (71) آية: 21 وما بعدها

[1]ينظر: سيرة ابن هشام. 74/1 وما بعدها.وتاريخ الفكر الديني الجاهلي. الفيومي. ص: 421. وتاريخ العرب قبل الإسلام. عبد العزيز سالم. 413/1 وما بعدها. و العصر الجاهلي. شوقي ضيف. ص: 90.

[2]تاريخ العرب قبل الإسلام. عبد العزيز سالم. 414/1.

الآخِرِ وَعَمِلَ صَـــالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3] و قوله تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّـــابِؤُونَ وَالنَّصَـارَىمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِوعَمِلَ صَـالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُـمْ يَـحْـزَنُـونَ﴾**[4] وقـولـه تـعـالى:﴿**إِنَّ الَّـذِيـنَ آمَـنُـوا وَالَّـذِيـنَ هَـادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُبَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَـيْءٍ شَـــهِيدٌ﴾**[5]، وهي الفرقة التي اتبعت ملّة إبراهيم عليه السـلام وشـاركت أهلَ الإسـلام في حنيفيّتها، ويذهب عددٌ من علماء الإســلام إلى أن هذه الطائفة مُوحِّدة تعتقد بتأثير النجوم وتعظّمها كما تعظّم الكعبة، ولا تعبد الأوثان.[6]

والظاهر أنّ تسميتهم بصابئةٍ حُنفاء أنهم اشتركوا في التوحيد مع دين إبراهيم، وعارضوا جانبا منه حين قالوا بتأثير النجوم والكواكب ووساطتها.

أما الفرقة الثانية فهي الصابئة المشركون، ولقد اختلفوا عن الأولى في أنّهم عبدوا الكواكب والنّجوم غايةً وليس وسيلةً، وفارقوا الحنيفيّة في التّوحيد والوحي السماويّ.

ولمجاورة العرب للفرس، وخاصة الحيرة، دخلت بعض معتقدات المجوسية أو عبادة النار إلى العرب، وقالوا إنّ المجوسيّة كانت

---

[3] سورة البقرة (02)آية: 62.

[4] سورة المائدة (05)آية: 69.

[5] سورة الحج (22)آية: 17.

[6] ينظر إلى رأي علماء الإسلام كأبي حنيفة و ابن كثير و القرطبي و الألوسي في : تاريخ الفكر الديني الجاهلي. الفيومي. 279-282.

عند عرب الجاهلية في تميم، وأنه من بينهم زرارة بن عدس التميمي، وابن حاجب بن زرارة، والصحابي الجليل الأقرع بن حابس وغيرهم.[1]

جـ- اليهودية و النصرانية في أرض العرب:

انتشـر اليهود في العصـر الجاهلي بأرض اليمن والحجاز، وهذا بعد أن بدأ شـتات اليهود إثر تخريب مدينة: أورشـيلم" على يد الرومان سـنة 70م [2]، وبقول صاحب الأغاني:" ثم ظهرت الرّوم على بني إسـرائيل جميعا بالشـام فوطئوهم وقتلوهم ونكحوا نسـاءهم، فخرج بنو النّضير وبنو قريضة وبنو بَهدَل هاربين منهم إلى مَن بالحجاز لمـّا غلبهم الروم على الشام".[3]

واسـتقروا بيثرب أو المدينة المنورة وخيبر وتيماء ووادي القرى، وكانوا يشـتغلون بالتجارة، ويحتكرون بعض الحرف والصـناعات كالزراعـة والحـدادة والنجارة والصـيـاغـة وصـنـاعـة الأسـلحـة، كما اسـتطاعوا تعلّم اللغة العربية والنطق بها لمجاورتهم العرب واحتكاكهم بهم، وبالرغم من هذا الاحتكاك إلا أنهم لم ينجحوا في نشـر دينهم، وذلك لأن تعاليمهم تقضـي بأنّ دينهم خاص بهم فقط، وأن ما عداهم أمميُّون لا يَرْقون إلى هذا الدين، إضـافـةً إلى المشـقـة في شـعـائرهم وأحكام شـريعتهم، وممّا نَفَّر العربَ منهم احتقارُهُم لهم، فقد كانت نفوسُـهم خبيثـة، يتّسـمون بـالغـدر والخـداع والمكر والحيلـة، ويعتبرونهم عملاء

---

[1] ينظر: تاريخ العرب قبل الإسلام. عبد العزيز سالم. 428/1.

[2] تاريخ العرب قبل الإسلام. عبد العزيز سالم. 433/1، و انظر أيضا في: تاريخ الفكر الديني الجاهلي. الفيومي . ص: 183.

و العصر الجاهلي. شوقي ضيف. ص: 97.

[3] الأغاني. الأصفهاني. 113/22. و فيه أخبار أوس (الشاعر) ونسب اليهود .

للفرس، وقد بيّن الله في القرآن أساليبهم ونفسيتهم وعقليتهم، وفضح مكرهم وخداعهم ومجادلتهم للرسول ص ومحاولاتهم للإيقاع بين الأوس والخزرج، وبين المسلمين بعضهم مع بعض، مما اضطر الرسول إلى إجلائهم من المدينة، " ولم يلبث عمر (ض) أن أمر بإجلاء كلِّ مَن ليس له عهد منهم، فخرج جمهورهم من الجزيرة، ولم يبق منهم إلا نفرٌ قليل"[4]، وقد نبغ فيهم عدد من الشعراء كالسمو أل بن عادياء، وأسلم منهم عددٌ قليل كعبد الله بن سلاّم، ووهب بن منبه، وكعب الأحبار وكعب بن سليم الصحابي ورفاعة القرظي خالِ صفية زوج النبي ص .[5]

أما النصرانية، وهي التي تتبع دين المسيح عيسى بن مريم، فقد اختلف في شأنها، فقيل إنها أُخِذَت من كلمة " نصارى" أي أتباع، في حين يذهب علماء اللغة الإسلاميين إلى أنها نسبة إلى" النّاصرة" التي نُسِبَ إليها المسيح .[1]

وإن كانت اليهودية قد دخلت الجزيرة العربية عن طريق الهجرة والتجارة، فقد انتشرت النصرانية عن طريق البعثات التبشيرية حيث " كانت البعثات الأرثوذكسية منهمكة بصورة خاصة في هداية الزنادقة إلى " حقيقة الكنيسة " في حين كان مبشرو اليَعَاقِبة والنَّسَاطِرة[2] من

---

[4]العصر الجاهلي. شوقي ضيف. ص: 98.

[5]ينظر: لسان العرب لابن منظور، مادة " نصر" .

[1]ينظر:المصدر السابق. لابن منظور. مادة " نصر".

[2]اليعاقبة :نسبة إلى " يعقوب البرادعي" وهم أتباع الكنيسة السريانية الغربية أو المونفيستيون، وتأصلت جذورها في سوريا، وهم القائلون بأن المسيح طبيعة واحدة أو أقنوم واحد، وقد دخل في مذهبه الغساسنة ،و من والاهم من عرب الشام.
أما النساطرة فنسبة إلى " نسطوريوس" وهم أتباع الكنيسة السريانية الشرقية التي

ناحيتهم يدعون البدو الوثنيين إلى المسيحية بهمّة لا تعرف الكَلَل". [3]

ولا نصل إلى العصر الجاهلي حتى نرى النصرانية في أرض نجران، وفي ذلك يقول ابن هشام: " ونجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام على الإنجيل، أهلُ فضلٍ واستقامة من أهل دينهم، لهم رأسٌ يقال له: عبد الله بن الثامر".[4]

وقد شاعت النصرانية في أرض العرب في تغلب وبكر وإياد، وفي طيء ودومة الجندل كما شاعت النصرانية في قبائل شتى بالحيرة، يقال

غرست جذورها في إيران، والتي ترى أن للمسيح طبيعتين أو أقنومين:

أقنوم الناسوت و أقنوم اللاهوت، أي إنسان إله، وقد دخل في مذهبه المناذرة.

[3]تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 67/1.

[4]سيرة ابن هشام. 26/1. و يحكى بعد ذلك سبب دخول أهل نجران في النصرانية عن طريق حديث وهب بن منبه اليهودي الذي أسلم، ويرجعها إلى عبدٍ صالح اسمه " فيميون" كانت له عجائب وغرائب من شفائه للمرضى وللعمي بإذن الله، وحدث يوما أن ذهب مع رجل إلى أرض من أراضي العرب فاعتدوا عليهما وخطفوهما، وابتاع فيميون رجلٌ من أشراف بني نجران وكانوا يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة طويلة، وكان أن أسكن الرجل عبدَه في دارٍ حيث كان يصلّي بها، فاسْتَسْرج له البيت نورا، فرأى ذلك سيّده فأعجبه ما يرى منه، فسأله عن دينه فأخبره، وقال لأهل نجران: أنتم في باطل، إن هذه النخلة لا تضرّ ولا تنفع، ولو دعت الله عليها لأهلكها، فأمره سيّده بأن يفعل ففعل، فجاءت ريح فأسقطتها فاتّبَعَه عند ذلك أهل نجران" – أنظر: القصة في: سيرة ابن هشام: 26/1-28.

له العِبَاد، ومنهم عديُّ بن زيد[5] العِبادي "[6]، ومن ذلك قوله:[7]

سَعَى الأعداءُ لا يَأْلُونَ شَرّا عَلَيَّ ورَبِّ مكَّةَ والصَّلِيبِ

فنراه قد جمع في قَسَمِه بين ربّ مكة الوثنية وبين ربّ الصليب .

ونراه يقول أيضا مخاطبا النعمان بن المنذر[1]:

أنّني والله، فاقْبَلْ حَلَفِي لَأَبِيلٌ كُلَّما صَلَّى جَأَرْ

فهو يحلف بالله، ويشبّه نفسَه بالراهب المتأبِّل الذي يتأبّل عن النساء ويترك غِشْيانهن.[2]

وكان ممن اعتنق النصرانية من العرب ورقةُ بن نوفل، وعتبة بن أبي لهب، وعثمان بن الحويرث وعبيد بن الأبرص الشاعر وعبيد الله بن جحش.[3]

---

[5]هو عديّ بن زيد بن حماد التميمي، شاعر فصيح من شعراء الجاهلية، وكان نصرانيا وكذلك كان أبوه وأمه وأهله، وليس ممن يُعَدُّ من الفحول، وهو قَرَوِيّ، وكان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان: عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سُهَيل في النجوم يُعارضُها ولا يجري معها مجراها: مثله عندهم مثل أميّة بن أبي الصّلت، وفي الإسلاميين : الكميت والطّرمّاح، توفي نحو سنة: 35ق.هـ /590م وله ترجمة في الأغاني.

[6]في تاريخ الأدب الجاهلي. علي الجندي. ص: 77.

[7]الأغاني. الأصفهاني. 103/2.

[1] المصدر السابق.105/2.

[2]ينظر: لسان العرب لابن منظور. مادة " أَبَلَ" وقد ورد فيه البيت كما يلي:

أَنَّنِي و الله ما سَمِعَ حَلِفِي بِأبِيلٍ كُلَّما صَلّى جَأَرْ

[3]ينظر ذكر ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو في: - سيرة ابن هشام: 204/1.

أما زيد بن عمرو بن نفيل فلم يتنصّـــر ولم يتهوّد بل فارق دينَ قومـه " فـاعتزل الأوثـان والميتـة والـدم والـذبـائح التي تـذبح على الأوثان".[4]

ويهمّنا أن نذكر في الأخير أنه قد ورد في بعض أشـعار العرب من الشـــعراء المشـــهورين كالنابغة وزهير والأعشـى وأمية بن أبي الصـلت وامرئ القيس وعدي بن زيد أسماءَ الله والإيمان به والحديث في البعث والجزاء وغير ذلك مما ورد وشكَّ فيه أكثر الرواة والمحقّقين[5].

---

[4]سيرة ابن هشام، 206/1، و ينظر خبر زيد بن عمرو في الأغاني، الأصفهاني، 117/3-124.

[5]من ذلك قول زهير في معلقته: (شرح المعلقات السبع، للزوزني، معلقة زهير،ص: 147)

فلا تكتمنَّ الله ما في نفوسِكم ليخْفَى و مهما يُكتَمِ اللهُ يَعلَمِ
يؤخَّر فيُوضَع في كتابٍ فيُدَّخر ليومِ الحِسابِ أو يُعجَّل فيَنْقَم

- و قول لبيد بن ربيعة: (شرح المعلقات السبع، للزوزني، معلقة لبيد، ص: 251).

فاقنع بما قَسَمَ المليكُ فإنّما قَسَمَ الخَلائقَ عَلاَّمُها

- و قول امرئ القيس (شرح المعلقات السبع، للزروتي، معلقة امرئ القيس، ص:55)

يُضِيء سَنَاهُ أو مَصَابيحُ رَاهِبٍ أَمَالَ السَّليطَ بالذُّبال المُفَتَّلِ

- و قول الأعشى (الأغاني، 133/9) و في (ديوان الأعشى، شرح: مهدي محمد، (ط2)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، ص:154)

اسْتَأثرَ الله بِالوفَاءِ و بالْ عَدلِ ووَلَّى المَلامَةَ الرَّجُلا

- و قول أمية بن أبي الصلت (الأغاني: 136/4)

الحَمدُ للهِ مَمْسانا ومَصْبَحَنا بالخَيرِ صَبَّحَنا رَبّي ومَسَّانا

و قوله في (لسان العرب، ابن منظور، مادة " سلط"، و انظر الأغاني0 128/4)

ز- الحيـــاة العقليّـــة:

لقد يكون من بين قدرة الله على العباد وفضله عليهم ومشيئته فيهم اختلافهم اختلافا واضحا في العقلية والنفسية تبعا لاختلاف البيئة والطبيعة الاجتماعية، فعقلية العربي غير عقلية الفرنسي، وعقلية هذا الأخير تختلف اختلافا واضحا عن عقلية الإنجليزي، بل إنّ الجنس الواحد لَيَختلف فيما بينه اختلافا متباينا فالعربيُّ ساكن المدينة يختلف عن العربي ساكنِ القرية، وساكن القرية يختلف عن ساكن البادية وهكذا دواليك، ولكنّ اختلاف الجنس الواحد في صفاتٍ ومميزات معينة، لا ينفي وحدة هذا الجنس وتميّزه بعقلية ونفسية واحدة مشتركة ، فمتى ما حكمنا على رجل يتميّز بالبرودة في الانفعال مثلاً قلنا إنه يمثل الهدوء واللاإنفعال الإنجليزي، فإذا حكمنا على رجل آخر يتميز بالانفعال الذي يصحبه طَيْش في بعض الأحيان قلنا إنه يمثّل العقلية والنفسية العربية وهكذا، ومع أن المقياس لا يخضع البتّة إلى قاعدةٍ معينة إلا أنه من دائرة العموم والشمول.

ومن خلال ما تقدم نستطيع الإلمام بجملة من صفات العربي وخصائصه العقلية والنفسية متمثّلةً في جملة من الآراء في العرب تتشكل من مذهب أهل الشعوبية[1]كطرف عدائي للعرب، وفي ردّ

إنّ الأَنَامَ رَعايَا اللهِ كُلَّهُمُ هو السِّلْطِيطُ فوقَ الأرضِ مُسْتَطِرُ

و في الأغاني وردت كلمة " مقتدر" بدل " مستطر" و كان يُسَمِّي اللهَ عزّ وجلّ بالسّلطيطوالتَّغْرور.

(1) الشعوبية : نسبة غير قياسية إلى الشعوب, وهم فريق من الناس لا يرون للعرب فضلا على غيرهم , بل يبالغون في ذلك , فيذهبون إلى تنقصهم والحطّ من قدرهم

الجاحظ عليهم كطرف محامٍ لهم، وكذا نظرة ابن خلدون في مقدمته ونظرة بعض المستشرقين.[2]

قال بعض الشعوبية في العرب" لم تزل الأمم كلُّها من الأعاجم في كلِّ شِقٍّ في الأرض لها ملوكٌ تحميها ومدائنُ تضمها، وأحكامٌ تدين بها، وفلسفة تنتهجها، وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات مثل صنعة الديباج ولعبة الشطرنج ... ومثل فلسفة الروم في ذات الخلق والقانون والاصطرلاب.ولم يكن للعرب مَلِكٌ يجمع سوادَها ويضم قواصيها ويقمع

حتى ألّفوا في ذلك الكتب , وسمّوا بذلك لانتصارهم للشعوب التي هي مغايرة للقبائل, فقد قال جمعٌ من المفسّرين في قوله تعالى :"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ" إن القبائل العربُ والشعوبَ العَجَمُ , ويقولون إنّ زياد بن أبيه حين استلحَقَه معاوية بأبيه وخَشِي ألاّ تقرّ له العرب بذلك صنع كتاب "المثالب" وعدّد نقائصَ العرب.

كما أن النضر بن شميل الحميري , وخالد بن سَلَمَة المخزومي وضعا كتابا في مثالب العرب ومناقبها بأمر هشام بن عبد الملك، وكان الهيثم بن عديّ دعيًّا في نسبه فصنع كتابا طعن فيه على أشراف العرب، وأما أبو عبيدة، وقد كان أبوه يهوديا, وكان يُعَيَّرُ بذلك فصنع كتابا في مثالب العرب امتاز بالسعة والاستقصاء , وجاء من بعدهم علاّن بن الحسن الشعوبي الورّاق الزنديق فألّف لطاهر بن الحسين كتابا في مثالب العرب، بدأه بمثالب بني هاشم ثم بطون قريش ثمّ سائر العرب، ولم يعْبَأ في ذلك بالخروج عن أدب الدّين، ولابن الكلبيّ أيضا كتابٌ في المثالب. ومن أهمّ من ردّ على الشعوبيّة الجاحظُ في البيان والتّبيين في الجزء الثالث المُسَمّى بالعصا، وفي بلوغ الأرَب ردٌّ لابن قتيبة على الشّعوبيّة.

[2] عرض الأستاذ أحمد أمين في فجر الإسلام فصلا في طبيعة العقلية العربية وتعرّض إلى هذا الموضوع

ظالمَها وينهي سفيهَها، ولا كان لها قطُّ نتيجةٌ في صناعةٍ ولا أثرٌ في فلسفة إلا ما كان من الشعر، وقد شاركتهم فيه العجم،
وذلك أنّ للروم أشعاراً عجيبة قائمةَ الأوزان والعروض..."[3].

ونسمع للجاحظ في ردّه عليهم قوله: " فأما الهند فلهم معانٍ مدوّنة وكتبٌ مخلدة لا تضاف إلى رجلٍ معروف، ولا إلى عالمٍ موصوف، وإنما هي كتبٌ متوارثة، وآداب على وجهِ الدّهر سائرة مذكورة ولليونانيين فلسفة وصناعة ومنطق، وكان صاحبُ المنطق نفسُه بَكِيَّ اللّسان غيرَ موصوفٍ بالبيان ... وفي الفرس خطباءُ، إلاّ أنّ كلّ كلامٍ للفرس وكلّ معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرةٍ وعن اجتهادِ رأي ... وكلّ شيءٍ للعرب فإنما هو بديهةٌ وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرٍ ولا استعانة...فما هو إلاّ أنْ يصرف وهمَه (أي العربي) إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني أرسالا[1]، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا... وكانوا أمّيين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلّفون ... وكلّ واحد في نفسه أنطَقُ ومكانه من البيان أرفع".[2]

أما بن خلدون فإن رأيه في العرب منثور في نقاط عديدة من مقدمته منها :

أنهم :"إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، لأنهم أمة وحشية، فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصب أثافي القدر، فينقلونه من المباني ويخربونها عليه... وليس عندهم في أخذ أموال الناس حدّ ينتهون

---

[3]فجر الإسلام . أحمد أمين . ص: 30.

[1]أرسالا : أفواجا. جمع رَسَل بالتحريك

[2]البيان والتبيين. الجاحظ .3/27-28.باختصار

إليه..."[3].

وذكر بأنهم لا يراعون كيف يختطّون المباني ولذلك يسرع إليها الخراب، ولا يختارون المواقع الحسنة من طيب الهواء والمياه والمزارع " وإنما يراعون مراعي إبلهم خاصة، لا يبالون بالماء طاب أو خَبُثَ ولا قَلَّ أو كَثُر ".[4]

ثم أعطى أدلة على اختطاط مدينة الكوفة والبصرة والقيروان، حيث راعوا مراعي إبلهم فبعدت مدنهم عن الوضع الطبيعي، فلمّا انحَلَّ أمرُهم وذهبت عصبيّتهم أسرع الخراب والانحلال عليها.

وذكر بأنهم أبعد الناس عن الصناعات وذلك لعراقتهم في البدو وبُعدِهم عن العمران الحضري وما يتطلب هذا الأمر من صنائعَ وغيرها، وهم أبعد الناس عن العلوم، وذهب إلى أنّ " حَمَلة الحديث الذي حفظوه من أهل الإسلام أكثرهم عَجَمٌ أو مستعجمون باللّغة والمربى، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلاّ الأعاجم".[5]، ويذهب إلى أنّ أكثر مَن خدم العربيةَ والإسلامَ هم الأعاجمُ.

وهو يلتقي مع الجاحظ في الشهادة للعرب بأنهم لا يزالون " موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام والفصاحة في النطق".[1]

أما المستشرقون، فيقول أوليري في كتابه" Arabia Before Mohammed": " إنّ العربي يُعَدُّ مثلا أو نموذجا ماديا[2]ينظر إلى الأشياء

---

[3]مقدمة ابن خلدون .(ط2) دار القلم , بيروت , لبنان. (ط2).1984.ص:149.

[4]المصدر نفسه. ص: 359.

[5]المصدر نفسه. ص: 544.

[1]تاريخ ابن خلدون. 15/2

[2]الصواب: " مادّياً "(بالنصب على أنه نعت لـ نموذجا).

نظرة مادية وضـيعة...وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف ولا يميل كثيرا إلى دين، ولا يكترث بشيء إلا بقدر ما ينتجه من فائدة عملية، يملؤه الشـعور بكرامته الشـخصـية حتى لَيثور على كل شـيءٍ من أشـكال السـلطة، وحتى ليتوقع منه سـيّدُ قبيلته وقائده في الحروب الحَسَـدَ والبُغْضَ والخيانة من أوّل يومٍ اختير للسيادة عليه"[3].

في حين يقول :" خدا بخش " (KhudaBukhsh) غامزا شـرف العرب:" لقد كانت الناحية الخلقية عند الجاهليين في أشدّ أوقات جزرها قبيل الإسلام، فلم يكن إخلاص الرجل لزوجته شديدا، وكان يدعوها إلى معاشرة غيره من الرجال "[4]

قد تكون هذه الآراء بعيدةً بعدا كبيرا عن نمط البحث العلمي، والشـيء الأكيد الذي نحرص عليه مثلما حرص عليه عددٌ كبير من الباحثين على اختلاف مشـاربهم ووجهات نظرهم في أنّ تقديس العرب أمرٌ مرفوض وأنّ النقص منهم ووسـمَهم بكلّ رذيلة أمرٌ مرفوض أيضـا، ولا تعدو أن تكون هذه الآراء على اختلافها وتناقضها آراءَ متطرفةً إلى هنا وهناك، وليس من طبيعة البحث العلمي أن نقول بالمثل المأثور:"خير الأمور أوسطها"، ولكننا نذهب إلى أنّ العرب ليست أمة مقدّسة، فلغتها خير لغة، وجنسـها خير جنس وطبيعتها خير طبيعة وفصـيلتها خير فصيلة، وكل من ينقض هذا القول غافل متآمر لا يفقه من أمرٍ شيئا، ولسـنا نقول أيضـا إنها أمة همجية، حاضـرها أشـنع من ماضـيها،

---

[3]فجر الإسلام .أحمد أمين. ص:33.

[4]الشـعر الجاهلي وخصـائصـه وفنونه.يحي الجبوري . ط(7). مؤسـسـة الرسـالة. بيروت. لبنان. 1994, ص:91

ومستقبلها أسوأ من حاضرها بل طبيعة الأمور تقتضي أنّ العرب أمةٌ لها فضائلها ورذائلها، مثلها مثل كلّ الأمم والشعوب [5].

ولا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال أن نقارنها - مثلما فعل الشعوبيون– بأمم أخرى كالفرس والروم، إذ أنّه ليس من العلم في شيء أن نضع مقارنة بين أمة في عهد طفولتها الأولى وبين أمم أخرى تطوّرت واستوت واستمدّت من بعد طفولتها كهولةً راشدة. ويذهب الدكتور عز الدين إسماعيل في فصلٍ له بعنوان : " صراع الشعوبية "- بعد أن فصّل في جهود الشعوبيين من أجل تشويه الثقافة العربية والإسلامية بالتحريف في القصص والأشعار والأمثال وتفسير القرآن والحديث – إلى القول:"فإذا قلنا بعد هذا إنّ الشعوبية كانت حربا على العرب، موجَّهةً إلى تراثهم التاريخي والأدبي، بل موجهة إلى الإسلام نفسه،لم نكن مبعدين أو مُغالين[1].

لقد يكون من لبِّ القول واختصار مجمله أن نعتبر العقلية العربية عقلية طبيعية، غير أن قولنا هذا لا يعني أن العرب قد كانوا منعزلين انعزالا تامّا، وأنهم لم يخرجوا عن حدود تواجدهم، والقرآن الكريم يحدثنا عن التجارة التي كانت تشتغل بها قريش في سورة سمّيت باسمهم، إذن لم يكن العرب منعزلين منطوين على أنفسهم، بل كان لهم صَولٌ وجَول في الأرض يمشون في مناكبها يلتقون تارة بأبناء جنسهم في

---

[5]نقد الأستاذ " أحمد أمين" الآراء نقدا علميا شافيا وخاصة رأيَ ابن خلدون و أوليري. ينظر: فجر الإسلام. (طبيعة العقلية العربية). ص:30-38.

[1]في الأدب العباسي، الرؤية والفن. عز الدين إسماعيل. دار النهضة العربية. بيروت. 1975.ص:123.

السلم والحرب، وفي الحج وفي الأسواق، ويلتقون تارة أخرى بأجناس من أمم أخرى، حتى أن الرسول(ص) عندما ضاق به الأمر وبأصحابه في مكة في أثناء الدعوة إلى الدين الجديد حثّهم على الهجرة إلى الحبشة .

إنّ حاجة الناس إلى بعضهم البعض أمرٌ فطري وطبيعي وحتمي، ومن ثمة كانت الحاجة الفائضة مطلوبةً من الأجناس الأخرى، وكانت التجارة بالقوافل خيرَ وسيلة لتوصيل البضائع والمنتجات المحلية ومن البديهي أن تلتقي الثقافات والعقول بين هذه الأمم، أضف إلى ذلك الإمارات العربية التابعة إلى الفرس والروم تَبَعِيَّة سياسية كالمناذرة والغساسنة، والتي من شأنها تطوير التبادل الاقتصادي والتجاري بين الأمم والأجناس. ويتساءل أحمد أمين قائلا:" أترى أنّ هذه التجارة تقتصر على التبادل والعروض والنقود ولا تتعداها إلى الأمور المعنوية والأدبية؟ لسنا نرى ذلك، بل نرى أن العرب استفادوا، فوق تجارتهم المادية، شيئا من مدنِيَّة الفرس والروم وأدبهم[2].

أما بلاشير فيذكر " أن تجار الحيرة أو اليمن لم يجلبوا معهم السلع الغريبة فحسب، بل طائفةً من الأفكار والعادات التي من شأنها توسيع مدارك سكان المجال العربي "[3]

وليس غريبا بعد هذا أن نجد في القرآن الكريم نفسه ألفاظا ليست عربية، وإنما هي خليطٌ من ألفاظٍ أجنبية منها اليوناني والحبشي والفارسي، ولقد " عدَّ العلماء في القرآن من غير لغات العرب أكثر من مِائة لفظة، ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والبربر

---

[2]فجر الإسلام , أحمد أمين , ص: 15.

[3]تاريخ الأدب العربي. بلاشير.64/1.

والســـريان والقبط، وهي كلماتٌ أخرجتها العرب على أوزان لغتها وأجرتها في فصيحها فصارت بذلك عربية"[4]

مظاهر الحياة العقلية :

لقد كان للعرب في حياتهم العقلية معارفُ ورثوها عن أسلافهم، كما اقتبســوها عن الأمم المجاورة وهذه المعارف والعلوم تكاد تكون بدائية ســاذجة لم تنتظم في بحوثٍ علمية ودراســات معمّقة، بل كانت تعتمد على التجربة الطبيعية فيما تحتاجه المجتمعات البدائية القبلية .

من هذه العلوم والمعارف معرفتهم بعلوم النجوم ومواقعها، حيث أفادوا من الصــابئة في معرفتها وذلك لحاجتهم إلى تعرّف أوقات نزول الغيث والاهتداء بالنجوم كالعلامات في أثناء سيرهم في الصحراء، يقول صــاعد الأندلســي:" كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها، وعلمٌ بأَنْواءِ الكواكب وأمطارها على حســب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة، لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في أسباب المعيشة".[1]

كما تعلّموا قليلا من علم الطب لمعالجة أنفســهم حين تلمّ بهم العلل والأســقام، وكان دواؤهم العقارات النباتية والكي بالنار، وفي تلك المعرفة القليلة بالطب يقول ابن خلدون :" وللبادية من أهل العمران طِبٌّ يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصــرة على بعض الأشــخاص متوارثة عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض، إلاّ أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج، وكان عند العرب من هذا

---

[4]إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. الرافعي. دار الكتاب العربي. بيروت.ط3.2001 .ص:72.

[1]الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه. يحي الجبوري. ص:95.

الطب كثير، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره "[2]، ومنهم أيضا ابن حِذْيَم المشهور حتى قيل فيه المثل :" أطَبُّ من ابن حِذيم"[3].

ولاهتمامهم بحيواناتهم ومعرفة أوصافها وأعضائها نشأت البيطرة بينهم لمداواة بهائمهم، واشتهر منهم العاص بن وائل[4]، وسلمان الباهلي[5]،كما اشتهروا من بين الأمم بعلم الأنساب والقرابات التي بين بعض القبائل وبعض، بحيث يلحقون فروعها بأصولها، وكان الغرض من هذا إذكاءَ عصبيّتهم" لكثرة حروبهم وتفرّق قبائلهم وأنَفَتِهم من أن يكون للغريب عنهم سلطان عليهم، وحبّهم الافتخارَ لأسلافهم ".[6]

كما هداهم ذكاؤهم وخصب قريحتهم وصفاء ذهنهم إلى الفراسة والقيافة والعيافة والزجر والطَّرْقِ بالحصى، فالفراسة هي الاستدلال بمظهر الإنسان وشكله وهيئته ولونه، وقوله على أخلاقه وفضائله ورذائله، أما القافية فهي ضربٌ من الفراسة وهي الاهتداء بآثار الأقدام إلى أصحابها كانوا يفرقون بها بين المرأة والرجل وبين الأعمى والبصير، وأشهر مَن عُرِف بها بنو مدلج وبنولهب، أما العيافة والزجر والطّرق بالحَصى في ضربٍ من التنبّؤ مثل الكهانة والعرافة ويكون الاستدلال

---

[2]مقدمة ابن خلدون. ص: 493.

[3]مجمع الأمثال. الميداني. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. دار المعرفة. بيروت. (د،ت). 441/1.

[4]الأدب العربي وتاريخه. محمد هاشم عطية. ص:47.

[5]ينظر: الشعر الجاهلي وفنونه. يحيى الجبوري. ص:98.

[6]جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب. أحمد الهاشمي. مؤسسة المعارف. بيروت. (د،ت). 21/2.

بأصـــوات الحيوانات وحركتها تيّمنا بها أو تطيّرا منها، وأشـــهر من عُرِف بذلك بنو أسد وبنو لهب، حتى قال قائلهم[1]

خَبِيرٌ بَنُولهَبٍ فَلا تَكُ مُلْغِيًا مَقَالَةَ لَهْبِيٍّ إذا الطّيْرُ مَرَتِ

في حين كان عددٌ منهم ينكر هذا التنبؤ ويكذّبه. وحيث نرى لبيدا يقول في عينيته الشهيرة:[2]

لَعَمْرُكَ مَا تَدرِي الضَّوارِبُ بالحَصَى ولا زَاجِراتُ الطَّيرِ ما اللهُ صَانِعُ

ونسمع لضابن بن الحارث يقول:[3]

ومَا عِلاجَاتُ الطَّيرِ تُدْنِي من الفتى نجاحًا ولا عَن رَيْثِهِنَّ يَخِيبُ

ورُبَّ أُمورٍ لا تَضِيرُكَ ضَيرَةً ولِلقَلْبِ من مَخْشاتِهِنَّ وَجِيبُ

ولا خَيرَ فِيمَنْ لا يُوطِّنُ نفسَهُ على نَائِبَاتِ الدّهرِ حِينَ تَنُوبُ

كما كان للعرب معرفة بأحاديث وأيام وتاريخ أسلافهم، وأحداث الأمم القديمة، كما عرفوا أخبار الروم والفرس وملوكهم وحروبهم، وذلك بسبب اختلاطهم بهم فيما بيّناه سابقا وعلى نحو ما نجد من أخبار النّضر بن الحارث الذي كان ممن " يؤذي الرسول (ص) وينصب له العداوة، وكان قد قدِم الحيرة وتعلّم بها ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار"[4].

وكان يقول لقريش- بعد أن يرى الرسول (ص) قد أخذ مجلسه منهم فيذكر الله ويحذر قومه من عذابٍ كالذي حدث للأمم السابقة –:

---

[1]قطر الندى وبَلُّ الصّدى. ابن هشام.تحقيق. محمد محي الدين عبد الحميد. ط11. القاهرة. 1383هـ. ص:272

[2]ديوان لبيد بن ربيعة. تحقيق: إحسان عباس.ط الكويت.1962.ص:172.

[3]جواهر الأدب. أحمد الهاشمي. 23/2.

[4]سيرة ابن هشام. 265/1

" أنا والله يا معشـــرَ قريش، أحســـنُ حديثا منه، فَهَلُمَّ إليَّ، فأنا أحدِّثكم أحسـن من حديثه، ثم يحدّثهم عن ملوك فارس ورسـتم واسـفنديار، ثم يقول: بماذا محمدٌ أحسن حديثا منّي ؟"[5].

وكانت لهم خطابة وحكمة، ومن أشهرخطبائهم وحكمائهم أكثم بن صيفي وربيعة بن حُذار وهرِم بن قطبة وعامر بن الظّرب ولبيد بن ربيعة[6]،كما كانوا يتمثّلون بأمثال وجيزة معبرة حفظتها كتبٌ معروفة كمجمع الأمثال للميداني، والمستقصي في الأمثال للزمخشري وجمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري.

اللغة العربية :

تعتبر أيّ لغـةٍ كانـت مظهرا هـامـا من مظاهر الحيـاة العقليـة للمتكلّمين بها، وهي من مظاهر الحضـارة وأجلّها شـأنا وأرفعها قدرا، لأنها تعبّر عمّا يجيش في النفوس، وتُصَوِّر المجتمع أحسن تصوير.

واللغة العربية إحدى هذه اللغات الإنســانية، والتي تنتمي إلى اللغات الســامية[1].ولقد عارض الدكتور لويس عَوَض في كتابه " مقدمة في فقه اللغة العربية" هذه النظرة، وذهب إلى القول:" وقد انتهيتُ من أبحاثي في اللغة العربية إلى أنّ اللغة العربية هي أحدُ فروعِ الشـجرة التي خرجت منها اللغات الهندية الأوربيّة"[2].

---

[5]المصدر نفسه.265/1.

[6]ينظر: البيان والتبيين. الجاحظ. 365/1.

[1]السامية : اسم اصطلاحي نشأ في القرن الثامن عشر (18م) استعمله للمرة الأولى المستشرق العلاّمة "شلوزر" وذلك بتأثير الفصل العاشر من سِفْرِ التكوين الذي يشير إلى أن العبرانيين والآراميين والعرب من أبناء سام بن نوح.

[2]مقدمة في فقه اللغة العربية. لويس عوض. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ولا يكتفي بهذا بل نراه يعمِّم هذا الحكم على بقيّة اللغات السامية كالعبرية والآرمية أخوات العربية، فيقول:" وإذا اعتبرنا اللغة العربية نموذجا لبقية اللغات السامية خرجنا بأنّ ما يسمونه مجموعة اللغات السامية هو أحد الفروع الرئيسية التي خرجت من هذه الشجرة، ثم تفرعت إلى فروع ثانوية كانت العربيةُ أحدَها .[3]

وقد ردّ على الدكتور لويس عوض عددٌ من الباحثين في مقدمتهم الدكتور عبد الغفار هلال في كتابه " أصل العرب ولغتهم بين الحقائق والأباطيل" وقد قال في مقدمة كتابه:" فقد ألّف الدكتور لويس عوض كتابا بعنوان" مقدمة في فقه اللغة العربية " ينطوي على مغالطات دينية ولغوية خطيرة، وينفي أن ننبّه إلى شرّها، إنه يزعم أنّ العربية فرع من اللغات الهندية الأوربية ومن الحامية كذلك، ويزعم أنّ أهمّ تأثيرٍ حامي فيها يكمن في تأثّرها بالمصرية القديمة، واتّخذ الفونيطيقا - كما يدعي- طريقا لعقد الصّلات بين العربيّة واللغات الأخرى"[4]، وذكر أنه أقحم النصوص القرآنية الواضحة، وقلب معانيها لتخدم موضوعه وأنه اعتبر العرب علماءهم عنصريين[5].

لقد تحدّث العربُ القدامى والمحدثون والمستشرقون عن اللغة

القاهرة. 1980.ص:26

[3]المرجع نفسه.ص:40.

[4]أصل العرب ولغتهم بين الحقائق والأباطيل. عبد الغفار هلال. دار الفكر العربي. القاهرة. 1996.ص:03.

[5]المرجع نفسه.ص:03.

وأصلها وعقدوا مقارنات مع أخواتها الساميات، وتوصّلت جماعة من المستشرقين العثورَ على بعض النّقوش لعلّ أن نَقْشَ النمارة وهو أقدمها وهو المؤرخ في سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة للميلاد (328 م)[1]،" وقد كُتِبَ شاهدًا لمَلَكٍ من الملوك اللّخميين يُسَمَّى امرأ القيس بن عمرو"[2] ويذهب عددٌ من العلماء العرب أنّ الكتابةَ العربية إنما اتخذت من الخطّ النبطي الذي كان شائعا في شمالي جزيرة العرب قبل الإسلام، وأنّ نقشَ النمارة الذي كُشِفَ في مَدفَن امرئ القيس بن عمرو مَلِكِ العَربِ إنما " تشفّ أحرفه عن الأصل النبطي الذي أُخِذ منه كما تدلّ الكتابة فيه على طور الانتقال من الحروف النبطية إلى الحروف العربية الشمالية التي لا تزال مستعملة حتى الآن"[3].ويذهب بلاشير إلى أن الكتابة العربية تندمج في مجموعة الطرائق السامية حسب الوضع الذي تشير إليه[4].

أنظر أيضا: تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 71/1 وما بعدها.

[2]المرجع نفسه. ص:35.

[3]الجامع في تاريخ الأدب العربي. حنا الفاخوري. ص: 53.

[4]تاريخ الأدب العربي. بلاشير.78/1.

والجدير بالذكر أنه تمّ اكتشاف نعشين بعد النمارة فأحدها في خرائب زبد[5] مؤرخ سنة 512 م وبه حروف عربية تبين كامل خصائص الكتابة العربية، والآخر في حرّان اللّجا[6] مؤرخ سنة 568 م[7].

وعلى هذا فإنّ الأســتاذ جواد علي يذهب إلى القول بأنّ العرب قد كانوا يكتبون في جاهليتهم ثلاثة قرون على الأقل تقدير بهذا الخط الذي عرضــه بعد ذلك المســلمون " وقد أصــبحت معرفة الجاهلية بالكتابة معرفة قديمة أمرا يقينيا، يقرّره البحث العلمي القائم على الدليل المادي المحسوس وكل حديث غير هذا لا يستدل إلاّ إلى الحدس والافتراض".[8]

وعلى هذا الأمر فإن الجاحظ كان متوهما حين قال عن العرب – أثناء فخره بهم وإعلاء شــأنهم أمام الشــعوبية – على نحو ما ذكرناه ســابقا : " وكانوا أميين لا يكتبون " [1] ونحا نحو الجاحظِ عددٌ كبير من القدماء في أنّ العرب أمّة أميّة لا تعرف القراءة ولا الكتابة وعلى العكس من هذا نرى صــاحب الأغاني أثناء ترجمته لعدي بن زيد، يقول : " فلمّا تحرّك عـدي بن زيـد وأيفع طرحَـه أبوه الكُتّـابَ حتى إذا حـذق أرســله المرزبان مع ابنه... إلى كتاب الفارســية، فكان يختلف مع أبيه ويتعلم الكتابة والكلام بالفارســية حتى خرج من أفهم الناس بها وأفصــحهم

---

[5] تقع زبد بين قنسرين والفرات شرقي حلب.

[6] تقع حرّان اللّجا في المنطقة الشمالية من جبال الدروز جنوبي دمشق.

[7] ينظر:العصر الجاهلي. شوقي ضيف. ص:37. والجامع في تاريخ الأدب العربي. حنا الفاخوري. ص: 54.

[8] الجامع في تاريخ الأدب العربي. حنا الفاخوري. ص :55.

[1] البيان والتبيين. الجاحظ. 28/3 ، وانظر الصفحة رقم (28) من هذا الفصل.

بالعربية وقال الشعر".[2]

ونراه في الموضع نفسِه يقول عنه :" فروخ ماهان " للملك كسرى :" إنّ عندي غلاما من العرب مات أبوه وخلّفه في حجري فربيته فهو أفصح الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية "[3]، فأصبح عديّ بعد ذلك كاتبا لكسرى وموفَدا له إلى ملك الروم وابن الأثير يقول عن النضر بن الحارث: " إنه كان ينظر في كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى "[4] وعن سويد بن الصامت[5] يقول صاحب الأغاني :" وكان يقال له الكامل في الجاهلية وكان الرجل عند العرب إذا كان شاعرا شجاعا كاتبا سابحا راميا سمّوه بالكامل[6] وفي خبر لقيط بن معمر الذي كتب قصيدةً وأرسلها إلى قومه "إياد " ينذرهم من بطش كسرى ومن ذلك قوله :

هَذَا كِتَابِي إِلَيكُم والنَّذِيرُ لَكُم لِمَن رَأى الرَّأيَ بالإبْرامِ قَدْ نَصَعَا

وجعل عنوان الكتاب:

سَلامٌ في الصَّحيفَةِ مِن لَقِيطٍ إلى مَن بالجَزيرَةِ مِن إيادِ

---

[2]الأغاني. الأصفهاني. 93/2.

[3]المصدر نفسه.94/2.

[4] الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية. إبراهيم عبد الرحمن.لونجمان. مصر. (ط.1).2000. ص: 09 .

[5]سويد بن الصامت بن الحارثة الخزرجي الأنصاري, شاعر من أهل المدينة كان يسمّيه قومه الكامل، اشتهر في الجاهلية وأدرك الإسلام وهو شيخ كبير ولقيه النبي (ص) بسوق " ذي المجاز" فدعاه إلى الإسلام وقرأ عليه شيئا من القرآن فاستحسنه وانصرف عائدا إلى المدينة, فلم يلبث أن قتلته الخزرج وذلك قبل الهجرة .

[6] الأغاني. الأصفهاني. 27/3.

بأنَّ اللّيثَ كِسْرى قَدْ أتَاكُم فَلا يَحبسُكُم سُوقُ النقَادِ

ولا نصل أواخر العصر الجاهلي وأوائل عصر البعثة حتى نجد من العرب من كان يكتب ويقرأ ولعلّ كتبةَ القرآن الكريم قد تعلّموا ذلك من قبل من أمثال زيد بن ثابت وعلي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود. وكان هؤلاء " يكتبون ما ينزل من القرآن ابتداء من أنفسهم أو بأوامر من النبي (ص) فيحفظونه على ما اتفق لهم يومئذ من العُسُب والكرانيف واللّخاف[1]والرقاع وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع من الشاة والإبل وكل ما أصابوا من مثلها مما يصلح لغرضهم[2].

كما ذكرالشعراء القدامى الكتابة في أشعارهم من مثل ما ذكرنا عن لقيط بن يعمر الأيادي" هذا كتابي إليكم والنذير إليكم" و"وسلام في الصحيفة من لقيط" وقول زهير "يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر

---

[1]العُسُب :ج عسيب, وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الحموص عنه ويكتبون في الطرف العريض.والكرانيف.جكُرْنافَة وهي أصول السَّعَفِ الغِلاظ واللِّخاف.جمع لخفة، وهي صفائح الحجارة .

[2] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.الرافعي. ص:34.

[3] المرقش الأكبر (توفي نحو سنة 75ق هـ/ نحو550 م) وهو أحد من قال شعرا فلُقِّب به، واسمه عوف بن سعد بن مالك، وهو أحد المتيَّمِين، كان يهوى ابنة عمه أسماء بنت عوف بن مالك، وكان فارسا شجاعا ذا بأس وقوة .

[4]الأغاني. الأصفهاني.136/6

"وقول المرقش الأكبر[3].ذاكرا القلم كأداة للكتابة:[4]

الدّارُ وَحشٌ والرُّسومُ كَمَا رَقَّشَ في ظَهرِ الأدِيمِ قَلَمْ

وقيل بأنه كان يكتب وقد روى صاحب الأغاني قصة طويلة عن مرقش حيث إنه ذهب في طلب أسماء بنت عمه مع وليدة له وزوجها، وفي الطريق أصابه سقم ثم إنه سمع زوج الوليدة يقول لها " اتركيه فقد هلك سقما وهلكنا معه ضرا وجوعا، فجعلت الوليدة تبكي من ذلك فقال لها : أطيعيني وإلا فإني تاركك وذاهب، قال وكان مرقش يكتب، وكان أبوه دفعة وأخاه حرملة – وكان أحبّ ولده إليه- إلى نصراني من أهل الحيرة فعلّمها الخط، فلما سمع مرقش قول الغُفَلي (الزوج) للوليدة كتب مُرَقِّش على مؤخرة الرّحل هذه الأبيات:

يَا صَاحِبِيَّ تَلَبَّثا لا تَعْجَلا إنّ الرّواحَ رَهِينٌ ألاَّ تَفعَلا

فلَعَلَّ لُبْثَكُما يُفَرِّط سَيّئا أو يَسبَقُ الإسْراعُ سَيْبًا مُقْبِلا

يارَاكِبًا إمّا عَرضْتَ فَبَلّغَنْ أنسَ بن سَعدٍ إنْ لَقِيتَ وحَرمَلا

لله دَرُّكما ودَرُّ أبِيكُما إنْ أفْلَتَ العَبدَانِ حتَّى يُقْتَلا

مَنْ مُبلِغِ الأَقْوامِ أنّ مُرَقِّشًا أضْحَى عَلى الصِّحابِ عِبئًا مُثْقَلا

وكأَنّما تَرِدُ السِّباع بِشِلوِه إذا غاب جمعٌ بني ضُبَيعَةَ منهَلا

قال فانطلق الغُفَلي وامرأته حتى رجعا إلى أهلها، فقالا: مات المرقش، ونظر حرملة إلى الرجل وجعل يقبله فقرأ الأبيات فدعاهما وخوفهما وأمرهما بأن يصدقاه ففعلا فقتلهما"[1].

---

[1] المصدر السابق. 139/6 وما بعدها .

وكذا قول ربيعة بن مقروم [2]الضبي:[3]

دَرَسَتْ مَعَالِمُها فَبَاقِي رسْمِها خَلِقٌ كَعُنوانِ الكِتابِ المحوِلِ

ومن هذه الأخبار ومن غيرها مما لم نذكر لكثرتها نستطيع القول إنّ العرب قد دعتهم ظروف شتّى إلى تعلّم الكتابة، منها ما هو سياسي ومنها ما هو اقتصاد كالتجارة وضروبها ومنها تعلم لغات الأمم كالفرس والروم كما دعتهم هذه الظروف إلى كتابة مواثيقهم وعهودهم ومدنياتهم بما تيسر لهم من أدوات الكتابة، وأصحّ دليل على أن العرب كانوا يقرأون ويكتبون هو ما نزل في القرآن الكريم على الرسول (ص) وفيه ذكرٌ للكتابة والقراءة، ومنه ما نزل في شأن ابن أبي أميّة الكافر قال ابن هشام : " وأنزل الله عليه فيما قال عبد الله بن أبي أميّة :﴿**وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَالأَرْضِ يَنبُوعاً ،أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً ، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً**﴾.[4]

---

[2]هو ربيعة بن مقروم (توفي بعد سنة 16هـ/بعد 637 م) شاعر إسلامي مخضرَم وله قصيدة من فاخر الشعر وجيّده وحسنه، وهي التي مطلعها :

لِمَنِ الدِّيارُ كَأَنَّها لم تَحْلَلَ بِجَنُوبِ أَسْنَمَةٍ فَقُفِّ العُنصُلِ

(القف: ما ارتفع من الأرض وغَلُظ ولم يبلغ أن يكون جبلا - العنصل : اسم موضع في ديار العرب)

[3]المصدر نفسه .100/22 (خَلق: بالٍ قديم – المُحول : الذي مضت عليه أحوُل أي سِنُون)

[4]سيرة ابن هشام.272/1.

ورُبَّ قائِلٍ إنّ هذا الخبر إنما هو في عهد الدين الجديد فنقول: صحيحٌ ذلك ولكنه دليل على أنهم كانوا يعرفون القراءة والكتابة منذ زمن بعيد قبل الإسلام، خاصة وأن الآياتِ نزلت ولمّا تقمِ الدّولة الإسلامية بعد.

تطور اللغة العربية وأسباب تكوينها:

أجمع العلماء والدارسون للّغة العربية أنه ليس من السهل بمكان تحديد الزمن الطبيعي الذي استوت فيه اللغة العربية الفصحى في شكلها النهائي أيام الجاهلية متمثلة في الشعر الجاهلي والحكم الجاهلية والأمثال والوصايا والتي ترجع إلى الفترة التي تمّتد من القرن الثالث بعد الميلاد إلى الخامس منه[5] تبعا للنقوش التي عثر عليها .

وتظهر الفصحى في الجاهلية تامة الشكل كاملة النضج من حيث إعرابها وتصريفها واشتقاقاتها وكذا تنوع وكثرة الجموع والمصادر، والتعريف والتنكير، والتذكير والتأنيث وأدوات العطف والاستثناء وكذا احتفاظها ببعض الحروف التي: " لم تحتفظ بها لغة سامية احتفاظا كاملا وهي التاء والخاء والذال والظاء والضاد والغين.[1]

---

[5]ينظر: الجامع في تاريخ الأدب العربي.حنا الفاخوري.ص:49.

[1]العصر الجاهلي. شوقي ضيف.ص: 117.

فالثّاء في كلمة (ثوم) نجدها في العربية الجنوبية والحبشية " سومت –somat " وفي الآرامية :" توما –tuma " وفي العبرية شوم –sum وفي الأكَدِيةّ "شومو-somu " ونجد من اللهجات الدراجة في مصر والشام والجزائر "سكيكدة " مَن يُبدِل الثاء تاءً.

أما الضّاد: فهو على حدّ قول الأستاذ: برجستراسر:" حرفٌ غريب جدّا غير موجودٍ حسب ما يعرف في لغة من اللغات إلاّ العربية، ولذلك كانوا يُكنّون عن العرب

والظاهر أيضا أنّ القبائل العربية حافظت على لغتها الفصحى الموحّدة في الشعر حيث تقيّد جلُّ الشعراء بهذه الفصحى في قريضهم، كما أن كل قبيلة كانت تحتفظ بلهجتها الخاصة، هذا لأن أيّ لغة تمتد على مقياس واسع تتجزأ إلى لهجات يصعب تمييزها، وهي بعد ذلك تتباين فيما بينها تباينا يختلف حجما بحسب البيئة والجنس، كالذي نلاحظه في يومنا هذا، ولكن هذا الاختلاف والتباين بين لهجات اللغة الواحدة إنما يلتقي ويشترك في المجموعة من الظواهر اللغوية التي تسهّل الاتصال فيما بين البيئات المتعددة للجنس الواحد. كما أنّ للبيئة الاجتماعية دورا في اختلاف اللهجات أيضا، فالطبقات الأرستقراطية العليا تتخذ لنفسها لهجةً غير اللهجة التي تتخذها الطبقة الوسطى أو المقدمة، كما تنشأ اللهجات من الطبقات العمالية، فلهجة التجار غير لهجة أهل الصناعة، ولهجة أهل الزراعة تختلف عن اللهجتين السابقتين وهكذا...

كما يكون احتكاك لغة بلغة أخرى نتيجة غزو أو هجرة أو تجاور عاملا من العوامل في خلق لهجة جديدة فالدعوة الإسلامية مثلا، وعن طريق الفتح الإسلامي تمكنت من إدخال العربية إلى مجموع البلدان المفتوحة، ولا أدل على ذلك الموالي في الدولة الإسلامية حيث

بالناطقين بالضاد، ويُسَمّون لغتهم لغةَ الضاد ".وقد بَعُدَ هذا النطق (أي الضاد) على ألسنة المثقفين بالعربية وعلى الألسنة الدارجة، حتى أنّ بعض اللهجات في الجزائر مثلا يُنْطَقُ فيها شبيهاب(DA) في الفرنسيّة فالضمير مثلاً ينطق "الدَّمِير " .

ينظر إلى أسس علم اللغة العربية.محمود حجازي. وأصول اللغة العربية. عبد الغفار هلال. والعربية:خصائصها وسماتها.عبد الغفار هلال. وغيرها من الكتب اللغويّة التي تدرس الأصوات.

فسـدت ألسـنتهم، وكانوا سـببا في شـيوع اللّحن من جهة، وفي إدخال كلمات وألفاظ جديدة أو تصـريف كلماتهم التي بقيت على حالها على الميزان الصرفي العربي.

وقد يكون الفرد الواحد مسـؤولا عن خلق اللهجات وإنشـائها، فـاختلاف الأفراد في النطق يؤدي مع مرور الزمن إلى تطوير اللهجـة أو نشـأة أخرى، حتى إن خطأ الأطفال مثلا إذا لم يوجد مَن يقوّمه أصـبح بعد وقتٍ لهجةً خاصـة بالطفل، وبعامل الاحتكاك يكون قانون الأخذ والعطاء من وإلى شخصٍ آخر. ونحن وبقليل من التأمل نستطيع إسقاط هذا الذي ذكرناه على الواقع اللغوي العربي قبل الإسلام فالبيئة العربية رقعة واسـعة وممتدة، فيها المرتفع والمنخفض، وفيها السـهول التي تعد للزراعة في الحضـر، كما فيها الصـحاري الرملية والتي يعيش فيها البدو معتمدين على الرعي .

كما حدثت هجرات عديدة من شـمال الجزيرة إلى جنوبها ومن جنوبها إلى شمالها، وهذه الهجرات أدّت إلى الاحتكاك اللغوي الذي يكون منه قانون الأخذ والعطاء، قال جرجي زيدان :" أكثر سكان أواسط جزيرة العرب من قبـائل مضـر وكانـت أعظمهـا يومئـذ تميم في شـرقي نجـد وشـمالها، وغطفان وسـليم وغيرها في نجد، وأرقاها قريش في مكة، وكان من القبائل القحطانية هناك طيء في نجد ومذحج في أطراف الحجاز، وأكثر سـكانها في الشـمال من ربيعة، وفيهم بكر وتغلب في بادية العراق والجزيرة، فلغات هذه القبائل كانت تختلف بعضـها عن بعض باختلاف أحوالها ومسـاكنها، وكان الاختلاف على معظمه بين لغات اليمن ولغات

الحجاز ونجد أي بين جنوب الجزيرة وشـــمالها".[1] وإذا كان هذا والحال هذه فأيّ لهجة كانت تمثل اللغة العربية الفصـــحى ؟ لقد تباينت آراء العلماء من قدامى ومحدثين في هذه القضـية، ووصـل أكثرهم إلى القول بأن هذه اللغة إنما هي لغة قريش.

لقد ذهب أكثر القدامى والمحدثين إلى القول بأن اللغة الأدبية متمثلـة في الشـــعر والنثر هي لغـة قريش وأعطوا حججهم النقليـة والعقلية، فقد قال ابن فارس في الصاحبي :" أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشـعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم أنّ قريشـا أفصـح العرب ألســنةً وأصــفاهم لغة، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب، واختار منهم محمدا (ص) فجعل قريشـــا قُطّانَ حرمه وولاّة بيته فكـانـت وفود العرب من حُجَّـاجهـا وغيرهم يَفِـدُون إلى مكـة للحج، ويتحاكمون إلى قريش، وكانت قريش مع فصـــاحتها وحســـن لغاتها ورقّة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طُبِعوا عليها فصاروا بذلك أفصحَ العرب[2]، وقال أبو نصرٍ الفارابيُّ في أول كتابه " الألفاظ والحروف": " كانت قريش أجودَ العرب انتقاءً للأفصـح من الألفاظ وأســهلها على اللســـان عند النطق، وأحســـنها مسموعا وأبينها إبانة عمّا في النفس"[3].

---

[1] تاريخ آداب اللغة العربية.جرجي زيدان. طبعة: دار الجيل. بيروت.1982. 24/1.

[2] المزهر في علوم اللغة وأنواعها.السيوطي.دار الكتب العلمية. بيروت.ط1.166/1.

[3] المصدر نفسه.167/1.

كما نقل السيوطي عن أمالي ثعلب قوله: " ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة[1] تميم وتلتلة بهراء وكسكسة[2]ربيعة وكشكشة [3] هوزان وتضجع[4] قريش وعجرفية[5] ضبّة ،وفسّر تلتلة[6] بهراء بكسر أوائل الأفعال المضارعة".[7]

كما نقل قول الفرّاء :" كانت العرب تحضر الموسم في كلّ عام وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به فصاروا أفصح العرب، وخَلَت لغتهم من مستبشع اللغات ومُستقبَح الألفاظ "[8]

ومن هذه النصوص ومن غيرها – إذ هي كثيرة – نستطيع حصر الأسباب التي بنى القدماء عليها حكمَهم، فقريش منها بعث النبي

---

[1]عنعنة تميم: وهي إبدال العين من الهمزة، فيقولون (عَنْ) مكان (أنْ). ينظر القاموس. مادة "عَنَنَ".

[2]كسكسة ربيعة: وهي أن يجعل بعد الكاف المذكر أو مكانها سينا مثل : رَأيْتُكَسْ مكان رأيتُكَ .

[3]كشكشة هوزان: وهي إبدال الشين من كاف الخطاب للمؤنث نحو :رأيْتُشِ مكان رَأيتُكِ.

[4]التّضجّع: الإضجاع في الحركات كالإمالة والخفض, ينظر القاموس. للفيروزأبادي. مادة " ضجع"

[5]عجرفيّة ضبّة: وهي التّقعّر في الكلام.

[6]لغةً هي التّحريك والإقلاع والزّعزعة، وتَلْتَلَة بهراء: كسرُهم تاء تَفْعَلون، فبَدَلَ قولهم تَذهَبون يقولون تِذْهَبون. ينظر القاموس. مادة "تَلَلَ".

[7]المزهر. للسيوطي.167/1.

[8]المصدر نفسه.1/ 175.

(ص) وفيها ولد، وكانوا حماة بيته وقطانه وإليهم كانت تحجُّ العرب كل عام، حيث كانت مكة حارسةَ الوثنية وقبلتهم الأولى، ثم هم بعد ذلك مطبوعين على الفصاحة يتخيرون أحسن اللفظ وأسهله عند النطق، وتخلوا ألسنتهم من تلك العيوب في سائر اللغات الأخرى من مثل الكشكشة والوهم[9] والوتم[10] وغيرها مما فصلته كتب اللغة ومعجماتها، وإن هم سمعوا صوتا مناقضا لرأيهم ردوا عليه واستدلوا بقول الرسول (ص): " أنا أفصح العرب بَيْدَ أنّي من قريش وأني نشأتُ في بني سعد بن بكر "[11] بل راحوا يتعسّفون تأويلهم لكلمة " بيد" فقالوا إنها تعني " من أجل" وهذا يناقض قول عمر بن الخطاب مخاطبا الرسول (ص): " يا رسول الله، مالَكَ أفصحَنا ولم تخرج من بين أظهرنا".[12]، ويقول عبده الراجحي معلِّقا على الحديث :" والحديث في رأينا لا يحتاج إلى شيء من هذا التأويل وإنما أحوجهم إليه تمجيدهم لهجة قريش "[13] وهو يستدل من خلال قول عمر بن الخطاب السابق إلى أنّ " بيد أنّ " تعني " غير أنّ".

ويظهر أن القدامى اختلفوا في ذلك منهم ابن مالك وغيره حيث قالوا إنها هنا بمعنى " غير".[1] ويذكر القدامى أنّ القرآنَ نزل " على سبع

---

[9]الوهم: في لغة كلب يقولون: منهِم وعنهِم وبينهِم بدَلَ منهُم وعنهُم وبينهُم.

[10]الوتم : في لغة اليمن تجعل السّين تاءً: كالنّاتِ في النّاسِ.

[11]المزهر.السيوطي .165/1. وفي الكتاب نفسه قوله (ص) : " أنا أفصحُ مَن نطَقَ بالضّاد بَيْدَ أني من قريش" .165/1.

[12]المصدر نفسه.165/1.

[13] اللهجات العربية. عبده الراجحي. ص:43.

[1]مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. ابن هشام. تحقيق:مازن المبارك ومحمد علي حمد

لغات منها خمسٌ بلغة العجز من هوزان، وهم الذين يقال لهم عُليا هَوزان، وهم خمس قبائل أو أربع منها :سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف".[2]

ويذهب أبو عبيدة إلى القول بأنّ أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر، ويستدلّ بقول الرّسول (ص)"...وإني نشأت في بني سعد بن بكر ".[3] ولكنّ الغريب في كلّ هذا أن تُذكَر هذه القبائل دون قريش مما يستدعي أن يكون تقديم لهجة قريش لسبب واحد فقط وهو أنّ الرسول (ص) قرشيٌّ .

ومثلما ذهب القدامى في تقديم لهجة قريش تابع المحدثون تلك الطريق، ولم يحيدوا عنها حيث رددوا ما أجمع عليه القدماء.

ومنهم الرافعي الذي يذهب في تاريخ آداب العرب إلى أن العربية مرّت بثلاثة أدوار من أجل تهذيبها، فأول دور يرجع إلى عهد إسماعيل عليه السلام لأنه أول من تكلم بالعربية، وهو يقرّ بأن العربية قد خضعت لتطور قبل عهد إسماعيل " لا يمكن بوجهٍ من الوجوه أن يُحَدّدَ أو يُنسَب إلى فردٍ معين ".[4] وهو بذلك يبعد ما قاله الإخباريون بنسبة العربية إلى يعرب بن قحطان إلا إذا صحّ التسلسل التاريخي حتى ينتهي إليه، وذلك أمرٌ غير مجمعٌ عليه ولا بصحيح، ثم يذهب إلى القول بأن يعرب هذا يتّخذ اسم " يارح" في التوراة، وأن اسم يعرب إذا وجد له

الله. دار الفكر. بيروت.(ط6).1985.ص: 155.

[2] المزهر.السيوطي.166/1.

[3] المصدر نفسه.166/1 وما بعدها.

[4] تاريخ آداب العرب. الرافعي. 76/1.

دلالة لفظية على الإعراب أي الإبانة فإنه من المستحيل أن تجدها في اسم " يارح " لا بالنص ولا بالتأويل.

ويذهب إلى أنّ الدور الثاني في تهذيب اللغة إنما يعود إلى انتشار القبائل العربية وتفرقها في الأرض وهذا الأمر يستدعي تنوعا في اللهجات المختلفة التي ترجع إلى أصل واحد، ويؤدي هذا إلى تداخل هذه اللهجات وأخذ بعضها من البعض الآخر.

وأما الدور الأخير فيرجعه كلَّه إلى قريش وحدها بعد أن كانت في الدور الأول عمل القبيلة الواحدة وفي الدور الثاني عمل القبائل العربية، ويذكر بأن اللغة قد أُحْكِمَت على أدوار التاريخ الاجتماعي كلَّ الإحكام، " وذلك أنّ قريشا كانوا ينزلون من مكة بوادٍ غيرِ ذي زرع لا يستقل أهله بتكاليف الحياة، ولا يرزقون إذالم تهوِ إليهم أفئدةٌ من الناس، وكانت الكعبة، شرفها الله، وِجهةَ العرب وبيت حجّهم قاطبة في الجاهلية... وكانت تلك القبائل بطبائعها متباينةَ اللهجات مختلفة الأقيسة المنطقية المودَعَة في غرائزها.

فكانت قريش يسمعون لغاتهم ويأخذون ما استحسنوا منها فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه".[1]

وإن سأل سائلٌ ما الذي جعل القبائل الأخرى تخضع إلى أقيسة منطقية مودعة في غرائزها ولا تخضع قريش إلى هذه القاعدة، ونحن تحدِّثُنَا كتب اللغة أنّ العربيّ إذا أخذ لسانه على منطقٍ معيَّن لم يفارقه إلى غيره، حيث إن لسانه لا ينطق إلا بما عُوِّد عليه.[2]

---

[1] المرجع السابق.79/1.

[2] من ذلك ما جاء في المسألة النحوية المعروفة بالمسألة الزنبورية بين الكسائي

أجابه الرافعي بقوله :" لو كانوا يعني (قريشا) بادِينَ كسائر القبائل ما فعلوه، ولكن نوع الحضارة الذي اكتسبوه من تاريخهم ألاَنَ من طباعهم وكسر من صلابتهم "[3] ثم إنّ اجتماع لغتهم بحياتهم الاجتماعية أدّى بهذه اللغة إلى الارتفاع عن سفاسِف القول ومستقبَحِه في غيرها من اللغات الأخرى، وأدى هذا كلُّه إلى رقّة أذواقهم وقوة سليقتهم وتمكنهم من أخذ الفصيح من اللفظ وزادتهم حركتهم وتنقلهم وضربهم في الأرض لغاية التجارة إلى اليمن والحبشة وبلاد الروم وفارس، وسماع لغاتهم والأخذ من ألفاظهم وإدخالها في لغتهم، فكان أن أضافوا إلى ثروتهم ثروةَ القبائل العربية وثروة الأمم المجاورة .

وسيبويه, وقد احتكموا إلى الأعراب ومنهم أبو فقعس وأبو دثار وأبو الجراح وأبو ثروان، فوافقوا الكسائي في المسألة (وهي نصب الخبر المعرفة بعد "إذا " في قولهم: ظننت أنّ العقربَ أشدُّ لَسْعَةً من الزُّنْبُورِ فإذا هو هي –كما قال بها سيبويه شيخُ البصرة – أو فإذا هو إيّاها – بالنّصب كما قال بها الكسائي شيخُ الكوفة -). والذي يهمّنا في ذلك أنّ سيبويه قال ليحيى بن خالد البرمكي :" مُرْهُم (أي الأعرابَ) أن ينطِقوا بذلك فإنّ ألسنتَهم لا تطوع به ".

- ينظر: تاريخ آداب العرب.الرافعي. 284/1.

وقد ذكر صاحب الأغاني في مناظرة بين اليزيدي والكسائي بحضرة المهدي, حيث فاز اليزيدي بشهادة أعرابيّ، وجاء في النص:" ثم طلع الأعرابيُّ الذي بعث إليه، فَأُلقِيَتْ عليه المسائل فأجاب فيها كلِّها بقولي (أي اليزيدي) فاسْتفَزَّني السّرورُ حتى ضربتُ بقُلُنسُوَّتي الأرضَ.

- ينظر الأغاني .242/20.

[3] تاريخ آداب العرب. الرافعي.79/1.

ثم إنّ الرافعي بعد هذا خلص إلى القول :" ولا يسَــعُ المتأمل في الأدوار التي تعاقبت على قريش في تهذيبها اللغةَ إلاّ أن يستسلم للدهشة ويحار من أمر هذا التعاقب، فإنه كالسلّم المدرَجَة: تنتهي الدرجةُ منها إلى درجة على نمط مُتســاوقٍ من الرقي، إن لم يكن عجيبا في تاريخ أمة متحضــرة، فهو عجيبٌ على الخصــوص في تاريخ العرب، ولا ســيّما إذا اعتبرنا مبدأ تلك النهضة، وأنها لا تتجاوز مِائة سنة قبل الهجرة إلى مِائة وخمســين على الأكثر، فلا بد من التســليم بأنها حادثة كونية من خوارق النظام الطبيعي، ظهرت نتيجتها بعد ذلك في نزول القرآن الكريم بلغة قريش وهو أفصــح الأســاليب العربية بلا مراء، والله يحكم بما يشــاء ويقدر"[1]

لم يزد الرافعي على أنْ قال بكلام القدماء وردّد ما قرّروه، بل هو يذهب إلى التأكيد على أنّ هذه اللغة القرشــيّة "حادثة كونية من خوارق النظام الطبيعي" ضــاربا عرض الحائط الحقيقة العلمية في أنّ اللغة تدرس الآن دارسةً علمية بوصفها " ظاهرة اجتماعية وكائنًا حيًّا له نواميسُه التي لا تكاد تختلف أو تتخلّف".[2]

ومن المحدثين الذين أدلوا بدلوهم وأفاضــوا في الحديث كثيرا نجد الدكتور طه حسين في كتابه " في الأدب الجاهلي " حيث إنّ الرجل، وبالرّغم من شكّه في الشعر الجاهلي إلا أنه وفي هذا القضية حذا طريق القدامى حَذْوَ النّعْلِ بالنّعل، فنراه يذكر في كتابه وفي فصــلٍ بعنوان: الشــعر الجاهلي واللهجات أن القبائل العربية كانت تختلف في اللهجات

---

[1] المرجع السابق.80/1.

[2] اللهجات العربية في القراءات القرآنية. عبده الراجحي. ص:45.

اختلافا قائما قبل نزول القرآن بعد الإسلام، وهو لا ينكر هذا وليس ينكر أيضا أنّ الشعر استقام لهذه القبائل كلّها بالرغم من هذا الاختلاف والتباين، ويزيد بعد ذلك قائلا:" ولكني أظنّ أنّك تنسى شيئا يحسن ألاّ تنساه، وهو أنّ القبائل بعد الإسلام اتخذت للأدب لغةً غير لغتها وتقيدت للأدب بقيود لم تكن لتتقيد بها لو كتبت أو شَعَرَت في لغتها الخاصة أي الإسلام قد فرض على العرب جميعها لغةً عامة واحدة هي لغة قريش، فليس غريبا أن تتقيّد هذه القبائل بهذه اللّغة الجديدة في شعرها ونثرها... فلم يكن التّميمي أو القيسي حين يقول الشعر في الإسلام يقوله بلغة تميم أو قيس ولهجتها، وإنما كان يقوله بلغة قريش ولهجتها".[3]

إن هذا الكلام الذي قدمناه لطه حسين يبيّن لهجة قريش وسيادتها بعد الإسلام، ثم إنه بعد ذلك راح يعطي أمثلة قديمة وأخرى حية عن تلك المدن التي تعدل عن لهجتها المختلفة إلى لغتها الواحدة حين تريد أنْ تنشِئَ في الأدب وفنونه.

وإننا نراه بعد ذلك يقول متسائلا: " فالمسألة إذن هي أن تعلم أسَادَتْ لغة قريش ولهجتها في البلاد العربية وأخضعت العرب لسلطانهم في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده ؟ أما نحن فنتوسّط ونقول إنها سادت قبيل الإسلام حين عَظُم شأن قريش وحين أخذت مكة تستحيل إلى وحدة سياسة مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط

---

[3] المجموعة الكاملة – الأدب والنقد (ج1) –. في الأدب الجاهلي.طه حسين. دار الكتاب اللبناني. بيروت.1982. المجلّد:05.ص: 105.

على أطراف البلاد العربية.[4]

إذن فطه حسين يقرّر أنّ لهجة قريش غدت لغةَ جميع العرب حين ينشئون القول يريدون به هذا الضّربَ من الفنّ الشعري والنثري، وأن سيادتهم كانت قبيل الإسلام أيضا، وهذا لمكانة مكة في نفوس العرب واستحالتها إلى وحدة سياسية تناهض السياسة الخارجية لمملكتي الروم والفرس اللتين سيطرتا على أطراف الجزيرة العربية، بل إننا نستطيع أن نلمح من خلال القول أن مكّة، وتمثّلها آنذاك قريش أصبحت العاصمة السياسية والاقتصادية للبلاد العربية قاطبة، وإن حضارتها ورقيّها دلالة على حضارة ورقيّ جميع تلك الأقطار العربية المحاذية لها، وأنّ سقوطها - بلغة العسكريين - يعني سقوطا عسكريا للبلاد العربية برمّتها، وهذا لعمري الأمر الذي دعا أبرهة الحبشي إلى غزو مكة، ومحاولة تهديم بيتها الشريف،كما أن قريشا ظلّت بعد وفاة الرسول (ص) تأخذ بزمام الحكم والخلافة والملك بالرغم من تغيّر المكان والعاصمة السياسية من المدينة إلى دمشق ثم بغداد ممثلة في الخلفاء الراشدين وملوك دولتي بني أمية وبني العباس.

ومن خلال الذي قدمناه نرى أن طه حسين يقول بأن قريشا :" كان لها سلطان سياسي حقيقي ولكنه قَوي في مكّة وما حولها، وهذا السلطان السياسي كان يعتزّ بسلطانٍ اقتصادي عظيم، فقد كان مقدار عظيم جدا من التجارة في يد قريش، وكان هذا السلطان يعتزّ بسلطان دينيٍّ قوي. مصدرُه الكعبة التي كان يحج إليها أهل الحجاز وغير أهل الحجاز من عرب الشمال، فقد اجتمع لقريش إذن سلطان سياسي

---

[4]المصدر نفسه.ص: 107.

واقتصـادي وديني، وأَخْلِقْ بمن يجتمع له هذه السـلطان أن يفرض لغته على مَن حوله من أهل البادية".[1] وهو إذ يذكر هذا القول فإنما قد مهَّد له متحدثا عن البيئات الممتازة من الوجهة السـياسـية والاقتصـادية في شـمال البلاد العربية قبيل الإسـلام، وذكر أن هذه البيئات أربع مسـتثنيا السـيادة الفارسـية في الحيرة والسـيادة الرومية في أطراف الشـمال لأنها كانت تمثل أسـرا عربية.[2] خادمة للسـلطانين الكِسْـرَوِيأو القَيصَـري،

---

[1]المصدر السابق.ص: 109.

[2]مملكة المناذرة: وهي مملكة اللّخميين، وقد امتدّ عهدها من أوائل القرن الثالث للميلاد إلى القرن السـابع، وكانت قاعدتها الحيرة بالعراق, وكان ملوكها مُوالين للفرس ويأتمرون بأمرهم. ومن أشـهرهم النعمان الأول صـاحب قصـري الخَوَرْنَق والسّـدِير, والمنذر الثالث بن امرئ القيس بن ماء السـماء, وعمرو بن هِند الذي كان بلاطه مَوْئلا للشـعراء والأدباء، والنعمان بن المنذر " أبو قابوس " الذي مدحَه النابغة الذبياني في شعره، ومن شعره داليته المعلقة والتي منها:

نُبِّئْتُ أنَّ أبا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي ولا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الأَسَدِ

- ينظر الشـعر والشـعراء لابن قتيبـة. تحقيق: مفيـد قميحـة. دار الكتـب العلمية.بيروت.ط2 .1985.ص: 85 و90.

وهو البيت نفسـه الذي تمثّل به الحجّاج بن يوسـف الثّقَفي حين سَخِط عليه عبد الملك بن مروان .

- مملكة الغسـاسـنة (أولاد جفنة) وكانوا يقيمون في بلاد حوران أي في بصـرى وما حولها، وقد امتدّ عهدُهم من أوائل القرن الثالث للميلاد إلى الفتح

الإسلامي، كانوا موالين للروم البيزنطيين، من ملوكهم الحارثُ بن جَبَلَة الذي انتصر على المنذر بن ماء السماء في يوم حليمة, وكان قصره مرتادا للشعراء.

[1]مملكة كندة في نجد، وقد امتدّ عهدها من نحو سـنة 450 م إلى نحو سـنة 540 م، وكان أمراؤها تارة مع بيزنطة وتارة مع الساسانيين الفرس، وكان

وبقت البيئات الأخرى وهي مملكة كندة[1] اليمنية والتي لم يطل سلطانها ومن ثمّة تأثيرها، وبيئة قريش التي ذكرناها، وبيئة الطائف التي، ومع قوتها الاقتصادية، إلا أنها لم تلحق مرتبة البيئة المكية، وأما الأخيرة فهي بيئة الحجاز أي البيئة العربية اليهودية في يثرب، مستبعدا في الوقت نفسه أنّ أحدا لا يفكر في أنّ اللغة العربية الفصحى كانت لغة الأوس والخزرج أو لغة اليهود، كما أن بيئة مكة تفوقها قوةً وثروةً.

ويخلص طه حسين إلى القول:" لغة قريش، إذن، هي هذه اللغة العربية الفصحى، فُرِضَت على قبائل الحجاز فرضا لا يعتمد على السيف وإنما يعتمد على المنفعة وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية، وكانت هذه الأسواق التي يشار إليها كتب الأدب، كما كان الحج وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش.[2]

ويرى الدكتور شوقي ضيف الرأيَ نفسَه حين يقول في كتابه:" العصر الجاهلي " في عنصر بعنوان " سيادة اللهجة القرشيّة" بعد أن عرض لآراء المستشرقين الذين استبعدوا لهجة قريش ولغتها في أن تكون

حُجْر والدُ الشاعر امرئ القيس آخرَ ملوكِها قتله بنو أسد، وفي ذلك قال امرؤ القيس:

أَرِقْتُ لِبَرْقٍ بِلَيْلٍ أَهَلْ يُضِيء سَنَاهُ بِأعْلَى الجَبَلْ
بِقَتْلِ بني أَسِدٍ رَبَّهُم ألا كُلُّ شيءٍ سِواهُ جَلَلْ

- ينظر الشعر والشعراء.ابن قتيبة .ص:51

[2] في الأدب الجاهلي.طه حسين.ص:109.

[3]العصر الجاهلي. شوقي ضيف.ص133.

اللغةَ العربيةَ الفصحى التي اجتمعت عليها القبائل، ونَقَدَها مستخلصا قولَه:" وفي رأينا أن المستشرقين جَانَبَهم التوفيق في الحدس والغرض حين رفضوا نظرية العرب في أن الفصحى هي عينُ اللهجة القرشية "[3] حيث إنه بهذا القول يجعل الشقَّ شقّين، والجانبَ جانبين. فجانبٌ يمثّله العرب القدامى ومن سار في فلكهم، والقائلون بلهجة قريش كلغة مركزية بين القبائل، وجانب يمثله المستشرقون الذين تختلف آراءهم تبعا لنظراتهم المختلفة ،والتي سنتعرَّضُ إليها لاحقا، وهو يعطي الأسباب نفسها التي أشاعها القدامى حين يقول: " بينما إذا طلبنا ذلك (يقصد أسباب تفوّق لغة قبيلة ما) في قريش وجدنا أسبابا كثيرة تُعين عليه، فقد كانت مهوى أفئدة العرب في الجاهلية، وكان لها عليهم نفوذٌ واسع بسبب مركزها الديني والروحي والاقتصادي والمادي، إذ كانت حارسةَ الكعبة بيتِ عبادتهم، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية، وكان العرب يجتمعون إليها في أعيادها الدينية وفي أسواقها القريبة والبعيدة [1].

إنّ شوقي ضيف لا يبعد كثيرا عما قال به الدكتور طه حسين، فهما يجتمعان في نقاطٍ عديدة منها استئثار قريش بالمكانة الدينية، هذه المكانة التي مهّدت لهم عبر الزمن بأن يستغلّوها ويفيدوا منها في جوانب عدة، حيث أصبح لهم سلطان اقتصادي هام، وهاتان السلطتان الدينية والاقتصادية جعلتا من مكة ومن ثمّ قريشا مركزا حضاريا مشعا يمكن - من ورائه - تمرير وتسويق أي قضية أو فكرة، حتى وإن كانت

---

[1] المرجع السابق.ص:133.

بحجم صـــهر الثقافة الفكرية متمثلة في توحيد اللغة الأدبية العربية وحملها على محمَل لهجة قريش.

وعلى هذا الرأي مرّر الدكتور إبراهيم أنيس فكرته التي لا تختلف عما ذكر ســـابقا حين يقول :" وهكذا نرى أنّ بيئة مكة قد هُيِّئَتْ لها ظروفٌ وفُرصٌ، بعضها ديني وبعضها اقتصادي واجتماعي، مما ساعد على أن تصبح المركز الذي تطلّعت إليه القبائل، وشُدَّت إليها الرِّحال قرونا عدّة قبل الإسلام فكان أن نشأت بها لغة مشتركة أُسِّسَت في كثير من صفاتها على لهجة مكة " [2]. ولكن الدكتور بعد ذلك يذهب إلى فكرة الاشـــتراكية اللغوية – إن صحّ التعبير- حين يقول:" فلا يمثّل القرآن لغة قريش وحدها كما يتردد أحيانا في بعض الكتب والروايات، وإنما يمثّل اللغة المشتَرَكة بين العرب جميعا، لغةَ الأدب من شعرٍ وخطابة وكتابة".[3]

إلى هذا الرأي يميل الدكتور علي الجندي حين يقول:" فلغة الأدب في العصـــر الجاهلي، في نظري، لم تكن لهجةَ قبيلة خاصـــة بذاتها...إنما كانت لغةً خاصة، فوق مستوى اللّهجات القبلية، وُضِعَت ونَمَت وترعرعت بالذوق الأدبي"[4]، ويذكر أنّ الذي ثبَّت أقدامَها اســـتعمالُ الأدباء لها، كما ضـــمن لها القرآن الكريم الخلودَ والبقاء أبد الدهر، وهو قبل ذلك أعطى لها أدلّة عملية على أن لغة الأدب ولغة القرآن ليســـا لغةَ قريشٍ فقط، ومن هذه الأمثلة ورود بعض الألفاظ في

---

[2] مستقبل اللغة العربية المشتركة.إبراهيم أنيس. مطبوعات الجامعة العربية.1960.ص:08.

[3] المرجع نفسه.ص:09.

[4] تاريخ الأدب الجاهلي.عليالجندي.ص: 110.

القرآن " لم يفهمها القرشـيّون أنفسـهم في مثل قوله تعالى:﴿وفاكهةً وأبّا﴾[5] حيث سأل عمر بن الخطاب(ض) عن معناها وقال:" وما عليك يا ابنَ أمِّ عمر أن لا تدري ما الأبُّ" ومع مكانة عمر (ض) في الإسـلام وذوقه الأدبي الرّاقي إلاّ أنه لم يعرف تفسـير كلمة" الأبّ"، كما أن لورود بعض الألفاظ الأعجمية في القرآن والأدب الجاهلي دلالةً على التنوّع اللفظي في هذين المصـدرين اللغويين، ثم مَن له حقّ القول بأنّ تعريب هذه الألفاظ كان على يد القرشيّين فقط ولم يشترك معهم غيرهم؟.

تكاد تكون آراء أغلب العرب من قدامى ومحدثين تتشابه تشابها تاما إن لم نقل عن بعضها أنه نسخٌ تام في اعتبار اللّهجة القرشيّة هي عينُها اللغة العربية الفصحى، في حين كانت آراء المستشرقين مخالفة لما قال به العرب، ومن أهمّ مَن تطرّق إلى هذا الموضوع نجد" **نولدكه**" الذي يقول بأن الاختلافات في الحجاز ونجد وإقليم الفرات كانت قليلة، وأن اللغة الفصـحى قد تركّبت منها جميعا، إذ أنه بذلك لا يخصّـص لهجةً خاصة من بين لهجات هذه الأقاليم.

ولقد تبعه في ذلك الأستاذ "**جويدي**" الذي رأى أنّ اللغة العربية الفصحى ليست لهجةً معينة، أما " فيشر" فيذهب إلى القول بأنها لهجة معينة ولكنه لم ينسبها إلى قبيلة من القبائل .

أما " **نالينو** " فيذهب إلى أن مهد اللغة الفصـحى هو القبائلُ التي كانت تنظم الشـعر، والتي جمع اللغويون والنحاة المادة اللغوية والشـواهد من أهلها، وهي قبائل معدّ التي جمع ملوك كندة كلمتها تحت

---

[5] سورة عبس. الآية 31 - الأبُّ: نباتُ الأرض ممّا تأكله الدّواب والأنعام ولا يأكله النّاس.

لواء حكمٍ واحد قبل منتصف القرن الخامس الميلادي، وفي رأيه أن هذه اللغة الفصحى تولّدت من إحدى اللهجات النّجدية، وتهذّبت في زمن مملكة كندة، وصارت اللغةَ الأدبية السائدة بين العرب.

ويرى " **فولرز**"و " **هارتمان** " أنها لهجة أعراب نجد واليمامة وقد أدخل فيها الشعراء تغييرات كثيرة.أما " **بروكلمان** " فذهب يزعم أن الفصحى كانت" لغة فنية قائمة فوق اللهجات، وإنْ غَذّتها جميعا"[1] وقد اعتقد **بروكلمان** أن الفصحى تألّفت تدريجيا بفضل الصلات التجارية التي أوجدها الظغن والحجّ إلى المراكز الدينية كمكّة، واستمدّت غِناها في المفردات من عددٍ كبير من اللهجات".[2]

أما **بلاشير**، فبعد أن عَرَضَ لنظرية علماء الإسلام الذين اعتمدوا على مبدأ المناطقة الذين يعتمدون على مبدأ قبليٍّ أوّلي ليستخرجوا منه بعد ذلك النتائج وتغدو فيما بعد عقيدةً ثابتة صارمة وهذه النظرية هي التي ذكرناها سابقا، والتي نقلها السيوطي عن أبي نصر الفارابي:"...وبالجملة فإنه لم يؤخَذ عن حضريٍّ قطّ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطرافَ بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم..."[3] ،قلتُ نرى بلاشير قد أقام حدودا للّهجة الأدبية مثله مثل فولرز، وهذه الحدود محصورة " بين خطين يمتدّ أحدهما من مسافة كيلومترات معدودة جنوبيَ مكّة حتى خليجِ البحرين على الخليج العربي،

---

[1] تاريخ الأدب العربي.كارل بروكلمان. ترجمة:عبد الحليم النجار. دار المعارف. مصر.(ط3).1974. 42/1.

[2] تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 87/1.

[3] المزهر للسيوطي.167/1.

ويمتد الثاني شمالا من ضواحي المدينة حتى شمال الحيرة".[1]

إننا، وإذ نذكر هذه الآراء المختلفة المتباينة بين الباحثين من عربٍ ومستشرقين، والذين لا نزعم أننا أتينا على آرائهم كلِّها بالدّرس والتحليل، إنما نعتقد أنه لا يمكن إلا أنْ نرجع إلى الدرس والبحث والتحليل حول لهجة قريش وعلاقتها بالفصحى وأثر القرآن الكريم والشعر العربي، ولا نحسب بعد هذا الذي ذكرناه أنه قد أتى من يقول كلمةَ الفصل، إذ أنّ البحث في اللّهجات العربية أصلٌ من أصول البحوث اللغوية يحتاج إلى صبرٍ و رويّة وبُعْد فكرٍ وتبصّرٍ إلى أن نصل إلى الغاية المقصودة.دون أن نهمل ما لميدان القراءات القرآنية من قوّة أثرٍ في تنظير منشأ اللغة العربية الفصحى إذ أنها - أي القراءات - أوثقُ المصادر اللغوية لدراسة اللهجات، ومَن يطّلع على منهج القراءات يراها أصحَّ مناهج النقل اللغوي مقارنةً مع الشعر الجاهلي الذي أصابه بعض التحريف في الرواية، ومع الحديث الشريف الذي أُجِيز فيه برواية المعنى، وذلك لأنها تعتمد على التّلقّي والعرض، وحسبنا أنهما وسيلتان تكفلان صحّة النقل ودقّته إذ أن القرآن مصدرٌ لمعرفة اللغة وليس العكس.

ولما كان الشّعرُ الجاهليُّ – كما ذكرنا آنفا – قد أصابه التّحريف في الرّواية، فإنّنا مضطرّون للحديث في الفصل اللاّحق عن هذه الوسيلة التي تعتمد على المشافهة،وتتبّع مراحلها، وأشهر روّادها، وطبقاتها، ومتحدّثون عن التّدوين الذي قيّد من هذه الرواية الشفهية، ثمّ ما شابَ هذه الرواية من تحريفٍ ووضعٍ وانتحال، ممّا قد أشار إليه القدماء من مثل ابن هشام في سيرته، وابن سلاّم في طبقاته.

---

[1] تاريخ الأدب العربي. بلاشير.87/1.

الفصل الثّاني

مجال الشعر العربي القديم :

إنه لمن الخطأ الشائع في كل أدب أن نعتبر الانقلابات السياسية والدينية أساسا للانقطاع الأدبي واللغوي، كما أنّ ظهور الإسلام كدين وعقيدة قد أحدث فعلا انقلابا في السياسة والدين ولكن هذا الانقلاب لا يقطع العصر الذي سبقه وهو العصر الجاهلي ممثَّلا في اللغة، عن العصر الذي يليه.

لقد يكون من باب التساهل القول إن الأدب الجاهليّ منقطع عن الأدب الإسلامي في أوّلياته، غير أنّ المؤرخين دأبوا على التقسيم لأسباب علمية ومنهجية بحتة، ثم إنّ اللغة التي كان يتكلم بها الجاهليون – باعتبارها المادة الخام لأدبهم - لم تضعف بظهور الإسلام، بل بقيت بعد بعث الرسول ص وبعد موته أيضا إلى أكثر من أربعين سنةً حاملة في طياتها عهدَ الخلفاء الراشدين ومشرق شمس الدولة الأموية.

كما أن العصور الأدبية « يتدخل بعضها في بعض فتظل طوابع عصرٍ بدايةً على أعراض اللغة في أوائل العصر الذي يليه، حتى لقد ترى الآداب زاهرةً واللغة راقية في عصر تنحدر فيه الأحوال السياسية والاجتماعية إلى التأخر»[1]. ولا أدل على ذلك مثل القرن الرابع الهجري، يقول طه حسين: " والقرن الرابع الهجري دليلٌ واضح على أنّ الصّلة بين الأدب والسياسة قد تكون صلة عكسية في كثيرٍ من الأحيان، فيرقى

[1] الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي.محمد هاشم.ص:06.

الأدب على حساب السياسة المنحطة "[2].

ففي هذا القرن بالذات ومع اضطراب السياسة إلاّ أنه ظهر فلاسفة عظام كالفارابي وابن سينا وإخوان الصفا والشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري الذي أظلَّه عصرٌ " اضطربت فيه الأحوال السياسية والاجتماعية...ولكن هذا الاضطراب السياسيَّ عاد على العلم والأدب بفوائد لا تنكر... فازدهر الأدب ونما الشعر وتعدّدت المدارس العلمية والأدبية "[3].

ومن كل ما سبق ذكره يمكننا أن نطمئن إلى القول بأن الأدب العربي القديم لم ينته بانتهاء العصر الجاهلي وقيام العصر الإسلامي الجديد، ولكنْ بقي الأدب القديم لفترة غير طويلة بعد ظهور الدعوة المحمدية سواء في شعر الشعراء الذين أسلموا وتأثروا بالقرآن والحديث الشريف في شعرهم، أو الشعراء البادين الذين لم يسلموا ولم يتأثروا بهذه المؤثرات الجديدة لبُعْدِهم عنها، أو الذين قَضَوا نَحْبَهم متصارعين مع الدعوة الجديدة.

وقد ذهب بلاشير إلى أنّ هذه التّغيرات الجديدة والمؤثرات المستحدَثة بعد نزول القرآن "لم تؤثّر تأثيرا واقعيا أو ظاهريا على النتاج الأدبي إلاّ بعد أربعين عاما من وفاة الرسول ص أيْ بصورة مجملة حوالي سنة 50هـ 670م "[1]

---

[2]في الأدب الجاهلي.طه حسين.ص:41.

[3]رسالة الغفران. المعرّي . تحقيق وشرح: محمد عزّت . المكتبة الثقافية . بيروت. (د.ت). المقدمة.ص: 05.

[1]تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 99/1.

والظاهر أن هذا التاريخ إنما يرجع إلى شـيوع اللحن وتفشّـيه بين العرب، وخاصـة بعد اتّسـاع الرقعة الإسـلامية، ودخول الموالي إلى الإسـلام، وذلك ما دفع بأبي الأسـود الدّؤَلي إلى التفكير في هذا الخطر، وإنشاء ما عُرِف بعد ذلك بعلم النحو وعلم العربية بدءًا من عهد علي بن أبي طالب[2].

[2] يُنظر في أوّلية اللّحن وشيوعه: تاريخ آداب العرب. الرافعي. 194/1 وما بعدها.

الشعر العربي القديم بين الرواية والتّدوين

رواية الشعر العربي القديم :

لقد كانت الرواية[1] محصورة فيما مضى بالماء المحمول في المزادة (القربة)ومن حيوانٍ يحمل الماء غالبا فأُخِذَ الاسمُ استعارةً، أو

---

[1] جاء في لسان العرب قوله:« ابن سيدة: والرواية المزادة فيها الماء، ويُسَمَّى البعير راويةً على تسمية الشيء باسم غيره لقربه منه. قال لبيد :

فَتَوَلَّوا فاتِراً مَشْيُهُم كَرَوَايَا الطَّبْعِ هَمَّتْ بالوَحَلْ

والرّاوية : هو البعير أو البغل أو الحمار الذي يُسْتَسْقَى عليه الماء، والرجل المستقي أيضا راوية. وروى الحديثَ والشعر يرويه روايةً وتَرَوَّاه، ورجلٌ راوٍ. قال الفرزدق :

أمَا كانَ في مَعدَانَ والفِيلُ شَاغِلٌ لِعَنْبَسَةَ الرَّاوي عليَّ القَصَائِدَا ؟

وراوية كذلك، إذا كثرت روايته، والهاء للمبالغة في صفته بالرواية ». لسان العرب.ابنمنظور.مادة " روى ".

وذكر- قبل ذلك- الجوهري في صحاحه :« روى الحديثَ والشعر يروِي – بالكسر – روايةً فهو راوٍ في الشعر والماء والحديث من قومٍ رواة،

وروّاهُ الشعر تَروِيةً و أَرْوَاه أيضا حَمَلَه على روايته، والراوية البعيرُ أو البغل أو الحمار الذي يُستَقى عليه، والعامّة تسمّي المزادَةَ روايةً، وهو جائزٌ

استعارةً، ورجل راويةٌ للشعر والهاء للمبالغة ". – صِحاح الجوهري.مادة " روى ".

وقال الجاحظ :" الراوية هو الجمل نفسه، وهو حاملُ المزادة، فسمّيَت المزادة باسم حامل المزادة ولهذا المعنى سمّوا حاملَ الشعر والحديث راوية ".

- الحيوان. الجاحظ. تحقيق: عبد السلام هارون. دار الجيل. بيروت. (ط 2).1969. 333/1.

إنسانٍ يحمل الماء مستقيا، ثم مالبث أن دلّت على الرجال السادة الذين يحملون الدِّيات فَسُمُّوا بروايا الدّيات.

قال أبو شأس[2] :

وَلَنَا رَوَايا يَحمِلُونَ لَنَا أَثْقَالَنَا إذْ يُكْرَهُ الحَمْلُ .

ونخلص بعد هذا الذي ذكرنا إلى أنه أجيز استعارة كلمة الرواية من حمل الماء وحامله سواءً أكان إنسانا أم حيوانا إلى الحمل الأدبي للشعر وفنون القول، ولما كانت أمة العرب في بداوتها الأولى أمّةً جاهلة في الأغلب لاتتوفر على أساليب التدوين والكتابة، فإنّ رجالها كانوا يعتمدون على الذاكرة في حفظ تراثهم الأدبي، وممّا زاد في ذلك الحفظ شّغفُهم واهتمامهم واستمتاعُهم بأفانين القول، ولهذه الأسباب ولغيرها اعتمدوا على ما تتلقّفه الذاكرة لتُثَبّتَ ما يُلقَى إلى أسماعهم وترغب به نفوسهم، إذ أنَّ النصوص الأدبية كانت تُلْقَى مشافَهَةً، وقلّما نجد من الشعراء مَن دوّن آثاره الأدبية، وكان جمهور المستمعين من أفراد القبيلة يتلقّون ذلك فيحفظونه بعد سماعه وترديده، وكان أنْ قَوِيَت هذه الموهبة بعد الممارسة والتدريب والتكرار والاستمرار، وزاد في قوتها عدمُ معرفتهم الكتابةَ – كما ذكرنا – وكذا ميلهم الطبيعي والغريزي إلى حفظِ هذه الآثار وصونها لتساعدهم على حفظ أنسابهم وعصبيتهم ومقارعة الخصوم في الحروب والنزاعات من جهة، وفي المباريات الأدبية من جهة أخرى.

والجدير بالذكر أن الرواية في أول عهدها إنما كانت تعني مجرّد

---

[2] أساس البلاغة. الزّمخشري. مراجعة وتقديم الأستاذ: إبراهيم قلاّتي. دار ا لهدى. الجزائر.1998.مادة " رَوَى ".ص:276.

الحفظ والنقل والإنشـــاد ولا تتجاوز ذلك إلى التحقيق والتدقيق، كما كانت تعني رواية الشعر فقط " فلما أُصِّلَت أصولُ علم الحديث وأرسِيَت قواعده وعُنِيَ فيه بالإسناد، وتصدّر المحدِّثون للحديث في مجالس العلم من حفظهم، صـــار يطلَق عليهم أيضـــا لفظُ الراوية، فصـــرنا نجد للمحدّثين في آخر القرن الثاني رواةً كما كان للشعراء رواة "[1].

ولما كان رواة الحديث يعتمدون على الإســناد لئلاّ يدخل الزّيف والتّحريف في الأحاديث النبوية فقد أخذت الرواية الأدبية مسلكا مشابها في طورها الثاني، حيث ومع اعتمادها على الحفظ والنقل والإنشـــاد أصـبحت تعتمد على الضـبط والإتقان والتحقيق والتدقيق والإســناد، وأصبحت هناك مدارس تُعنَى برواية الشعر، ويُشرِف عليها شيوخٌ رواة.

ومن كلِّ ما ســبق نســتطيع القول إنّ الرواية الشــفوية في أول أمرها كانت وســيلةَ الجاهليين إلى حفظ أشــعارهم وروايتها، ومن هذه الطريق وحدها وصل إلينا هذا الكمُّ من الشعر الذي لقيَ حُظْوةً وعناية من رواة القرن الثاني للهجرة، والذين أخذوا أنفسهم على جمع النصوص الأدبية وشرحها وتدوينها.

كما أن هذه الرواية ظلّت إلى زمنٍ طويل بعد الإســلام، مثلها في ذلك مثل الحديث الشــريف الذي اعتمد على الرواية الشــفهية إلى نهاية القرن الأول للهجرة، بدايةً من عهد الخليفة أبي بكر الصديق الذي وضع « أوّل شــروط هذا العلم، وهو شــرط الإســناد الصـحيح، إذِ احتاط في قبول الأخبار، فكان لا يقبل من أحدٍ إلا بشهادةٍ على سماعه من الرسول

---

[1] مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. ناصر الدين الأسد. دار المعارف. مصر. (ط 4).1969.ص:189.

ص، والعهد يومئذ قريبٌ والصحابةُ مُتوافرون »[2].

ولقد كان القدامى يستشعرون خطورة الرواية في نقل الأشعار وشيوعها بين القبائل متمثلين بها في نواديهم وأثناء حِلِّهم وترحالهم، ومن ذلك قول عُمَيْرة بنِ جُعَيل نادما على هجائه لقومه والذي شاع في القبائل[3].

نَدِمتُ على شَتْمِ العَشِيرةِ بَعدَما مَضَت واسْتَتَبَّتْ للرُّواةِ مَذَاهِبُهْ
فَأَصبَحْتُ لا أستطيع دَفْعاً لِمَا مَضَى كَمَا لا يَرُدُّ الدَّرَّ في الضِّرعِ حَالِبُهْ

غير أن الأجدر بالذكر، وهو ما نجده في الكتب وآثار العلماء القدامى، من أنّ الرواية الشفهية كانت تسير جنبا إلى جنبٍ مع التدوين في أوّلياته، ولكنّ هذا التدوين قليلٌ بالقياس إلى الذين كانوا يعرفون الكتابة من جهة، ومن جهة أخرى إلى المؤونة التي كان يتطلّبها هذا النوع من التثبيت والحفظ.

لقد كان الرواة – ونقصد بهم رواة الشاعر – هم أوّلَ مَن يسمع شعر الشاعر، فيكتبونَه في الصّحف والكراريس، ولكنّهم قبل ذلك يثبّتونَه في ذاكرتهم وتَعِيه صدورُهم وينقلونه في النّوادي روايةً بالمُشافهة لا عن طريق القراءة من الصّحف، وقد ظلّت هذه الوسيلة مستمرّةً في القرون الإسلاميّة الأولى، وقد كان الشعراء ربما استعانوا برواتهم في كتابة أشعارهم، فها هو جرير لمّا همّ بهجاء بني نُمير أقبل إلى بيته، وقال للحسين راويته:" زِد في دهن سراجك الليلةَ وأعدِدْ ألواحا ودواةً. قال ثم

---

[2]تاريخ آداب العرب. الرافعي. 228/1.

[3]الشعر والشعراء. ابن قتيبة. ص:433.

أقبل على هجاء بني نمير فلم يزل حتى ورد عليه قوله :

فَغُضَّ الطّرْفَ إنّك من نميرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

فقال جرير للحسين راويته: حسبُك، أطفئ سراجَه ونم، فقد فرغت منه "[1] أي أهلكته، وذكر أحد أخوال الفرزدق قال:" ...فجئت الفرزدقَ ... ودخلت على روّاته فوجدتهم يعدّلون ما انحرف من شعره فأخذت من شعره ما أردت ، ...ثم أتيت جريرا ...وجئت روّاته، وهم يقوّمون ما انحرف من شعره، وما فيه من السّناد ...فأخذت منه ما أردت .." [2]

طبقات الرواة:

1- الشعراء الرواة :

لاريب أنّ أول طبقة اهتمت بنقل الشعر وروايته هم الشعراءُ الرواة أنفسُهم إذ أن الشعر نابع منهم ، صادر عن قرائحهم ، وهم بدورهم يؤلفون مدارسَ شعرية قائمة بذاتها تمتاز بخصائصَ فنيةٍ تؤلف حلقاتٍ متشابهةً لنتاج كلّ مدرسة.

وقد فصّل القول في هذا الأستاذُ طه حسين في أثناء حديثه عن مدرسة أوس بن حجر في قوله:"وإذن فإذا كان هذا كلُّه حقّا فإنّا بإزاء مدرسةٍ شعريّة معينة أستاذُها الأوّل أوس بن حجر"[1] وهو يقرّر بعد

---

[1] مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. ناصر الأسد .ص:191. وهناك خبر مشابه في الأغاني 35/8

[2]الأغاني. الأصفهاني . 4/ 255 وما بعدها

[1]في الأدب الجاهلي.طه حسين.ص: 269 وما بعدها.

[2] ينظر هذا الخبر وآخر غيره في الأغاني: 73/9.

ذلك أنّ للشـعر الجاهلي في مضـر مدارسَ، ويذكر بأنه قد ظفر بواحدة منها واسـتطاع أن يسـتكشـف بعض خصـائصـها الفنية، ويرشـد إلى مدارس أخرى كمدرسـة المدينة ومدرسـة مكة،ومدرسـة الشّـماخ بن ضرار التي كانت تنافس مدرسة زهير – فيما يظهر-.

والحق أن ما ذكره طه حسـين فيما يخصّ التنافس بين مدرسـة زهير ومدرسـة الشّـماخ ليس جديدا حيث جاء في الأغاني، وفي أثناء ترجمة الشّـماخ ما دلّ على هذا التنافس:" قال مزرّد لأمّه: كان كعب بن زهير لا يهابني وهو اليوم يهابني، فقالت: يا بني، نعم إنه يرى جرَْوَ الهراش مُوثَقا ببابك تعني أخاه الشّماخ "(2)

وقد ذكر القدامى شـعراءَ هذه الطبقة الذين أخذوا عن بعضـهم البعض وبدأوها بأوس بن حِجْر[3]الذي كان زهير بن أبي سـلمى راويتَه وتلميذَه[4]، وعن زهير أخذ ابنُه كعبوالحطيئة ، وعن هذا الأخير أخذ

---

[3]أوس بن حجر (توفي نحو 2 ق- هـ/ نحو 62م) وهو ابن مالك التميمي، أبو شريح، شاعر تميم في الجاهلية ومن كبار شعرائها، في نسبه اختلافٌ بعد أبيه حِجْر، وهو زوج أمِّ زهير بن أبي سُلمى، كان كثير الأسفار، وأكثر إقامته عند عمرو بن هند في الحيرة، عُمِّر طويلا، ولم يدرك الإسلام، كان غَزِلاً مغرما بالنساء.- ينظر ترجمته و أخبار عنه في الأغاني 73/11. –ينظر الأغاني 36/10

[4]طبقات فحول الشعراء. ابن سلام الجمحي.تحقيق محمود محمد شاكر.دار المدني جدة.(د ط).(د-ت)97/1.

على أنّ صاحبَ الأغاني يذكر أنه كان لزهير أستاذٌ آخر هو خاله بَشامةُ بنُ الغدير، وأنّ بشامة لما حضره الموت أخذ يقسّم ماله بين أهله " فأتاه زهير فقال: يا خالاه، لو قسَمتَ لي من مالك، فقال: والله يا ابن أختي لقد قسمت لكَ أفضلَ ذلك وأجزلَه.قال: وما هو؟ قال: شعري ورثتنيه ...فقال له زهير: الشعرُ شيء ما قلته

هدبة بن خشـرم[1] وعن هدبة أخذ جميل بن معمر العذري، وعن جميل أخذ كثيّر عزة، الذي قال عنه ابن محلّم: " آخر من اجتمع له الشـعر والرواية كثيّر"[2].

والقدامى أيضـا يذكرون غير هذا، فهم يذكرون أن الأعشـى كان راويةً لخاله المسـيّب بن عَلَس[3]،كما كان أبو ذؤيب الهذلي راويةً لسـاعدة بن جؤيّة الهذلي[4]، وكان أمرؤ القيس راوية أبي داود الإيادي[5] يتوكّأ عليه

فكيف تَعْتَدّ به عليَّ ؟ فقال له بشامة: ومن أين جئت بهذا الشعر؟ لعلّك ترى أنّك جئتَ به من مُزَينة، وقد علمت العرب أن حصاتها وعينَ مائها في الشعر لهذا الحيّ من غَطَفان، ثم لي منهم، وقد رويتَه عني " –ينظر الأغاني 362/10

[1]هدبة بن خشرم (ت نحو50هـ/نحو670م) من بني عامر بن ثعلبة، من قضاعة. شاعر فصيح مرتجل راوية، كنيته أبو عمير وهو القائل :

ىَسَى الكَربُ الذي أمسَيتُ فيه يكونُ وراءَه فَرجٌ قريبُ

[2]الأغاني. الأصفهاني.97/8

[3]المسيّب بن عَلَس بن مالك بن عمرو، من ربيعة بن نزار، شاعر جاهلي، كان أحدَ المقلّين المفضَّلين في الجاهلية، وهو خال الأعشى ميمون، وكان الأعشى راويتَه، ويؤثَر عنه البيتُ المشهور الذي عابه عليه طرفة حين قال له: استنوق الجمل وهو:

وقد أتنَاسى الهَمَّ عند احتضارِه بِنَاجٍ عليه الصّيعريّةُ مُكْدِم

ينظر الأغاني .246/24.

[4]الشعر والشعراء. ابن قتيبة. ص:

[5] أبو داود الإيادي: هو جارية بن الحجّاج، شـاعر قديم، من شـعراء الجاهلية، كان وصّـافا للخيل، قال الأصـمعي:" ثلاثٌ كانوا يصـفون الخيل لا يقاربهم أحد: طُفَيل، وأبو داود والجعدي". – ينظر ترجمته في الأغاني .16/ 402.

ويروي شـــعره، كمـا أنّ مهلهلا كـان خـالَـه، وكـان المرقّش الأكبر[6]عمَّ الأصغر[7] والأصغرُ عمَّ طرفة بن العبد[8].

ولو تتبّعنا بعض هذه السّـلاسـل لوجدنا أن للرّحم وللقربى دورا فيها، حيـث تربط الأســرة والقبيلـة بينهمـا برابط قوي، ممـا حـدا ببعض الدارسين إلى دراسة الخصائص الفنية التي تجمع كلَّ مدرسة شعرية.

وقد كان طه حسـين من السّـباقين إلى إثارة هذه الدراســة الفنية، وبـالتحـديدحول مدرســة أوس بن حجر، فـدرس شــعرَه وشــعرَ زهير والحطيئة وكعب والنابغة[9]

ولعلّ ذلك إنما يعود إلى الجاحظ حين ربط بين هؤلاء الشــعراء الفحول والذين سـمّاهم الأصـمعي" عبيد الشـعر"[1]لأنهم" قد كان اسـتعبدهم (أي الشـعر) واسـتفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التّكلف وأصحاب الصّنعة،ومن يلتمس قهر الكلام واغتصابَ الألفاظ "[2]

---

[6]المرقّش الأكبر:وهو عوف بن سـعد بن مالك، أحد المتيَّمين في الجاهلية، كان يهوى أسماء بنت عوف. توفي نحو سنة : 75ق.هـ/نحو550م.

[7]المرقش الأصغر: وهو ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك، شاعر جاهلي، من أهل نجد، وهو ابن أخي المرقش الأكبر، وعمُّ طرفة بن العبد، أشـهر شـعره حائيّتُه، وهي إحدى المجمهرات ومطلعها :" أَمِن رَسمِ دارٍ ماءُ عَينَيك يَسْفَحُ "

[8]ينظر الأغاني.136/6

[9]ينظر في الأدب الجاهلي.ص:270 وما بعدها.كما أننا سوف نرجع لهذا الموضوع في الفصل الأخير حين نتحدّث عن كتاب طه حسين وآرائه التي ضمّها بين دفّتيه.

[1]قال الأصمعي " زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر " . البيان والتبيين الجاحظ : 13/2

[2]المصدر نفسه. 13/2

ومن الشـــعراء الرّواة مَن كان لا يلتزم بشـــاعر واحد يروي له، ويتتلمذ على يده، بل كان يروي لشـــعراء كثيرين، وأكثر هؤلاء الشـــعراء الرواة مَن عاش في القرن الأول للهجرة، وكانوا بحق سلسلةً اتّصلت فيها الروايـة إلى العلمـاء في القرن الثـاني، ومنهم الطِّرمّـاح والكُمَيـت، ورؤبـة وذوالرمّةوجرير والفرزدق.

أما الطّرمّاح (ت- 125هـــ) فقد كان من فحول الشـــعراء الإســـلاميين وفصحائهم، وصديقا ملازما للكميت بن زيد، هذا الأخير الذي أُنشِد قولَ الطّرمّاح :

إذا قُبِضَت نَفسُ الطّرمّاح أخْلَقَتْ عُرَى المجدِ واسْترخى عِنَانُ القَصَائدِ

فقال: إي والله، وعِنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة " [3]

كما كان الكميت (ت- 126هـــ)،نفسُـــه عالما بآداب العرب ولغتها وأخبارها وأنســـابها، ويذكر صـــاحب الأغاني خبرا عن إفحام الكميت لحماد الراوية (ت.155هـــ)حين سـأله عن تفسـير كلمات في بيتين من الشعر[4].

وكان الطّرمّاح والكميت يأخذان عن رؤبة (ت145هـــ) الغريبَ ويستعملانه في أشعارهما [5]وكان ذو الرّمة (ت-117هـ) مُحسَّدا من جرير والفرزدق ، إلا أنهما شـهدا له بالتفوق في حضـرة الوليد بن عبد الملك [6] وقد روي أنّ حماد الراوية قَدِم على بلال بن أبي بردة، وكان عند بلال ذو

---

[3]الأغاني .12/ 46

[4]المصدر نفسه. 17/ 05

[5]المصدر نفسه.45/12

[6]المصدر نفسه. 29/18

الرمّة، فأنشده حماد شعرا مدحه به، فقال بلال لذي الرّمّة:" كيف ترى هذا الشعر؟ قال : جيّدا، وليس له.قال: فمن يقوله؟ قال: لا أدري إلا أنه لم يقله ، فلما قضى بلال حوائج حماد وأجازه، قال له:إن لي إليك حاجةً.قال: هي مقضية. قال: أنت قلت ذلك الشعر؟. قال: لا. قال: فمن يقوله؟. قال: بعض شعراء الجاهلية، وهو شعر قديم، وما يرويه غيري. قال: فمن أين علِم ذو الرّمة أنه ليس
من قولك؟ قال: عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام "[1].

أما جرير (ت- 111هـ) والفرزدق (ت 110هـ)فلعلّ شهرتهما وشهرة شعريهما جعل علماء القرن الثاني يتكؤون عليهما حين يريدون أن يأخذوا بعض علم الجاهلية وشعرهم .

2- رواة الشاعر:

كان رواة الشاعر في العصر الجاهلي قليلين بالنسبة إلى أمثالهم في العصور الإسلامية اللاحقة، وقد ذهب ناصر الدين الأسد إلى أنّ هؤلاء الرواة كانوا يلازمون الشعراء " في حلّهم وترحالهم، ويحفظون شعرهم ويروُونه، وينشدونه في المجالس والمحافل "[2]كما كان كل راوية حريصا على تقديم مَن يروي له، والافتخار به أمام مُثلائه من الرواة الآخرين.

غير أنّ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن قلّل من أهمية دور هؤلاء الرواة، فهو بعد أن ذكر فرضية ناصر الدين الأسد السابقة رأى أنه " من المبالغة وحسن الظّن أن نعوّل كثيرا على دور هؤلاء الرواة، إن وجدوا، في نقل الشعر الجاهلي، ونرتب على هذا الدور نتائج تتّصل بصحة روايته

---

[1] المصدر السابق.98/6.

[2] مصادر الشعر الجاهلي. ناصرالأسد.ص:44.

."[3]

والظاهر أنّ وجود رواة لشعراء إسلاميين كجرير والفرزدق[4]وكذا راوية كثيّر عزة وهو السائب بن ذكوان [5]وراوية الكميت بن زيد وهو محمد بن سهل [6] وراوية الأحوص[7]، قلنا إنّ وجود هؤلاء الرّواة ما هو إلا تقليد موروث عمّا كان عليه الحال في الجاهلية، غير أنه قد بقي لنا من رواة الجاهلية اسم راوية الأعشى الذي اختلفوا فيه. فمنهم من ذكر أن اسمه كان عُبيدا، وقد " كان عبيد هذا يصحب الأعشى ويروي شعره، وكان عالما بالإبل، وله يقول الأعشى في ذكر الناقة :

لم تَعطَفْ على حُوارٍ ولم يَقْ طَعْ عُبَيدُ عُروقَها مِنْ خَمالِ[8]

وقد ذكر أبو الفرج في الأغاني اسما آخر لراوية الأعشى وهو يحي بن متّى الذي يظهر أنه كان نصرانيا عباديّا مُعَمَّرا [1] والذي جعل الدكتورشوقي ضيف يذهب إلى أن هذا الراوي " من الممكن أن يكون قد

---

[3] الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية. إبراهيم عبد الرحمن. ص: 44

[4] ينظر إلى موضوع " رواية الشعر العربي القديم "فقد ذكرنا فيه خبرا يُذكَر فيه رواة جرير والفرزدق. الأغاني.255/4

[5]الأغاني. 9/ 258 " ... حدثني سائب راوية كثيّر قال ..." .

[6]المصدر نفسه.2/ 404 و 417." ... حدثني محمد بن سهل الأسدي راوية الكُمَيت ..." و" ... عن محمد بن سهل راوية الكميت ..."

[7]المصدر نفسه.4/ 238. وفيه "... فأقبل الأحوص على راويته فقال ...".

[8] الأغاني. 24 /231 "... أخبرني عُبَيد راوية الأعشى ...". (الحوار: ولد الناقة – الخمال: داء يصيب القوائم)

[1]المصدر السابق.132/9.

عبث بالديوان فأدخل فيه ماليس منه ليزيد بعض المعاني المسيحية "[2].
ونرجح أنه قد اطمأنّإلى هذا الرأي من خلال ماشـــكّ فيه ابن قتيبة في القصيدة التي وُسم فيها الأعشى بأنه قَدَريٌّ تتشابه آراؤه وآراء المعتزلة، وهي التي يقول فيها :

اسْتَأثر الله بالوَفاءِ وبالْـ عَدْل وَوَلَّى المَلامَةَ الرّجُلا

حيث رأى بن قتيبة أنها منحولة [3]

أما الجواليقي في كتابه " المعرب " فقد ذكر اســما ثالثا لراوية الأعشى وهو يونس بن متى وقد أرجع الدكتور ناصر الدين الأسد هذه الأسماء الثلاثة إلى شخص واحد بعينه،وأنّ اسمه قد أصابه التحريف عند ترجمته ثم نقله إلى العربية[4]

وهنا نرجع إلى ما قيل ســابقا بأن القبائل لم تحفظ أســماء رواة الشعراء، وأن العلماء في القرن الثاني لم تكن لهم عناية بذكر أسمائهم وتوثيقها ممّا يرجَّحُ أنّ دورهم لم يكن ذا أهمية بالغة كتلك الأهمية التي حازتها الطبقة الأولى. وإن كان هذا في الواقع يبدو طبيعيا، حيثُ إنّ الطبقة الأولى نقشــت اســمها لمّا كان لكل راوية منهم شــعر خاص به، في حين لم يكن رواة الطبقة الثانية شعراء .

3- رواة القبيلة :

لقد كان للشــعر العربي القديم قيمته عند القبيلة إذ يحفظ أنســابها وأيّامها ووقائعها، وهو ديوان العرب وسِــجِلُّ مفاخرها، وكانت

---

[2]العصر الجاهلي. شوقي ضيف.ص: 340.

[3]الشعر والشعراء. ابن قتيبة.ص:

[4]ينظر مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. ناصر الدين الأسد. ص: 241.

القبيلة لا تحتفي بشيء قدرَ احتفائها بنبوغ شاعر لديها ، يحمي حماها، ويذود عنها باللّسان والسّنان، وكانت تتلقى التهاني من القبائل الأخرى، ولعلّ قصيدة عمرو بن كلثوم " ألا هبي بصحنك فأصبحينا " من أهم قصائد الجاهلية التي شغلت الكبير والصغير في قبيلة تغلب "حتى هُجُوا بذلك،قال أحد شعراء بكر بن وائل :

ألْهى بني تَغْلِبَ عن كُلِّ مَكْرُمة قَصيدةً قالَها عَمْرو بنُ كُلثُومِ

يَرْوُونها أبدًا مُذْ كان أوّلُهم يا لَلرجال لِشِعرٍ غَيرِ مَسْؤومِ[5]

إنه لمن الطبيعي أن يضطلع أبناء القبيلة في التشهير لشعر شعرائها، يفتخرون به ويرفعون هاماتهم أمام نظرائهم من القبائل الأخرى، بل كانت أكثر من هذا، كانت أشبهَ بمعركة سلميّة يتم فيها التنافس وعرض القوة الأدبية، مما حدا بالعلماء إلى أخذ الشعر من القبائل كمصدر هام في تجميع الآثار الشعرية، واعتبارا من أنه يمثل رواية جماعية لهذا الشعر.

إنّ لفي كتب اللغة والتاريخ ودواوين الشعر أخبارا كثيرة تؤكد مدى أهمية رواة القبيلة في الحفاظ على الإنتاج الشعري، من بينها ما رواه الأصفهاني من خبر عبد الملك بن مروان الذي جلس يعرض أحياء العرب بعد مقتل مصعب بن الزبير، وكان أنْ تكلّم مع رجل من قبيلة جديلة، فسأله عن ذي الأصبع العدواني فأجابه إجابةَ عالم بالأمر وقال له: " ادنُ منّي فإني أراك بقومك عالما " [1] وأنشده قصيدة ذي الأصبع التي منها: " عذيرَ الحيّ من عدوان"

---

[5] الأغاني.11/ 57.

[1] المصدر السابق. 3/ 89.

وابن سلام يحدّثنا عن شعر متمِّم بن نويرة، والذي أُخِذ شعرُه عن حفيده ابن داود بن متمّم، يقول:" أخبرني أبو عُبيدة أنَّ ابنَ داود بن متمّم بن نويرة قدِم البصرةَ في بعض ما يَقدُم له البدوي في الجلب والميرة فنزل النَّحيت، فأتيت أنا وابن نوح العطاردي فسألناه عن شعر أبيه متمّم وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعَتَه، فلما نفذ شعرُ أبيه جعل يزيد في الأشعار ويصنعها لنا، وإذا كلامٌ دون كلام متمّم، وإذا هو يحتذي على كلامه، فيذكر المواضع التي ذكرها متمّم، والوقائع التي شهدها. فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله " [2]

ويذكر الدكتور يوسف خليف أن من مصادر شعر الصعاليك القبائلَ التي كانت تجيرهم حيث يمدحهم هؤلاء الشعراء وبالمقابل يحرص الممدوحون حرصا شديدا "على إذاعته بين العرب لأنه تسجيلٌ لبعض مفاخرهم،وإشادةٌ ببعض أمجادهم، وليس مايمنع من أن تذيعَ هذه القبائل ما قاله هؤلاء الصعاليك في قبائلهم التي خلعتهم لأنه فرصةٌ للنّيل منها" [3]ولن نذهب إلى الإطالة في سرد هذه الأمثلة فهي كثيرة .

4- الرواة الوضاعون :

لقد مرّ الشعر بمراحل عديدة بدءا من الرواية الشفوية إلى التّدوين، وقد تناقله رواةٌ عبر أجيال متعددة، منهم الثّقات الصّادقون، ومنهم الوضّاعون الكاذبون كالذي رأيناه في خبر ابن داود بن متمّم بن

---

[2]طبقات فحول الشعراء .ابن سلام .48/1.

[3] الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي. يوسف خليف. مكتبة غريب. مصر. (د ط).(د-ت). ص:151.

نويرة.

وبالرغم من الجهود الحثيثة التي قام بها نفرٌ من العلماء الثّقات في تنقية هذا الشّعر وردّه إلى أصوله وتبيين زائفه وكذبه، إلاّ أنّ هناك موجاتٍ من الشّك تلفّ بعض موضوعاته.

ولعل الساحةَ التي كثُر فيها هذا الوضعُ والزّيف هي ساحةُ القَصَص وأحاديثُ اللهو والسّمَر وقصص الخرافات. وكان أنْ شاع هذا بين خلفاء بني أميّة الذين كانوا يجلبون القُصّاص إلى قصورهم يستمعون إلى أحاديثهم فيما يتعلق بأخبار الأمم السابقة وقصص الأنبياء، ثم إن هؤلاء القصاص - وخاصة مع بداية القرن الثاني حيث كثرت الفتن - أصبحوا يختلقون الكذبَ في الحديث وأخبار العرب وأيامهم[1]، فهجرهم العلماء وأصبحت العامة تدور في حلقاتهم،وأوّل من ذُكر في هذا المضمار موسى بن سيّار الأسواريُّ الذي قال عنه الجاحظ: " وكان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فتقعد العربُ عن يمينه والفرس عن يساره"[2]

وكان هؤلاء القُصّاص يتمثلون في أحاديثهم بالشعر، ومن ذلك ما يروى في كتاب" أخبار عبيد بن شرية "[3]الذي كان من محدّثي معاوية والذي كان يطلب منه أحاديثَ القدامى وقصصهم، وكان يقول له:"

---

[1]ينظر الخبر عن القُصّاص في: تاريخ آداب العرب.الرافعي.319/1 وما بعدها.

[2] البيان والتبيين. الجاحظ 1/ 368.

[3]ينظر الخبر عن عبيد بن شرية الجرهمي في: الفهرست.ابن النديم. دار المعرفة. بيروت. 1978. ص: 132.

وسألتك ألاّ تمرَّ بشعرٍ تحفظه فيما قاله أحد إلاّ ذكرته " ومع أن عبيدا كان لا يُقصِّر في الاستشهاد بالشعر، فقد عاد معاوية يحلف عليه بقوله:" سألتك ألاّ شدَدْتَ حديثك ببعض ما قالوا من الشعر ولو ثلاثة أبيات "[4]، بل كان يطلب منه أن يتمثل بشعرٍ قاله يَعْرُب بن قحطان وعاد بن عوص وثمود وأخوه جديس وما قاله لقمان في نسوره السبعة.

ولم تكن أحاديث القصاص مقصورة على الخلفاء في قصورهم، بل امتدّ هذا إلى العامّة في الأسواق والمساجد، حيث كان من بين القصّاصين من يتصدّر حلقةَ المسجد، ويفسّر للجمهور القرآن الكريم ويستطرد في ذكر أخبار العرب والعجم وأحاديث الغابرين، يستشهد في ذلك بالشعر القديم في أكثر من الأحيان، وكان من بين هؤلاء أبوعلي الأسواريُّ الذي كان يقصّ بمسجد في البصرة ستا وثلاثين سنة، ثم جاء بعده القاسم بن يحيى الضّرير وأبو بشرٍ صالحُ المرّيُّ وغيرهم كثير [5] إذن نكاد نتفق على أنّ القُصّاص هم من فتح باب الوضع والتّزيّد في الأخبار عن قصدٍ أو عن غير قصد،وقد يكون هذا الوضع والتزيد مُبالَغا فيه بعضَ الشّيء، بل كان من العامة من يقبله مطمئنا دون حذر أو قليل من الشك، وكان هناك أيضا فئة من الناس تتحفّظ بعض الشيء شكًّا منها في ثقة القاصّ من جهة، أو شكًّا منها في الموضوع المقصوص من جهة أخرى.

وإن كنا نعلم – سلفا - أنّ الحديث الشريف - مع ماعليه من قدسية – لم يسلم من الوضع والتزيد، فكيف بهذه الأشعار التي كانت

---

[4] مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. ناصر الدين الأسد. ص: 599 وما بعدها

[5] ينظر في ذكر القُصاص: البيان والتبيين .الجاحظ. 1/ 368 وما بعدها .

تُنحَل ويُزاد فيها حتى امتلأت بها كتب التاريخ والسـيرة والمغازي، غير أن العلماء من الرواة الثقاة فطنوا لهذا الأمر الخطير وتصّـدوا له، وبيّنوا زيفَ بعض هذه الأشعار ونحلَها. وكان من بين هؤلاء العلماء ابن هشام (ت-213/أو 218) الذي نظر في سيرة ابن اسحاق (ت 125هـ) فوجد منها كثيرا من الشـعر لا صِـحّة له، فحذف المنحولَ منه والرديء والمقذع وبعض الأبيات من القصيدة اختصارا.[1]

وجاء بعده ابن سلام (ت 231هـ) الذي قال في ابن إسحاق "وكان مـمـن أفسـدَ الشـعر وهجَّنه وحمَل كلَّ غثاء منه محمد بن اسحاق ... وكان من علماء الناس بالسِّير ...وكان أكثرُ علمه بالمغازي والسير وغير ذلك، فقبل الناس عنه الأشـعارَ، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشـعر أوتى به فأحمله، ولم يكن ذلك له عذرا، فكتب في السـير أشـعارَ الرجال الذين لم يقولوا شعرا قطّ، وأشعارَ النساء فضلا عن الرجال، ثم جاوز بذلك إلى عاد وثمود.أفلا يرجع إلى نفسـه ويقول: من حمل هذا الشـعر، ومن أدّاه منذ ألوف السـنين، والله تبارك وتعالى يقول : "فَقُطِع دابرُ القوم الذين ظَلَموا " أي لا بقية لهم ..." [2]، وقال أيضا: " فلو كان الشعر مثل ما وُضِـع لابن اسحاق ومثل مارواه الصّحفيون ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم ".[3]

---

[1] ينظر منهج ابن هشام في توثيق شعر السيرة وتنقيحه إلى:
شعر السيرة النبوية.شوقي رياض.دار المأمون.مصر.ط1.1987.ص:215 وما بعدها.

[2] طبقات فحول الشعراء. ابن سلاّم. 7/1 وما بعدها. والمزهر. السيوطي. 136/1.

[3] المصدر نفسه.11/1.

كما نقد صاحب الفهرست ابنَ اسحاق هذا قائلا: " ويقال : كان يُعمَل له الأشعارُ ويأتي بها ويُسأَل أن يُدخلَها في كتابه في السيرة، فيفعل. فضمَّن كتابَه من الأشعار ما صار به فضيحةً عند رواة الشعر" (4)

وحسبنا ما ذكرناه في هذه الطبقة من الرواة، إذ أنّ لنا عودةً إلى هذا الموضوع عندما نبحث قضية الانتحال في الشعر العربي القديم .

5 الرواة العلماء (المحترفون):

مع منتصف القرن الثاني للهجرة ومطلع شمس الدولة العباسية وُجِدَت فئةٌ من الرواة العلماء الذين احترفوا رواية الشعر واللغة، وتفرغوا لهما، وأصبحوا يعتمدون على أصول فنية وعلمية فيالرواية ، فكان منهم العرب والموالي وبعضٌ من القُرّاء. وكان أن تصدّروا حلقاتِ المساجد يروون الشعر وأخبارَ الجاهلية وأيامَها، ويَكْفون مؤونة السائل عن اللّغة بشرح غريبها وشاذّها وتذليل الصعب منها ورواية الشعر وما يتعلق به من أخبار ومناسبات .

غير أنّ علمَهم هذا وسعةَ اطّلاعهم وتبحّرهم فيه إنما أخذوه من ارتحالهم إلى البادية يجوبون الصحاري والقفار ويشافهون الأعراب بحثا عن المادة اللغوية شعرا كانت أو لغة أو خبرا، وقد كان هذا الارتحال إلى البادية نتيجةَ شيوع اللّحن وفساد ألسنة الناس وسليقتهم، وذلك

(4) الفهرست.ابن النديم. ص 136. وفيها ترجمة ابن إسحاق ومنها: " أنه مطعونٌ عليه غيرُ مرضيِّ الطريقة، وكان يحمل عن اليهود والنصارى، ويسميهم في كتبه أهلَ العلم. وأصحابُ الحديث يضعِّفونه ويتّهمونه، توفي سنة خمسين ومائة ".

لاختلاط الأعاجم بالعرب.

ومن جهة أخرى فقد رأى هؤلاء العلماء الرواة أصحابَ الحديث يقطعون الفيافي والقفار ويذهبون في كلّ حدب وصوب من أجل تأكيد حديث، أو نفيه، فمالهم لا يصنعون صنيعهم، ويضربون أكبادَ الإبل في طلب اللغة من جفاة الأعراب الفصحاء الضاربين في الصحراء [1]ومن المناطق التي بقيَ فيها فضلٌ من الفصاحة، لم يجاورها الأعاجم من الفرس والروم والقبط والهند واليمن وغيرهم -[2] غير أن هذه الرحلة من الحضر إلى

---

[1] ينظر أخبار وأسماء الفصحاء العرب المشهورين الذين سمع منهم العلماء في: الفهرست. ص: 65- 74. ومن هؤلاء أبو عرار وأبو زياد الكلابي، وكان قد وفَدَ إلى بغداد أيام المهدي، وأبو الجاموس ثورٌ بن يزيد، وكان يفد إلى البصرة، وأبو مسحل، وقد وفد على بغداد، وكانت له مناظرات مع الأصمعي ،وأبو ضمضم الكلابي وراوية الشعر عباد بن كسيب.

[2] جاء في المزهر للسيوطي في فصل عقده حول معرفة الفصيح. 1/ 167- وما بعدها نقلا عن الكتاب " الألفاظ والحروف " لأبي نصر الفارابي ما منه " ... وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قطّ ، ولا عن سكان البراري ممّن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ولا من قضاعة وغسّان وإيّاد لمجاورتهم أهل الشام ... ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم القبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم. والذي نقل اللغة واللسان العربي عن

البادية طلبا للّغة والشـعر أعقبتها رحلةٌ معاكسـة، فقد كان أهل البادية من الأعراب يفدون هم أيضا إلى حيث هؤلاء العلماء يعرضون بضاعتهم من النوادر والغريب والشعر [1].

وجدير بنا أن نشـير إلى أنّ هذا الارتحالَ كان في أول الأمر مُلِمًّا باللغة والأخبار والشـعر من أجل ضـبط اللغة العربية، وما عرف بعد ذلك بوضع علمي النحو والصرف، وهذا لغرضٍ مقدّس وهو شرح لغة القرآن الكريم، ولكن سـرعان ما اجتهد العلماء الرواة للشـعر من أجل طلب الشـعر وجمعه لذاته ومن أجل ذاته، منفصـلين بذلك عن الغاية الأولى والتي كانت – كما ذكرنا سابقا - تصبُّ كلُّها في فهم وشرح ألفاظ القرآن الكريم لتنبثق بعد ذلك – و من جراء التنافس الشـديد بين العلماء الرواة- مدرسـتان لهما خطرهما في علم الشـعر واللغة هما مدرسـتا البصرة والكوفة واللّتان كان لهما الدور الفعّال في نقل الشعر وتدوينه .

تدوين الشعر العربي القديم:

لقد يكون من المجازفة أصـلا أن نقول إنّ العرب قد عرفوا تدوين أشـعارهم في الجاهلية، بالرغم مما ذكروه في شـعرهم من أدوات الكتابة

هؤلاء وأثبتها في كتاب فَصَيَّرها علماً وصناعة هم أهلُ البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب " - وينظر أيضا الخصائص لابن جني في باب عقده بعنوان :" ترك الأخذ عن أهل المدر كما أُخِذ عن أهل الوبر " في: الخصائص. ابن جنّي. تحقيق. محمد علي النجار. عالم الكتب. بيروت.(د.ط) (د- ت) 2/ 05.

(1) في كتب الأدب أخبارٌ جمّة عن هاتين الرحلتين، وما يتعلق بها من الأخذ من الأعراب واختبارهم، ومن ذلك ما نجده في: تاريخ آداب العرب للرافعي 270/1 وما بعدها.

والتدوين ومعرفة بعض الشعراء للكتابة[1]، ولكننا نستطيع القول إنهم يقيّدون بعض مواثيقهم ومحالفاتهم وعهودهم وأشعارهم، ونجد من النّقاد من نفى كتابة الشعر وتعليقه على الكعبة [2] ورفض رواية حماد الذي يذكر أنّالنعمان بن المنذر امر بتدوين أشعار العرب وما مُدح به هو وأهله [3] وقد قال ابن سلام: " وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوانٌ فيه أشعار الفحول، وما مُدح به هو وأهل بيته، فصار ذلك إلى

---

[1] ينظر إلى موضوع " اللغة العربية " في الفصل الأول ففيه الحديث عن الكتابة والتدوين عند العرب.

[2] ينظر العصر الجاهلي. شوقي ضيف. ص: 158

وممّن رفض خبر تعليق القصائد على الكعبة أبو جعفر النّحاس.في حين أكّد التعليقَ ابنُ عبد ربّه ومن جاء بعده كابن رشيق وابن خلدون والإسكندري والبغدادي صاحب الخزانة.

ينظر إلى هذه الآراء في: الأدب العربي و تاريخه في العصر الجاهلي. هاشم عطية. ص:124 وما بعدها

و مصادر الشعر الجاهلي. ناصر الدين الأسد. ص:169. وما بعدها. و تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 1/ 161.وما بعدها.

[3] جاء في الخصائص لابن جني بأنّ حمادا الراوية قال بأن النعمان بن المنذر " أمر فنُسِخَت له أشعار العرب في الطّنوج، ثم دفنها في قصره الأبيض

فلما كان المختار بن أبي عبيد قيل له: إنّ تحت القصر كنزا، فاحتفره فأخرج تلك الأشعارَ، فمن ثمَّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة "

- معجم البلدان للحموي. دار الفكر. بيروت.(د.ط).(د- ت) مادة " القصر الأبيض" 4/ 354 .

بني مروان " [4].

وجاء عن ابن النديم أنّ الخطاط خالدا بن أبي الهياج تولّى كتابة المصاحف والشعر والأخبار للخليفة الوليد بن عبد الملك، كما أمر الخليفة الوليد بن يزيد بجمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها [5].غير أن التدوين شمل أول ما شمل الحديثَ الشريف، وذلك بعد أن أسرع الموتُ إلى حافظيه وحامليه، وتسرب إليه الوضع والخلق والكذب. كالأحاديث التي كان يرويها بُرْدٌ مولى سعيد بن المسيّب، وعكرمة مولى ابن عباس. ومن هذا اجتهد بعضُ الصحابة كعبد الله بن عمر وغيره في تقييد بعض الحديث، حتى كان عمرُ بن عبد العزيز فأمر محمّدا بنَ مسلم الزّهريَّ[6]بتدوين الحديث فدوّنه مراعيا في ذلك شروطَ الرواية الصحيحة.ثم تبع ذلك التّفسيرُ، حيث كان ابن عباس مفسّرا، وله كتابٌ فيه رواه عنه مجاهد وعكرمة[7] وجاء بعده سعيد بن جبير والذي روى تفسيرَه عطاءُ بنُ دينار.

وكان المفسرون كثيرا ما يلجأون في تفسيرهم إلى الاستعانة بالمغازي والسِّيَر حين يريدون بذلك أسباب نزول آيةٍأو أخبارا متعلّقة بها، ولكن سرعان ما انفصلت هذه الموضوعات عن التفسير حيث دُوِّنت فيها كتبٌ

---

[4]طبقات فحول الشعراء.ابن سلام. 1/ 25 .

[5]الفهرست.ابنالنديم.ص: 09.

[6] وهو محمد بن مسلم بن شهاب الزهريُّ، تابعي، وأول من دوّن الحديث، ومن أكابر الفقهاء والحُفَّاظ .توفي سنة 124هـ

- ينظر ترجمته في: وفيات الأعيان.ابن خلكان. تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت. 1968. 4/ 177.

[7]الفهرست.ص:50.

كالتي ألّفها عروةُ بن الزبير، وابنُ شـــهاب الزّهريُّ الذي طلب منه خالد القَسـريُّأن يكتب له السـيرة، وكان من الطبيعي أن تتضـمن هذه الكتب أشـــعارَ القدامى وأخبارَهم، حيث يســـتخدمونها للاســـتشـــهاد بها حين تدفعهم الحاجة إلى ذلك.

ومضى الأمر على ما هو عليه حتى القرنِ الثاني للهجرة، حيث بدأت أولى الاهتمامات لتدوين هذه الأشـعار والأخبار تدوينا يضـمن لها البقاء بعد أن وعتها الحافظة وســارت على الشِّــفاه، وكان أن تخصّــص لهذا العلم علماء برعوا في ذلك حدّ الإتقان والاحتراف، ومنهم أبو عمرو بن العلاء [1](ت- 154) الذي اعتمد على الرواية وحرص على تقييد جانب كبير من الأشـــعار والأخبار، قال أبو عبيدة: " وكانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له إلى قريب من السـقف، ثم إنه تقَرَّأ (تنسـك) فأحرقها كلَّها "[2] وقال عنه الأصمعي: " جلست إلى أبي عمرو عشر حِجَجٍ ما سمعته يحتجُّ ببيت إسلامي " [3] وهذه شهادة عالم تدلّ على ماكان يختزنه أبو عمرو في ذاكرته كثرةً وتنوعا.

أما حماد الرواية [4] (ت- 155 هـ) فكان أوّل أمره مُصاحبا للصّوص والشُّطَّار والصّعاليك " فنقب[5]ليلةً على رجل فأخذ مالَه، وكان فيه جزء من شعر الأنصار، فقرأه حماد فاستحلاه وتحفّظه،

---

[1] ينظر ترجمته وأخبار عنه في الفهرست.لابن النديم. ص: 42. ووفيات الأعيان.لابن خلكان. 3/ 466 .

[2] البيان والتبيين. الجاحظ. 1/ 321.

[3] المصدر نفسه. 321/1 .

[4] ينظر ترجمته وأخبار عنه في: الأغاني. 6/ 79-104. والفهرست. ص: 134

[5] نَقَب عن الشيء: فحص عنه فحصا بليغا. ينظراللسان . مادة " نقب "

ثم طلب الأدبَ والشـــعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك،وترك ما كان عليه فبلغ في العلم ما بلغ"[6].

ويدل هذا الخبر أيضا على أنه كان للأنصار شعرٌ مدوّنَ يتناقلونه مخافة ضياعه،وقد روى لنا أبو الفرج الأصفهاني بداية تدوين شعر الأنصار حين أمر الخليفة عمر بن الخطاب بذلك بعد أن نهى الأنصار والمهاجرين من أن يتذاكروا أشعارهم بداية الدعوة، وذلك دفعاً للضغائن والأحقاد. ولكن حدث أن تشاحن عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب مع حسان بن ثابت الأنصاريّ وأنشداه بعض ما قالاه في الجاهلية قبل الإسلام، وكان أن أخبر حسان عمرَ بن الخطاب بالأمر، فما كان على الخليفة إلا أن يأمر الشاعرين بالمثول أمامه،وأن يُسمِعا حسان شعرا يرد به عليهما، فلما قضي الأمر وتمّ القصاص،قال عمر: " إني قد نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئا دفعا للتضاغن عنكم، وبثّ القبيح فيما بينكم.فأمّا إذا أبَوا فاكتبوه واحتفظوا به،فدوّنواذلك عندهم. قال خلاد بن محمد:فأدركته والله،وإنّ الأنصار لَتجدّده عندها إذا خافت بِلاه " [1]

ومما يدل أيضا على أنّ لحمادٍ اهتماما بالكتب ما ذكره هو نفسه حين أرسل إليه الوليد بن يزيد بما ليطلب لقاءه، فقال: " لا يسألني إلاّ

---

[6] الأغاني. 6/ 96.

[1] المصدر السابق.148/4.

عن طرَفَيه قريش وثقيف. فنظرت في كتابي قريش وثقيف " [2]
وبالرغم من أنّ ابن النّديم ذكر بأنه " لم يُر لحمادٍ كتاب، وإنما روى عنه الناس،وصُنّفت الكتب بعده " [3].إلا أن الدكتور ناصر الدين الأسد يتعجب من قول ابن النديم، ويذهب إلى أنّ الرجل لم يصله شيء من كتب حماد، فألقى هذا القولَ إلقاءً، خاصة وأن أبا حاتم السجستانيّ رأى بعض كتب حماد في الشعر الجاهلي [4].

وأما أبو عمرو الشيبانيّ(ت- 213-)فقد عُمِّر طويلا، ومات وعمره مِائة وثماني عشرة سنة، وقال عنه ابن السّكّيت: " وكان يكتب بيده إلى أن مات، وكان ربما استعار منّي الكتابَ، وأنا إذ ذاك صبيّ آخذ عنه وأكتب من كتبه" [5].

لقد تكون هذه الأخبار المتعلقة بالعلماء الرواة الذين كتبوا الكتب وألّفوا المؤلفاتِ في الشعر العربي القديم كثيرةً لا تحصى، إذ نجدها مبثوثة في المصنفات العديدة التي تناولت آثار هؤلاء العلماء وسيرتهم وتعلّمهم وما أُثِر عنهم من قول أو فعل أو أثر، وهي على كثرتها وتنوّعها تدل دلالة واضحة على تدوين الآثار الأدبية متمثلة في الشعر الجاهلي القديم ابتداءً من عصر بني أميّة إلى أن زادت حدّتها في عصر بني العبّاس،أي أنّ بدايتها كانت من النّصف الثاني من القرن الثاني للهجرة إلى أن اانتهى التدوين في أوائل القرن الرابع

---

[2] المصدر نفسه. 103/6.

[3] الفهرست.ص:134.

[4] ينظر في: مصادر الشعر الجاهلي ناصر الدين الأسد.ص: 157. وقد نقل رؤية أبي حاتم السجستاني لكتب حمّاد عن مختارات ابن الشجري .

[5] الفهرست. ص:101.

للهجرة[6]. دون أن نغفلعن الأسماء الكبيرة التي كان لها الدّور الفعال في نقل هذه الآثار من مثل المفضّل الضبي(ت170هـ)صاحبِ المفضّليات، وخلف الأحمر (ت 180هـ) تلميذ حماد الرواية، والذي قال عنه أبو زيد الأنصاريّ: " لم أر رجلاً أفرسَ ببيت شعرٍ من خَلَف" [1]،والذي كان متّهما بالوضع والنّحل مثل أستاذه حماد[2]، ومنهم أيضا هشام بن الكلبي (ت206هـ) والهيثم بن عدي(ت207ه) الذي أخد عنه صاحب الأغاني كثيرا وذكر له ابن النديم كتبا كثيرة، ومنهم أبو عبيدة مَعْمَرُ بن المثنّى(ت211ه) والأصمعيُّ(ت 215هـ) صاحب كتاب الأصمعيات المشهور، وابن الأعرابي (ت225هـ) والذي قيل عنه بأنه:" قد أملى على الناس ما يُحمَل على أجمال،لم يُر أحدٌ في الشّعر أغزرَ منه "[3]. حتى أن المستشرق بلاشير يعترف بأننا مدينون له" حتى إنّه لَيصعبُ تحديدُ مقدار الدّين تماما "[4].

وهكذا نسير في سلسلة هؤلاء العلماء إلى أن نصل إلى جمّاع ذي قيمة كبيرة وهو أبو الفرج الأصفهاني (ت356هـ) الذي ألّف كتاب الأغاني، والذي يحوي مادة إخبارية وتاريخية ومختاراتٍ شعريةً تُعَدُّ جدّ هامة.

لقد ساهم هؤلاء العلماء، وغيرهم ممّن لم نذكرهم،سواءً بالإلقاء

---

[6]ينظر تاريخ الأدب العربي.بلاشير.134/1.

[1] الفهرست. ص:81.

[2]سنعود إلى هذا الموضوع حين نتحدث عن الانتحال.

[3]المصدر نفسه. ص: 102.

[4]تاريخ الأدب العربي.بلاشير.134/1.

مشـافهةً في المجالس، أو بالكتابة بخطّ اليد في نقل تراث هامّ ذي مكانة رفيعة، أصـبح فيما بعد يمثّل مصـدرا هاما من مصـادر الأدب العربي القديم، والذي حضِيَ الشّعر منه بالكمّ الأوفر والعناية العظيمة، حيث جُمِع في كتب خاصة و قُتل درسا وتحقيقا، وشرحا وتعليقا. وسـوف نأتي على ذكر هذه المصـادر ذكرا موجَزا، نهدف من ورائه إلى التّذكير ليس إلاّ.

إن أوّل ما يتبادر إلى الذهن في شـكل هذه المصـادر [5]هي المعلّقاتُ التي اختُلِف في عددها وفي أصحابها. وإن كانت أكثر الروايات تدل على أنها سـبعٌ : لامرئ القيس وطرفة بن العبد وزهير بن أبي سـلمى ولبيد بن ربيعة وعمرو بن كلثوم وعنترة بن شـداد والحارث بن حلِزَّة. وهناك من يضـع مكان الأخيرين النّابغةَ الذبيانيَّ والأعشـى، كما أن هناك رواياتٍ تعدّهم تسعا، ومنهم من يضيف قصيدةَ عبيد بن الأبرص إليهم .

ومن المصادر أيضا المفضليات للمفضّل الضبي، والأصمعيات للأصمعي، وجمهرةُ أشعار العرب لأبي زيد بن أبي الخطاب القُرَشي، ومختاراتُ ابن الشجري، ودواوينُ الحماسة لأبي تمام (ت231هـ) وللبحتري (ت284هـ) وللخالديَيْن أبي عثمانَ سعيدٍ (ت 350هـ) وأخيه أبي

---

[5] ينظر إلى هذه المصادر في:- العصر الجاهلي. شوقي ضيف. ص: 176 وما بعدها. وفي- تاريخ الأدب الجاهلي. علي الجندي. ص:153 وما بعدها، والشعر الجاهلي خصائصه وفنونه.يحي الجبوري.ص:173 وما بعدها، ومصادر الشعر الجاهلي.الأسد.ص:481 وما بعدها،وتاريخ الأدب العربي.بلاشير.146/1 وما بعدها،وتاريخ آداب العرب.الرافعي.303/3 وما بعدها.وعن مصادر شعر الصّعاليك ينظر: الشعراء الصعاليك.يوسف خليف.ص:147 وما بعدها. وعن مصادر شعر السيرة: شعر السيرة النبوية. شوقي رياض.ص:71 وما بعدها.

بكر محمد (ت 380هـ) ودواوينُ القبائل مما ذُكِر في الفهرست لابن النديم، كأشعار الأزد وهذيل وبني أسد وتغلب وبني تميم وبني عدوان وغيرهم، ودواوينُ الشعراء الذين وصل شعرُهم إلى أيدينا.

وإن كانت هذه المصادر قد وُسِمت بالتّخصّص فإنّ هناك جانبا من كتبٍ أخرى ككتب النحو واللغة والتاريخ، والسِّير والمغازي والأدب، والفقه والتفسير، قد تضمّنت بين صفحاتها عددا هائلا من أشعار العرب.

وقد كان هذا دَيْدَنُ كتب النحو واللغة حيث عملت المدارسُ النّحوية واللّغوية على الاستشهاد بالشعر من أجل التدليل به على موضوع من الموضوعات التي كان أصحابها يريدون بها غرض الاستشهاد، وخاصة ما وقع من تنافسٍ بين مدرستي البصرة والكوفة، وما حوته كتب أصحابها من أشعارٍ من مثل " الكتاب " لسيبويه، والذي ذكر في شأنه أبو عمر الجرميُّ قوله: " نظرتُ في كتاب سيبويه فإذا فيه ألفٌ وخمسون بيتا، فأمّا الألفُ فعرفت أسماء قائليها، وأمّا الخمسون فلم أعرف قائليها "[1].

وكذلك كتابَي "إصلاح المنطق " و"تهذيب الألفاظ" لابن السّكّيت، حيث حشا مؤلّفُهما الكثيرَ من الشعر، وقُلِ الكلام نفسَه في كتب النّحو واللّغة الأخرى.

وأما كتب السيرة والتاريخ ففي سيرة ابن إسحاق الحجّةُ الواضحة على اهتمام مؤلّفها بالشعر الذي استشهد به في الأخبار التي ذكرها.

وكذلك الشيءُ نفسه حين تقرأ كتب الأدب من مثل كتابَي "البيان والتبيين" و"الحيوان" للجاحظ فإنك واجدٌ فيها نُتَفا كثيرةً من أشعار

---

[1] مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. ناصر الدين الأسد.ص: 592.

العرب. قال الجاحظ في مقدمة جزئه الثالث من البيان والتبيين: " هذا – أبقاك الله - الجزءُ الثالث من القول في البيان والتبيين وما شابه ذلك من غُرَر الأحاديث، وشاكَلَه من عيون الخُطَب، ومن الفِقَر المستحسنة والنُتَف المستخرجة والمقطعات المتخيَّرة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة والجوابات المنتَخَبة"[2].

غير أن هذه الآثار التي عُنِيَت بالشعر وتدوينه لم تكن كلّها خالصةً في الدّقة والتّحري، بل شابَ بعضَها شكٌّ،كالذي أشرنا إليه سابقا حين تحدّثنا عن الرّواة الوضّاعين، وما أثاره ابن سلاّم الجُمحيُّ حول شعر السيرة لابن إسحاق متَّهما إيّاه بإفساد الشّعر وتهجينه وحمْلِ كلّ غُثاء منه، ممّا أدّى إلى ظهور قضية لها خطرُها في تاريخ الأدب العربي القديم ألا وهي قضية الانتحال، والتي لم تسلم منها أمّة من الأمم، والتي تأتي كنتيجة طبيعية حين تكون النّصوص الرّاقية عرضةً للنقل الشفوي، مما تثير حولها القيلَ والقال والظّنَّ والطّعنَ والوضع والتّزيُّد.

قضيّة الانتحال في الشعر العربي القديم:

لم يسلم أدبٌ من الآداب العالمية من الشّك الذي يخامر موضوعاته ونصوصه الأدبية، ذلك أن النّفسَ البشرية تتمايز فيما بينها وتختلف اختلافا بين الصدق والكذب، وبين التثبّت والتّدقيق واللامبالاة في ذلك، بل إنّ الذاكرة تختلف ضَعفاً وقوةً في الحفظ،كما أنّ هذه الآداب لم تعرف الوضع والنحل[1] في بداياتها حين تكون الرواية الشفوية هي

---

[2] البيان والتبيين. الجاحظ. 3/ 05.

[1] نحله القول من باب "قطع" أي أضاف إليه قولا قاله غيره وادّعاه عليه، وانتحل فلانٌ شعرَ غيره أو قولَ غيره إذا ادّعاه لنفسه.

السبيلَ الوحيدَ في نقل الآثار وما ينجرّ عنها من زيادات وإضافات وحذف إلى المتن الواحد نفسه، بل إنّ الوضع و النحل لا يزال إلى يومنا هذا رغم ظهور الطباعة وأدوات الكتابة [2].

وبما أن الأدب العربي ليس بِدْعاً من الآداب الأخرى، فقد بُلِيَ هو أيضا بما بلي به غيره[3]،و زاد طول روايته مشافهةً و قلّةُ تمرُّس العرب على الكتابة وتحامل بعض العرب و المستشرقين عليه بأن اتُّهِم بالاختلاق والافتعال وبالوضع والتزيد والانتحال، بل وصل إلى حدِّ إنكار الشعر الجاهليّ برمَّته.

وإن كان هذا و الحال هذه فإنّ الوضع والنّحل لم تسلم منه الكتبُ السّماوية أيضا كالذي فُعِل بالتّوراة والإنجيل، ولولا أنّ الله تعهّد بحفظ كتابه في قوله:﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَوَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[4] إذاً لامْتَدَّت إليه أيدي التّحريف و التّزييف.

- ينظر:مختار الصّحاح. الرازي. تحقيق محمود خاطر. مكتبة لبنان. بيروت. 1995.مادة " نحل" ص: 271.

[2] عند إفادتنا من كتاب" الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي" للأستاذ محمد هاشم عطية، وجدنا في المقدمة مقالا للأستاذ: محمد البيومي نشره في (مجلة الثقافة. عدد 84.سبتمبر. 1980) وهو بعنوان :" تزوير أم اغتيال مأساة كتابٍ وذكريات مؤلّفه" وفيه يتحدث عن تجرّؤ ناشر لبناني على كتاب " هاشم عطية" ونسبته إلى مستشرق إنجليزي هو: ج هيوارث دون!!.

[3] في كتاب مصادر الشعر الجاهلي لناصر الدين الأسد بحثٌ طويل عن المشكلة الهومرية في الآداب اليونانية، يحسن الرجوع إليه وفيه عرضٌ عن الانتحال في أدب اليونان، ص: 287-320.

[4] سورة الحجر. آية : 09 .

وأمرُ الوضــع والكذب في الحديث الشــريف مشــهورٌ مذ أن قال عليه الســلام: «من كـذب عني متعمـدا فليتبوّأ مقعـدَه من النـار»[5] وقولـه أيضــا:«حدِّثوا عنّي ولا تكذبوا عليَّ فإنه من يكذب علي يلجِ النارَ»[6]، بل إنّ الوضع استفحل بعد وفاة الرسـول ص حتى مكّن الله للعلماء الثّقات المحقّقين من ضبط الحديث وتنقيحه وتصحيحه وردِّ روايات المجروحين والمطعونين من نَقَلَته وتبيين كذّابيهم ووضّاعيهم .

وإذا عدنا إلى الشــعر العربي القديم وجدنا أنه كان عرضــةً للوضــع والانتحال منذ الجاهلية، و كثيرا ما كان الشــعراء يُغيِرون على بعضهم بعض يأخذون شـعر الرجل منهم لفظاً أو معنى كالذي ذكره أبو عبيدة[1] في شــأن شــعراء غطفان، و أنهم ربما كانوا يُغيرون على شــعر قُراد بن حنش الصــاردي فيأخذونه ويدَّعونه، ومن هؤلاء زهير بن أبي سلمى الذي قيل بأنه ادّعى أبياتا لقُراد في رثاء هرِم بن سِنان و هي:

إنّ الرّزِيّةَ لا رزيَّةَ مِثلُــــــها ما تَبْتَغي غَــطَفانُ يومَ أضَلَّتِ
إنّ الرِّكــــابَ لَتَبتَغي ذَا مِرَّةٍ بِجَنوب نَخْلٍ إذا الشّهورُ أحَلَّتِ
ولَنِعمَ حَشـوُ الدِّرعِ أنتَ لنا إذا نَهَلَت من العَلَقِ الرِّماحُ وعَلَّتِ
يَنْعَونَ خَيرَ النَّاسِ عند كَريهَةٍ عَظُمَت مُصيبتُهم هناكَ وجَلَّتِ

و من ذلك أيضــا ما رواه صــاحب الأغاني عن النابغة الجعدي (ت نحو 50هـــ) حين طلب منه الحســنُ والحســين أبناءُ علي (ض) أن

---

(5) الطبقات الكبرى. ابن سعد. دار صادر. بيروت .(د.ت). 107/3، وأيضا تفسير ابن كثير. دار الفكر.بيروت. 1410هـ. 5/1 و147 و 547/2.

(6) تفسير ابن كثير. 147/1 .

(1) ينظر الخبر في طبقات ابن سلام. 2/ 733 .

ينشدَهما من شعره، فأنشدهما :

الحَمدُ لله لا شَريكَ لَه مَن لم يَقُلْها فَنَفسَه ظلَما

فقالا: يا أبا ليلى ما كنّا نروي هذا الشعر إلاّ لأميةَ بن أبي الصّلت (ت نحو سنة 5هـ) فقال: يا بَني رسول الله ص إني لَصاحبُ هذا الشعر وأولُ مَن قاله وإنّ السّروقّ لَمَن سَرق شعرَ أميّة"[2].

و قيل إنّ الفرزدق وكُثَيّرا سرقا بيتين لجميل بن معمر، أما الفرزدقُ فقد سرق قولَه:

تَرى النّاسَ ما سِرْنا يسيرُون خَلْفَنَا وإنْ نحنُ أَوْمَأْنا إلى النَّاسِ وقَّفُوا

و أما كثيّر فقد سرق منه:

أريدُ لِأَنسَى ذِكرَها فَكَأَنَّما تَمَثَّلُ لي لَيلَى بِكُلِّ سَبيلِ[3]

وقلّما يزيد شاعرٌ بيتا ليس له من باب الاستزادة في الشعر والتّمثّل لا يريدون به السرقة، و من ذلك ما ذكره ابنُ سلاّم حين سأل يونُسَ عن بيتٍ رَوَوه للزّبرقان بن بدر وهو:

تَعدُو الذِّئابُ على مَن لا كِلابَ له وتتَّقي مَرْبَضَ المُسْتَثْفِر الحامي[4]

فقال:" هو للنابغة، أظنّ الزبرقان استزاده في شعره كالمثل حين جاء

---

[2] الأغاني. 14/5 وما بعدها.

[3] ينظر إلى القصة كاملة في الأغاني. 384/9، وبيت الفرزدق من الأصوات المائة المختارة في الأغاني.

[4] المستثفر: الاستثفار أن يدخل الرجل إزاره بين فخذيه ملتويا، ومعناه الاستعداد (القاموس: ثغر) وفي البيت اختلاف في اللفظ ومنه:

وتتقِي مَرْبض المستنفر الحامي. وجاء في الأغاني.1/ 88: وتتّقي صولةَ المستأسد الحامي.

موضعُه لا مُجتَلباً له، وقد تفعل العرب لا يريدون به السرقةَ "[1].

لقد أشـار العلماء الرواة من الرّعيل الأول في القرنين الثاني والثالث إلى الوضـع والنحل في الشـعر العربي القديم، ودَلُّوا عليه في كلامهم وكتبهم، وبيّنوا الأشـعارَ المنحولة والموضـوعة والمصـنوعة وهي كثيرة نحاول إعطاءَ أمثلةٍ منها.

من هؤلاء الرواة العلماء أبو عمرو بن العلاء الذي نصّ على أنّ ضـاديّةَ ذي الأصـبع العـدواني منحولـةٌ، وأنّه لا يصـحّ منها إلا الأبيات الثلاثة الأولى[2] وهي:

وليسَ المرءُ في شَيءٍ منَ الإبرامِ والنَّقْضِ
إذا أَبْرم أمراً خا لَهُ يقْضي وما يقضِي
يَقولُ اليَومَ أمْضِيهِ ولا يمْلِكُ ما يمْضِي

و في خبر آخر عن أبي عبيـدةَ أنّ بشـارَ بنَ بردٍ أُنشِـد قولَ الأعشى:

وأنْكَرَتْنِي ومَا كان الذي نَكرَتْ مِنَ الحَوادِثِ إلاّ الشَّيبَ والصَّلعَا

فأنكره، وقال بأنه بيتٌ مصنوع لا يشبه كلامَ الأعشى، و تبيّن لأبي عبيدةَ بعد عشـر سـنين – وكان جالسـا مع يونس الكاتب- أنّ الذي صـنعَ هذا البيت هو أبو عمرو بنُ العلاء، قال يونس:" حدّثني أبو عمرو بن العلاء أنه صنع هذا البيتَ وأدخله في شعر الأعشى"[3].

و مما ورد عن الأصـمعي أنه قال:" أقمت بالمدينة زمانا ما رأيت

---

[1] طبقات ابن سلام.58/1 . والمزهر.144/1 وما بعدها.

[2] الأغاني.93/3.

[3] المصدر نفسه.135/3.

بها قصيدةً واحدة صحيحةً إلاّ مُصَحَّفةً أو مصنوعةً"[4]، وقد شكَّ في قصيدة عنترة " هل غادر الشعراء من متردّم" ودفعها أن تكون له، ورأى أنّ أوّل القصيدة هي :" يا دار عبلة بالجواء تكلّمي"[5].

أما أبو عبيدة فقد شكَّ في قصيدة مالك بن الرَّيب قالها يرثي بها نفسه وهي التي يقول فيها:

أيَا صَاحِبَيْ رَحْلِي دنَا الموتُ فانْزِلا بِرَابِيةٍ إنّي مقيمٌ لَيالِيا

و قال:" الذي قاله ثلاثة عشر بيتا والباقي منحولٌ ولَّدَه النّاس عليه"[6]

كما أنشده أبو عمرو قصيدةً للحارث بن حلزّة ينكر فيها الطَّيرة أولها:

يا أيُّها المُزْمِعُ ثُمَّ انْثَنى لا يُثْنِكَ الحازِي ولا الشَّاحِجُ[1]

فقال في شأنها:" أنشدَنِيها أبو عمرو وليست إلا هذه الأبيات (سبعة أبيات) و الباقي مصنوع"[2].

و لقد أشار عددٌ من العلماء في مصنّفاتهم إلى الانتحال والشّك في نسبة القصائد والأبيات إلى قائليها كالذي نجده في كتاب الحيوان للجاحظ والشعر والشعراء لابن قتيبة وكتاب المعَمَّرين من العرب لأبي حاتم السجستاني، وإنَّ مَن يتصفّح هذه الكتبَ وغيرَها يجدْ مادّةً جمَّة حول هذا الموضوع، ولكنّنا اقتصرنا على الرعيل الأوّل من العلماء الرّواة وفرسانها الذين حازوا قَصَبَ السَّبق فيها.

---

[4] المزهر. 353/2.

[5] الأغاني. 255/9.

[6] المصدر نفسه. 22/ 303.

[1] الحازي: زاجرُ الطير والكاهن، والشاحِجُ: الغراب يشحج صوته.

[2] البيان والتبيين. 303/3.

غير أننا لابدّ أن نشير إلى عَلَمَين في هذا المضمار، نخصّص لها جزءا هاما في هذه الدراسة، والتي تتعلق بالانتحال في الشعر العربي القديم وهما ابن هشام صاحب السيرة وابن سلام صاحب طبقات فحول الشعراء وذلك لأنهما أصبحا فيما بعد ركيزتين هامّتين للعلماء المحدَثين ممن تحدثوا عن الشّك والانتحال في الشعر القديم.

ابن هشام ومنهجه في توثيق وتنقيح شعر السيرة:

لقد كان تأليفُ ابن اسحاق (ت 152هـ أو 153هـ) للسيرة وحشوها بكلّ ما حصل عليه من شعر دون أن يميّز الصّحيحَ من المنحول أمرا أقلق العلماء الثّقات الحريصين على نظافة التراث و صيانته من كل ما يشوب صفوَه وينقص من قدره، بل لم يكن لابن إسحاق عذرٌ في ذلك، خاصة وأن كثيرا من العلماء أشادوا بعلمه وثقافته وحفظه، قال الزهري:" لا يزال بهذه الحرّة(أي المدينة) عِلمٌ مادام بها ذاك الأحول (يريد محمد ابن إسحاق)[1]، وقال أبو جعفر التفيلي:" حدثني عبد الله بن فائد قال: كنا نجلس إلى ابن إسحاق فإذا أخذ في فنٍّ من العلم ذهب المجلس في ذلك الفن"[2] وقد جعله الذّهبيُّ ثقةً لما قد روى له عددٌ من المحدِّثين كالترمذي ومسلم والبخاري وابن ماجة، وكان يقول:" لو كان لي سلطانٌ لأمَّرتُ ابنَ إسحاق على المحدِّثين"[3].

---

[1] ميزان الاعتدال.الذهبي. طبعة الحلبي. 1963. 472/3.

[2] المصدر نفسه. 472/3.

[3] المصدر نفسه. 468/3 – 469.

و لكن رغم هذه الإشـادة إلا أنّه لقي طعونا في أمانته وصـدقه، وقد عَقَد الخطيبُ البغداديُّ في كتابه " تاريخ بغداد" فصـلا عرض فيه تفنيد المطاعن التي حمُلَت عليه[4].

و إذا سلّمنا سلفا بأنه لم يسْلَم أحدٌ من الطّعن، وأنه قد نُفِيَت عن ابن إسـحاق هذه التّهم، إلا أننا مطمئنون إلى أن الرجل كانت تُصـنَع له الأشـعار ويُؤتى بها إليه ويُسْـأل أنْ يُدخِلها في كتابه فيفعل [5]و قد اعترف هو بذلك بأنه لا علمَ له بالشعر و إنما يؤتى به فيحمله[6].

من هـذا المنطلق، عكف ابن هشـام على تصـنيف مؤلَّفه في السـيرة لتنقية واختصـار ما جاء في سـيرة ابن إسـحاق، ونفهم ذلك من مقدمة الكتاب، يقول:" وتاركٌ بعضَ ما ذكره ابنُ إسحاق في هذا الكتاب ممّا ليس لرسـول الله ص فيه ذكرٌ، ولا نزل فيه من القرآن شـيء، وليس سـببا لشيءٍ من هذا الكتاب ولا تفسـيرا له ولا شـاهدا عليه لما ذكرت من الاختصـار، وأشـعارا ذَكَرَها لم أر أحدًا من أهل العلم بالشـعر يعرفها وأشياءً بعضها يَشْنُع الحديث به وبعضٌ يسوء بعضَ النّاس ذكرُه وبعض لم يُقِرَّ لنا البكّائيُّ بروايته ومسـتقصٍ، إن شـاء الله تعالى، ما سـوى ذلك منه بمبْلَغ الرواية له و العلم به"[7].

المنحولة التي لم يعرفها العلماء بالشـعر وكذا الأشـعارَ الرّكيكة

---

[4] ينظر: تاريخ بغداد.الخطيب البغدادي. دار الكتب العلمية. بيروت. (د ت) .215/1 إلى 234.

[5] الفهرست. ص : 136.

[6] طبقات فحول الشعراء. 1/ 07 وما بعدها.

[7] سيرة ابن هشام. تحقيق، طه عبد الرؤوف سعد. دار الجيل. بيروت.(ط1). 1411هـ.109/1 .

الرديئة التي وجد فيها عيوبا شـــعريّة، كما حذف الأشـــعارَ المقذِعة التي ذكر فيها النبي ص وصحابتُه ذكرًا يسيءُ بمقامهم الرفيع، وحذف أشعارا أخرى غايته من وراء هذا الحذف الاختصارَ ليس إلا.

و لمّا كان حديثنا عن الانتحال فإننا سوف نقتصر على آراء ابن هشام حول الأشعار المنحولة و المشكوك في صحتها التي شوّهت سيرة ابن إسحاق.

حذف الأشعار المنحولة:

لقد كان واضحا مما ذكره ابن هشام في مقدمة سيرته أنه ترك الأشعار التي ساقها ابن إسحاق مما لم يعرفه أهل العلم بالشعر، ومن ذلك أنه اكتفى ببيتٍ واحد لخالد بن عبد العُزَّى، وهو:

حَنِقا على سبْطَينِ حلاَّ يثْرِبا أولى لهم بِعقَابِ يومٍ مَفسَدِ

و قد قال معقِّبا على ذلك:" الشعر الذي في هذا البيت مصنوع، فذلك الذي منعنا من إثباته"[1]

و نراه يأخذ عن ابن إسحاق لامية أبي طالب المشهورة في دفاعه عن النبي ص ومدحِه واستعطاف قريش والتي منها البيت المشهور:

وأبيضَ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِوَجْهِهِ رَبيعُ اليتَامى عِصْمةٌ لِلأرامِلِ

ولكنه يثبت منها أربعة وتسـعين بيتا ثم يقول:" هذا ما صـحَّ لي من هذه القصيدة وبعض أهل العلم بالشعر يُنكِر أكثرها"[2].

---

[1] المصدر السابق.1/ 136 .

[2] المصدر نفسه. 116/2. وجاء في المزهر141/1:" وقال محمد بن سلاّم: زاد الناس في قصيدة أبي طالبٍ التي منها:

" وأبيض يُستَسْقى الغمام بوجهه "وطُوِّلت بحيث لا يدرى أين مُنتهاها، وقد سألني

وقد يحذف ابن هشـام أبياتا من القصـيدة بعدما يَثبُت له أنها ليسـت للشـاعر المنسـوبة إليه، ومن ذلك ما فعله بقصـيدةٍ نسَـبها ابن إسـحاق إلى أبي الصِّـلتِ الثَّقفيّ، فعلّق عليها بقوله:"وتُروَى لأميّةَ بن أبي الصِّـلت" ثم قال بعد أن أتى على ذكرها:" هذا ما صـحَّ لي ممّا روى ابن إسحاق منها إلا آخرها بيتا قوله:

تلكَ المَكَارِمُ لا قَعْبَانِ مِن لَبَنٍ شِيْبا بماءٍ فَعَادا بَعْدُ أبْوالا

فإنه للنّابغة الجعدي"[3].

إلا أن صـاحبَ الأغاني وبعد أن يذكر البيتين ينسـبهما لأميّة بن أبي الصِّـلت ثم يقول:" وقيل بل هو للنّابغة الجعدي، وهذا خطأ من قائله، وإنما أدخل النابغةُ البيتَ الثاني من هذه الأبيات في قصـيدةٍ له على جهة التّضمين"[1].

وليس يهمنا بعد هذا الذي ذكرنا إلا أنّ ابن هشـام كان حريصـا على نسـبة الأبيات إلى قائلها فيما أتيح له من البحث والتقصـي وسـؤال

الأصمعيُّ عنها فقلتُ:صحيحة، فقال: أتدري أين منتهاها؟ قلتُ: لا.

- ويُنظر أيضا: طبقات فحول الشعراء.244/1.

[3] المصدر نفسه.188/1.

[1] الأغاني.302/17. والبيتان هما من قصيدةٍ في مدح سيف بن ذي يزن (ت نحو سنة 50 ق.ه)لما ظفر بالحبشة فجاءته الوفود من العرب إلى قصرٍ يقال له غمدان، فهنّأته بذلك، وهما:

واشْربْ هَنِيئاً عَليكَ التّاجُ مُرْتفِقا في رأسِ غُمدانَ داراً منكَ مِحْلالا

تلكَ المكارِمُ لا قَعْبان مِن لَبَنٍ شِيبَا بماءٍ فعادا بعدُ أبْوالا

(قعبان: مفرد قعب وهو الدلو الكبيرة، شيبا: خلطا) وعدد هذه الأبيات في الأغاني تسعة، 313/17 .

أهل العلم بالشعر.

التنبيه على الأشعار المشكوك في صحتها :

لقد بذل ابن هشام جَهدا لا نَسِمه إلا بأنه جهدُ العالم المحقِّق ذي النظرة الثاقبة المتبصَّرة، فهو مع حذفه للأبيات التي وجد- بعد التحري- أنها لا تحمل وجها من وجوه الصّحة نراه يدلِّل على بعض الأشعار والقصائد المشكوك في صحتها إمّا بقوله:" وأكثر أهلِ العلم ينكرها" .

و هاتان الجملتان وما شابههما [2] لَدليلٌ واضح على أنّ الرجل بحّاثةٌ، يسأل أهل العلم ويلجأ إليهم، لا يريد بذلك إلا أن يكون صادقا قدرَ المستطاع ومحققا قدر الممكن، ومن يطَّلع على السيرة فسوف يلاحظ هذا دون شكّ.

و ممن شكّ في نسبة بعض الأشعار والأبيات والقصائد إليهم نذكر سيفَ بن ذي يَزَن [3] وأبا طالب [4]وأبا بكر الصديقَ[5] وعبدَ الله بنَ الزّبعري[6]وسعدَ بن أبي وقاص[7] وحمزةَ[8]وأبا جهلٍ[9]ومالكاً بنَ

---

[2] من هذه التعليقات:" وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها" و " ينكر هذه القصيدة" و " ينكر هذا الشعر" و " ينكر هذه الأبيات" و " يشكّ فيها له.." الخ.

[3] السيرة.186/1.

[4] نفسه. 116/2.

[5] نفسه. 137/3.

[6] نفسه. 139/3- 84/5.

[7] نفسه. 139/3.

[8] نفسه . 140/3-277/3.

[9] نفسه. 142/3.

الدّخشم[10] ومكــرزا[11] وعبيــدةَ بن الحارث[12] ،وضرارا بنَ الخطّاب[1] والحارثَ بن هشــام [2] وهندا بنتَ عتبة[3] وحسّــان بن ثابت[4] وميمونة بنت عبد الله[5] وعليًّا بنَ أبي طالب[6] وعمروا بن العاص[7] وخبيب بن عديّ[8]ومســافع بن عبد مناف[9]وفتى من بني جذيمة[10] والزبرقان بن بدر[11] وهندا بنت أثاثة[12].

التحقيق وإضافة الأشعارونقدها:

لم يكتف ابن هشام في سيرته بحذف الأشعار المنحولة والتنبيه

---

[10] نفسه. 200/3.

[11] نفسه. 201/3.

[12] نفسه. 291/3.

[1] المصدر السابق.295/3-4-97/4-118.

[2] نفسه. 296/3.

[3] نفسه. 305/3 و 306-4/121.

[4] نفسه. 320/3-4/109 و 136و 230.

[5] نفسه. 320/3.

[6] نفسه. 84/4 .وهو النص الوحيد الذي توجد فيه كلمة"يشك" بدل "ينكر".

[7] نفسه. 102/4.

[8] نفسه. 130/4.

[9] نفسه. 229/4.

[10] نفسه. 101/5.

[11] نفسه. 5/ 254.

[12] نفسه. 308/3 .

على الأشـعار المشـكوك في صحتها فحسـب، بل نراه يأخذ بُعدا آخر من التّحقيق والتّمحيص والإضـافـات إلى النّص من طرق أخرى، فهو مع ذكره- مثلا- لقصيدة كعب بن زهير المشهورة التي أوردها ابن إسحاق في سيرته والتي مطلعها:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليومَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ

نراه يجري بعض التّعديلات والإضـافات بعد الانتهاء من ذكرها من مثل:" و بيته:" حرفٌ أخوها أبوها..." وبيته:" يمشـي القراد..." وبيته:" عَيرانَة قُذِفَت..." وبيته:" ولا يزال بواديه..." عن غير ابن إسحاق"[13].

وقد دلّت جملةُ " عن غير ابن إسـحاق" أنها لم تَرِد في سـيرته، كما أنّنا لم نعثر على هذه الأبيات في الكتاب.

وكان ابن هشـام يعتمد على العلماء من أهل الشـعر في توثيق الأشعار التي ذكرها ابن إسحاق ومن هؤلاء العلماء نذكر خَلَفاً الأحمرَ وأبا عُبيْدة وأبا زيدٍ الأنصاريَّ.ومن ذلك قوله:" أنشـدَني أبو عبيدة: أرجو فواضلَه[1] وحُسْنَ ثنائها" بَدَل أرجو فواضلها وحسن ثرائها.وقوله:" هذه الرواية لهذا الشـعر مختلطة ليست بصحيحةِ البناء، لكن أنشـدني أبو محرز خلفٌ الأحمر وغيره..."[2].

وقد يصـبح ابن هشـام في بعض المرّات ناقدا، فيعطي رأيه في الأبيات أو القصـيدة كما هو الحال في القول السـابق حين رأى أن هذه

---

[13] نفسه. 135/5، وقد ذُكرت جملةُ " عن غير ابن إسحاق" 38 مرة خمس منها في الروايات والأخبار، و أما الباقية فمتعلّقة بالشعر.

[1] المصدر السابق.280/5.

[2] نفسه.300/3.

الرواية للشـعر مختلطةٌ وليسـت بصحيحة ونراه يعلِّق على ما ارتجز به المسلمون في بنائهم لمسجد المدينة:

لا عَيشَ إلاّ عيشَ الآخِرهْ اللّهمَّ ارحَمِ الأنصارَ والمَهاجِرهْ

بقوله:" هذا كلامٌ وليس برجز"[3] .

من خلال ما عرضـنا له من هذه الأمثلة والشـواهد القليلة يتوضح لنا أنّ ابن هشام كان عالما مُلِمًّا بآداب العرب وأشعارهم، مُتذوقا إلى درجة رفيعة كأقرانه الذين بَنَوا على عواتقهم مجدَ وتراث هذه الأمة، من أجل أن يوصـلوا إلينا هذا التراث صـحيحا غيرَ زائف، صـادقا غير كاذب، نقيًّا غير مشوب بالنقائص التي تشينه، وحسبُ الرّجل أنه اجتهد في عمله، وناهيك عن هذا الاجتهاد دلالةً على حسـن السّـريرة وصـفاء الذهن وذكاء العقل وطهارة القلب.

ابن سلام و آراؤه حول قضية الانتحال:

لقد يُعدُّ ابن سـلاّم الجمحي أولَّ من تحدث في قضـية الانتحال في الشـعر العربي القديم، وحدد أسـبابه ودوافعه وأعطى الأمثلة والأدلة والبراهين لإثبـات آرائـه، ممـا جعـل كثيرا من الـدارسـين من العرب و المسـتشـرقين يَلِجون هذا الباب ويفتحونه على مصـراعيه من أجل إعادة دراسـته ونفض التراب عنه، مخلصـين كانوا في دعواهم أو متحاملين متعصبين.

عـاش ابن سـلام في القرنين الثاني والثالث للهجرة ممـا جعله يُفِيد من كثيرٍ من العلماء والرواة المشـهورين من أصـحاب جيله كأبي

---

[3] نفسه.25/3.

عبيدة وخلف الأحمر وأبي زيد الأنصـاري والأصـمعي وغيرهم، كما أخذ عنه الرّياشـيُّ والزياديُّ والمازني وغيرهم من العلماء، وروى عنه الإمامُ أحمد بن حنبل وأبو العباس ثعلب وأحمد بن علي الأبّارُ[1] .

ألَّف ابن سلام كتابه المشهور" طبقات فحول الشعراء" وضمَّنه فكرةَ انتحال الشعر ووضعه وأنّ منه الموضوع الذي لا خير فيه، وقال في مقدمة كتابه:" و في الشـعر مصـنوعٌ مُفتَعلٌ موضـوعٌ كثير لا خير فيه ولا حجَّةَ في عربيّته ولا أدبَ يُسـتفاد ولا معنى يُسـتخرَج ولا مثلَ يُضـرَب ولا مديحَ رائع ولا هجاءَ مُقذِع ولا فخرَ مُعجِب ولا نَسِـيبَ مُسـتطرَف، وقد تداوله قومٌ من كتابٍ إلى كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية ولم يعرضـوه على العلماء. وليس لأحدٍ، إذا أجمع أهلُ العلم والرواية الصـحيحة على إبطال شيء منه، أن يُقبل من صحيفةٍ، ولا يُروى عن صِحَفيٍّ"[2].

في هذه القطعة يبيّن ابن سـلام أنّ كثيرا من الشـعر موضـوعٌ منتحل، ثم يأتي إلى أمارات الانتحال فيه، معطيا لنا اسـتنتاجا نخلص إليه مفاده أنّ الشعر الصحيح- في نظره- هو الشعرُ الذي فيه الخيرُ كلُّه وحجّته في العربية واضـحة، وفيه أدبٌ يسـتفاد ومعنى يسـتخرج ومثلٌ يُضـرب ومدحٌ رائع وهجاءٌ مقذع وفخرٌ معجب ونسـيبٌ مسـتطرف، لم يُتداوَل من كتاب إلى كتاب و إنما أُخِذ عن أهل البادية وعُرِض على العلماء، ولا يؤخذ من صحيفة ولا يروى عن صحفي.

لقد يظهر من مقدمة ابن سـلام هذه أنّ كلامه هذا إنما هو صـادرٌ عن اقتناعٍ وفهمٍ وممارسـةٍ ودراية، وأنه قد اعتمد" أسـلوبا

---

[1] ميزان الاعتدال. الذهبي. 567/3 .

[2] طبقات ابن سلام. 04/1 .

استفزازيا جريئا لا صلة له في الغالب بالمروِيّ أو النّقلي قدر ما هو وثيق الصّلة بكل ما هو عقلي استنباطي جدلي"[3]، وهو بهذه المقدمة يعطي مفهومه ونظرته إلى الشعر وتعريفه، وإلى موضوعاته ومدى صحّته وشدّة أسره.

أرجع ابن سلام الانتحال في الشعر العربي القديم إلى عاملين رئيسيين هما العصبيّةُ القبَلِيّة والرواة الوضّاعين، يقول:" فلما راجعت العربُ روايةَ الشعر وذِكرَ أيامها ومآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قومٌ قَلَّت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحَقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسنة شعرائهم، ثم كانت الرواة بعدُ فزادوا في الأشعار"[1].

ابن سلام في قوله هذا يذكر أن الشعر القديم دخله كثيرٌ من الوضع وذلك أن القبائل زادت فيه على ألسن شعرائها وقَوَّلتهم ما لم يقولوا، وذلك رَفعا لعصبيّتهم وتفاخرهم فيما بينهم، ثم جاء الرواة الوضاعون فزادوا في الأشعار ونحلوها من لم يقلها أصلا.

وهو في كتابه هذا يعرض لنا بالشاهد والدّليل على ما ذكر، ومنه أن قريشا أضافت إلى شعرائها كثيرا مما ليس منهم، فقد أضافت إلى حسان بن ثابت شعرا:" وحُمِل عليه ما لم يُحمَل على أحد، لما تعاضهت قريش واستبّت وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تُنَقّى"[2] وطوّلوا

---

[3] التأصيل الإجرائي لمفهوم الشعر عند ابن سلام - دراسة- أ. مسلك ميمون. مجلة " عالم الفكر". الكويت. العدد (1) المجلد. 30

[1] طبقات ابن سلام. 1/ 46 .

[2] المصدر نفسه. 215/1 .

في قصيدة أبي طالب بن عبد المطّلب في مدح الرسول ص حتى لم يعودوا يعرفون أين منتهاها[3].

وهو يذكر أيضا أنّ عَدِيّ بنَ زيد كان يسكن الحيرة وأنّ لسانَه قد سَهُل منطِقُه لِتَحَضُّره " فحُمِل عليه شيءٌ كثير وتخليصُه شديد، و اضطرب فيه خلف الأحمر، وخلط فيه المُفضّل فأكثر"[4].

وقُلِ الشيء نفسَه حين عرض في الحديث عن طرفة وعبيد و ذكر أنهما نُحِلا من القول ما لم يقولاه، وحُمِل عليهما حملٌ كثير لأنهما كانا أقدمَ الفحول عصرا، وشعرهما بين أيدي النّاس قليل[5].

ولاحظ ابن سلام إلى أبناء الشعراء وتزيّدهم في أشعار آبائهم كالذي ذكرناه سابقا حين قدِم أبو عبيدة إلى داود بن متمِّم بن نُوَيرة وسأله عن شعر أبيه فأنشده منه، فلما نفذ أخذ يزيد في الأشعار ويضعها، وإذا هو كلامٌ دون كلامِ مُتمم، فعلم أنه ينتحله[6].

ولم يكن هذا الشعر المصنوع بخافٍ على العلماء المحقّقين، بل إنهم رفضوا جملةً منه وعملوا على تحقيقه وتخليصه مما يشوبه من كذبٍ وزيف، ولذلك أقرّ ابن سلام بأنه " وليس يَشْكُل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولَّدون، وإنما عَضُل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم، فيشكل ذلك بعض الإشكال"[1].

---

[3] المصدر نفسه. 244/1.

[4] نفسه. 140/1.

[5] نفسه. 26/1 .

[6] نفسه. 48/1-49.

[1] المصدر السابق. 46/1-47 . (عَضُلَ: اشتدّ وعَسُر) .

إذن لقد كان العلماء الرواة المحققون يستطيعون أن يميّزوا الصحيحَ من المصنوع، والأصيلَ من المقلَّد، خاصة وإنْ كان الوضّاع قليلَ الخبرة والدُّربة في صناعة الشعر، ولكن قد يعسُر التحقيق حين يكون الوضع من الرواة الوضّاعين أنفسهم، أو من الأعراب الضّاربين في الصحراء مِمَّن يسهل عليهم قرظ الشعر، حتى إنّ الخليل بن أحمد الفراهيديَّ أحسَّ بهذا منذ زمن بعيد حين قال: " إنّ النّحاريرَ ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادةَ اللّبس والتعنيت"[2].

وإن كان كلام الخليل مقتصرا على الوضع في اللغة مما ليس من "كلام العرب" فإننا نستنتج من وراء ذلك أن النّحارير من علماء الشعر الوضاعين ربما أدخلوا على الناس ما ليس من الشعر الصحيح.

ولقد نبّه ابن سلام على الرواة الوضّاعين الكذّابين الذين يزيدون في الأشعار من مثل حماد الراوية حيث رفض ما رواه وحذّر منه،وقال:" كان أولَ من جمع أشعار العرب وساق أحاديثَها حمادُ الراوية وكان غيرَ موثوقٍ به، وكان يَنْحَل شعرَ الرجل غيرَه ويُنحله غيَر شعره، ويزيد في الأشعار "[3]

و قريب من هذا ما ذكره المفضل الضبي عن حماد الراوية حيث كان كثير الطّعن عليه[4].قال المفضل الضبي :" قد سُلِّط على الشعر من

---

[2] المزهر للسيوطي. 135/1.

[3]طبقات ابن سلام. 48/1 .

[4] إن المتتبع لآراء القدماء في موضوع الانتحال لَيرى جانبا كبيرا من الطعن في الرواة ثقاتٍ كانوا أو وضّاعين، ويرى أيضا كثيرا من الدسائس والأخبار التي يرمون بها بغرض التشويه والنقص والحطّ من راوٍ بعينه، ولكننا مطمئنون إلى أن نسبةً كبيرة من هذه الطعون إنما تعود إلى المنافسة والخصومة بين الرواة في مدرستي البصرة

حماد الراوية ما أفسدَه فلا يصلح أبدا. فقيل له: كيف ذلك؟ أيخطئ في روايته أم يَلْحَن؟ قال: ليته كان كذلك... ولكنه عالمٌ بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعرَ يُشبه به مذهبَ رجل ويدخله في شعره ويُحمَل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميّز الصّحيح منها إلاّ عند عالمٍ ناقد وأين ذلكا؟ "[1]

ومن خلال تعجّب المفضل الأخير يتبين لنا مدى صعوبة تحقيق الشعر وتبيين منحوله، خاصة وإن كان من تلفيق رواة محترفين كحماد الرواية وغيره من فحول الرواية في مدرستي البصرة و الكوفة.

وإن كان خطر هؤلاء الرواة الوضاعين في الشعر كبيرا. فإنّ ابن سلام نبّه عن خطر آخر لا يقلّ أهمية عن الأول، وهو خطر القصّاصين ورواة السّيَر والمغازي، ذلك أنهم يحملون الشعر الموضوع عن غفلة وقلّة دراية وتثبّت، وأشار إلى ابن إسحاق صاحب السيرة، فذكر بأنه أفسد الشعر وهجّنه وحمل كلّ غُثاء منه وأورد أشعار النساء والرجال القدامى من عهد عاد وثمود والعماليق دون الرجوع إلى العلماء، وكان

والكوفة، وإلى مصادرِ كلِّ فريقٍ مع اختلاف المنهج، ففي حين يتوسع الكوفيون في الرواية والأخذ بالشاذ في اللغة نرى البصريين يضيّقون من ذلك، وحريٌّ إلى من يطّلع إلى كتب القدامى أن يتبين مدى هذه الخصومات ففي حين يشتهر رواية وضّاع مُتَّهمٌ بالكذب في الكوفة وهو حمّاد الراوية، نجد وبالنقيض شيخا من شيوخ الرواية ورأسا من رؤوس البصرة يُتَّهم بالتهمة نفسِها وهو خلف الأحمر الذي

قيل إنه وضع لامية العرب على الشنفرى، والحق أنه لا يجب أن نأخذ بكل ما يقوله الرواة بعضهم عن بعض بدافع الحسد أو الغيرة، وأن نقول أيضا بقول منصفهم بأن" المعاصرَة حِجاب"

[1] الأغاني. 99/6 .

يعتذر من هذه الأشـــعار التي تُحمل إليه، ويُســـأل أن يُدخلها في ســـيرته فيفعل بقوله: لا علمَ لي بالشعر أوتَى به فأحمله، ويُعقِّب ابن سلام عليه بقوله:" ولم يكن ذلك له عذرا"[2].

ونجده يقول في معرض حديثه عن شعر أبي سفيان بن الحارث الذي قاله في الجاهلية:" فســقط (أي شــعره) ولم يصــل إلينا منه إلاّ القليل، ولسنا نَعُدُّ ما يروي ابن إسحاق له و لا لغيره شعرا، ولَأنْ لا يكون لهم شعرٌ أحسن من أنْ يكون ذاك لهم" [3]

ومع يقين ابن سـلام في أن كثيرا من الشـعر موضـوع منحول لا صـحّة له، إلا أنه يطمئن إلى الأشـعار التي حقّقها أهلُ العلم والدراية في الرواية، وأننا لابدّ أن نثق بهؤلاء العلماء الرواة الثقات لنقبل الذي قبلوه ونرفض ما رفضـوه.قال:"وقد اختلف العلماء بعدُ في بعض الشـعر كما اختلفت في بعض الأشـياء، فأمّا ما اتّفقوا عليه فليس لأحد أنْ يخرج عنه"[4].

والرجل محقٌّ في ما ذهب إليه، ذلك أن هؤلاء العلماء الثقات كانوا قريبي عهدٍ بزمن إنتاج هذا الشعر وهم الذين قاموا بروايته وجمعه وتدوينه، وكانوا على صـلة بالجاهلين أو بالذين عرفوا الجاهليين وكانت تجمعهم صلة بهم.

وإنْ كان هذا الذي عرَضـناه يمثّل نظرةَ القدامى لقضـيّة

---

[2] طبقات ابن سلام. 7/1 وما بعدها .

[3] المصدر نفسه. 1/ 277 .

[4] المصدر نفسه. 1/ 07 .

الانتحال، إلاّ أنّ القضـيّةَ قد عاودَت الظّهور في العصـر الحديث على يد المستشرقين والعرب،وهذا ما سنتحدّث عنه في الفصل اللاّحق.

الفصل الثالث

الانتحال في الشعر العربي القديم عند المحدَثين:

ا- آراء المستشرقين:

البحث في صحة الشعر العربي القديم قضية قديمة قدم الشعر نفسه، تناولها العرب القدامى كما بيّنّا في الفصل السابق، غير أن القضية عاودت الرجوع بقوة في القرن التاسع عشر حين أكبّ العلماء من المشارقة والمستشرقين [1] في البحث.

وقد كان المستشرق " نولدكه" أول من تناول الموضوع سنة 1864م وبعد ثماني سنين اهتم المستشرق" آهلوارد" بالمسألة دون أن يجدّد فيها، إلاّ أنه عرض الموضوع بدقة لم يسبقها إليه أحد، وراح

---

[1]– يراد بالاستشراق اليومَ دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره، ولكنه في العصور الوسطى كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين، ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم، إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغمورا بما تشعه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدنيّة والعلم، كان الغرب من بحره إلى محيطه يَغْمَه في غياهبَ من الجهل الكثيف والبربرية الجموح.

وعلى هذا فقد أسست جمعيات لتشجيع الدراسات الشرقية في إنجلترا وفرنسا، أمريكا، روسيا، النمسا، إيطاليا، بلجيكا، هولندا، الدنمارك...

* بتصرف من: تاريخ الأدب العربي.أحمد حسن الزيات.دار الثقافة.بيروت.ط:28.1978.ص:591 وما بعدها.

يعيد لنا تلك الشـروط الضـعيفة التي ذاع فيها الشـعر الجاهلي قبل التدوين واصـفا المبدأ الآتي:" إن القصـائد المروية غير موثوق بصـحتها سواء من ناحية المؤلف أو ظروف النظم أو ترتيب الأبيات، فمن الواجب والحال هذه، إخضاع كل أثر من القرن السادس وأوائل السابع لفحص دقيق قبل قبوله"[2].

وقد تابع العلماء أمثال مويروباسـيه وليال وبروكلمان طوال ثلاثين سـنة المسـتشـرقَين نولدكهوآهلوارد في موقفهما الحذر من الشعر الجاهلي .

ولكن الموضـوع بقي يراوح مكانه إلى اليوم الذي نشـر فيه المسـتشـرق الإنجليزي مرجليوث[3]بحثه في قضـية الشـعر الجاهلي سـنة 1925

---

[2] – تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 182/1 .

[3] – ولد مرجليوث في عام 1858م، وعاش اثنين وثمانين عاما، إذ توفّي في عام 1940 م وقد درس في جامعة إكسفورد الآدابَ الكلاسيكية اليونانية واللاّتينية، ثم انتقل إلى دراسة اللغات السامية. وقد بدأ نشاطه العلمي عام 1887م بإظهار ترجمة " متّى بن يونس" لكتاب " فن الشعر " لأرسطو وعُيّن بعد ذلك في عام 1889م أستاذاً بالجامعة التي تخرّج منها، وتوالت بحوثه ومؤلفاته منذ ذلك التاريخ، فكتب بحثا عام 1893م عن أوراق البردى

العربية في مكتبة " بودلي" بأكسفورد، وترجم في السنة الثالثة جزءاً من تفسير البيضاوي إلى الإنجليزية، كذلك ترجم في عام 1920 جزءا من كتاب" تجارب الأمم" لمسكويه، ثم نشر رسائل أبي العلاء المعرّي عام 1898 م و" معجم الأدباء " لياقوت الحَمَوي في الفترة من عام 1907 م إلى عام 1927، و " نشوار المحاضرة" للتنّوخي عام 1921، وله عددٌ كبير من التحقيقات والبحوث والتراجم.

- ينظر: المستشرقون. نجيب العقيقي. دار المعارف. مصر. (د ت) 518/2.

بعنوان" أصـول الشـعر العربي" The Oringins of Arabic " Portry" في مجلـة الجمعيـة الملكيـة الآسـيويـة" Journal of The Royal Asiatic Society" حيث رأى أن هذا الشـعر المنسـوب إلى الجاهلية ليس من الجاهلية في شـيء، إنما هو شـعر نظم في العصـور الإسـلامية ثم نحله الرواة الوضاعون لشعراء جاهليين.

ونحاول الآن، أن نعرض لأهم الآراء التي أثارها، وما مدى صـحتها أو خطئها، وإلى أيّ مدى اعتمد على قواعد المنهج العلمي الصحيح؟.

بدأ مرجليوث شـكّه على أسـاسـين بنى دراسـته عليهما، وأول هذين الأساسين هو: **الأدلة الخارجية**،حيث استدل بالقرآن الكريم على وجود شـعراء جاهليين، فقال: " إن وجود شـعراء في بلاد العرب قبل الإسلام أمر شهد به القرآن، إذ أن فيه سورة واحدة باسمهم".[1]

ثم إنه سـوّى بين الكاهن والمجنون والشـاعر اسـتنادا إلى قوله تعالى:﴿**فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ {29} أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ**﴾[2]

واسـتنتج مرجليوث أن الشـعراء كانوا يتنبئون بالغيب، وأن الكاهن هو الذي يأتيه الرئيّ (Yoyant) من الجن بالكلمة التي يتلقاها من السماء، وأن المجنون هو الذي يتخبّطه الشيطان من المسّ، غير أن فهم مرجليوث على أن الشـاعر يتنبأ بالغيب إنما جاء من اسـتنتاجٍ خاطئ في فهم آيات من سورة الشعراء، وهي قوله تعالى:﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّـيَـاطِينُ {221} تَنَزَّلُ عَلَى كُـلِّ أَفَّـاكٍ أَثِيمٍ {222} يُلْقُونَ السَّـمْعَ**

---

[1] مصادر الشعر الجاهلي. ناصر الأسد. ص: 353 .

[2] سورة الطور. الآية: 29 -30 .

وَ أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾[3].

غير أن المقصود من الآية هم الكهان لا الشعراء، فقد روى البخاري عن عائشة (ض) قالت: " سأل ناسٌ النبي ص عن الكهان، فقال: إنهم ليسوا بشيء، قالوا: يا رسول الله: فإنهم يحدِّثون بالشيء يكون حقا، فقال النبي ﷺ: تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرؤها في أذن وليِّه كقرقرة الدجاج، فيخلطون معها أكثر من مِائة كذبة" [4].

ومن هذا الحديث يتبين لنا الخطأ الذي وقع فيه مرجليوث، حيث إن الشاعر ليس هو الأفّاك الأثيم، وليس هو الذي تنزل عليه الشياطين، ولا يعلم الغيب، وبالرغم من أن الرجل عالم بما يقول إلا أنه لن يأتيَ ليبين لنا نحن- المسلمين- الذين نتقن فهمَ اللغة العربية ما الذي ترمي إليه هذه الآيات، وقد تكلم فيها المفسدون فأفاضوا وشرحوا وبينوا كل مستغلق.

ولقد مضى مرجليوث محاولا استخراج ما في القرآن من حقائقَ تدور حول الشعر الجاهلي واعتمد على قوله تعالى:﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَايَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌوَقُرْآنٌ مُّبِينٌ**﴾[5]في الحكم بأنّ الشعر الجاهليَّ كان،ذلك الوقت، غامضا مُبهَما غيرَ مُبين، معتقدا أن القرآن إذا كان كلاما مبينا فإنّ الشعر- على حسب ما فهِم من الآية السابقة – كلامٌ غيرُ مبين، غير أنّ الذي يردُّ قولَه هذا هو أن القرآن ذكر هذا الوصف " أي

---

[3] سورة الشعراء. الآية 221- 223 .

[4] تيسير العليّ القدير لاختصار تفسير ابن كثير. محمد نسيب الرفاعي. دار بيروت. 1972. 227/3 .

[5] سورة يس. الآية:69.

مُبين "عشـــرات المرّات، بعبارة:"قرآن أو كتاب مبين " دون أنْ يكون ذكرٌ للشّـــعر في هذه الآيات، كما أنّ كلمة " مبين " ذُكِرت في القرآن وصـــفاً لكلماتٍ موصوفة مثل:" سحر- ضلال – عدوّ – نذير – بلاغ – خسران – ثعبان..." وغيرها من الموصوفات.

وعلى أســـاس الفهم الســـابق على أن الشـــاعر هو الأفّاك الأثيم، راح مرجليوث يســـتنتج من قوله تعالى:﴿**وَالشُّـــعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ {224} أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ {225} وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ {226} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَ انتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾[1]أنّ الاستثناء لا ينطبق على الشعراء، مع أنّ المفسّرين العرب- الذين يتقنون فهمَ لغتهم- اتّفقوا على أنّ هذا الاســـتثناء يدخل فيه كلُّ شـــاعر مؤمن، وقد كان حسّـــان بن ثابت شـــاعرَ الرســـول ص وكذا كان كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وقد ثبت في الصّـحيح أنّ رســـول الله ص قال لحسّـــان: " اُهْجُهُم، أو قال: هاجِهِم وجبريل معك" وروى الإمام أحمد عن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ص: إن الله عز وجلّ قد أنزل في الشـــعراء ما أنزل، فقال رســـول الله ص: إن المؤمن يجاهد بســـيفه ولســـانه، والذي نفسي بيده لَكأنَّ ما ترمونهم به نَضْحُ النَّبْل"[2].

ثم يعرض مرجليوث ما ســـمّاه مُعضـــلةً حيث يقول:" ويؤكد القرآن في موضـع آخر أن لغتَه ليســت لغة شـاعر بل لغة رســول كريم، وأنّ الله لم يعلّمه الشـــعرَ لأنه لا فائدةَ له فيه، وأنّ كلامَه تبليغٌ وعظةٌ

---

[1] سورة الشعراء. الآية: 224- 227 .

[2] تيسير العلي القدير. محمد نسيب. 228/3 .

بيّنة، ومن ثمَّ فعلينا أن نستنتج من ذلك أنّ الشعر كان غامضا مُغْلَقا"[3].

وهو يعرض المعضلة في أن الرسول ص لم يكن يعلم الشعر ولا ينبغي له، وأن أهل مكة من المشركين، والذين كانوا من المفروض أنهم يعرفون صناعة الشعر والقريض ويسمعونه سمَّوا محمّدا شاعرا، وأنّ الكلام الذي يدَّعِي أنه وحيٌ من السماء إنما هو شعر، فإنْ كان هذا والحالُ هذه فإننا نقع في حيرة. غير أن مرجليوث تناسى أنه ما من عربي إلاّ ويعرف الشعر ويسمعه ويتمثّل به، ولكن الرسول ص لم يكن يقول الشعر، وهذا فرقٌ شاسعٌ بين المعنيَين، خاصة وأنّ الكفار- وهم يعرفون صناعة الشعر كما ذكرنا- إنما أصدروا حكمهم على محمد ص وعلى القرآن بغرضِ التّمويه وصرف النظر عن هذا الكلام الربّاني المعجِز.

وقد نقل مرجليوث عن السيوطي من كتابه المزهر قولا منسوبا إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (ض) يقول فيه:" كان الشعرُ علمَ قومٍ، ولم يكن لهم علمٌ أصحَّ منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العربُ بالجهاد وغزو فارسَ والروم، ولَهَت عن الشعر وروايته، فلم يؤولوا إلى ديوانٍ مدوَّن ولا كتابٍ مكتوب، وألِفُوا ذلك. وقد هلَك من العرب مَن هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلَّ ذلك وذهب عنهم أكثرُه"[1].

غير أنّ مرجليوث نفى أن يكون هذا الكلامُ منسوبا إلى

---

[3] الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية. إبراهيم محمد. ص: 66 .

وظاهر أن مرجليوث استدلّ قوله هذا من سورة الحاقة (40-42): " إنّه لقولُ رسولٍ كريم، وما هو بقولِ شاعرٍ قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهنٍ قليلا ما تذّكّرون" وقوله تعالى في سورة يس (69): " وما علّمناه الشعرَ وما ينبغي له".

[1] المزهر السيوطي 196/1.

عمر(ض)، ذلك أنّ الاستقرار عُرِف فقط في أثناء الدولة الأمويّة، وذلك بحجة أنه يريد أن تكون بداية الشعر العربي مع بداية الخلافة الأموية، بل إن الرجل يريد أن ينفيَ هذه الكثرة التي بين أيدينا من الشعر الجاهلي على الرغم من أنّ ابن سلام نقل عن يونس بن حبيب أنه قال:" قال أبو عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم ممّا قالتِ العربُ إلا أقلَّه، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علمٌ وشعرٌ كثير"[2].

وهو تبَعا لعصبيّته راح يشكِّك بسخرية أن العرب كانوا- بسبب هذا الكمّ الهائل من الشعر- " مجتمعا أدبيا راقيا لم تستطع بلادُ الإغريق أن تقدِّم لنا عددا مثلَ هذا من عَبَدَة فنّ الشعر"[3]. ولو أنّ مرجليوث عَلِم حقا، أنّ الشعر كان ديوانَ العرب ومنتهى علمِهم وحياتهم لكبح نفسه عن قول هذا.

ثم إن مرجليوث انساق وراء طرحٍ آخرَ متمثّل في الشكّ حول إمكانيّة وجود رواية للشعر الجاهلي وكذا روّاته الذين إما أنهم قتلوا أو ماتوا، وأنه إذا كانت الرواية الشفهية هي التي حفظت الشعر القديم، فإن ذلك" ما كان لِيَتِمَّ لولا وجودُ أفرادٍ حِرفتُهم حفظها في الذاكرة وروايتُها للآخرين، وليس لدينا ما يدعو إلى الظّن بأنّ حرفةً كهذه قد وُجِدت أو ظلَّت باقيةً إبّان العُقود الأولى للإسلام (الإسلام يَجُبُّ ما قبله)، وقد نصَّ القرآن على أن هؤلاء الذين يتبعون الشعراء هم غواةٌ مثلَهم، ولغته فيهم قاسيةٌ ومحقِّرة لهم، فهناك، إذن سببٌ قويٌّ يدعو

---

[2] طبقات فحول الشعراء. ابن سلام. 25/1.

[3] مصادر الشعر الجاهلي ناصر الدين الأسد. ص: 356 .

إلى نسيان الشعر الجاهلي إذا كان قد وُجِد أيُّ شعرٍ جاهلي!"[4] .

وظاهر من أنّ مرجليوث يقصد من خلال قوله السابق" الذين يتبعون الشعراء" الرواةَ الذين ينكر وجودهم، وكأنّه يتناسى دورَ الرواية والرّواة في حفظ الشعر، وأنه قد وُجِدت مدارس لرواية الشعر كان أشهرَها المدرسةُ الأوسية، والتي سمَّى الأصمعيُّ روّاتها بعبيد الشعر.

ويذكر مصطفى هدّارة بأن " الأقرب إلى التصور أن يكون هؤلاء الغُواة هم الأعرابَ الذين يجتمعون إلى شعراء قريش المشركين يستمعون أشعارَهم وأهاجِيَهم في الرسول ورسالته"[1].

وبعد هذا الحديث عن الرواية، ذهب مرجليوث إلى أنّ تدوين الشعر الجاهلي أمرٌ يتعارض مع القرآن، إذ أنّ القرآن يسأل أهلَ مكّة:﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾[2].ويسأل الكفار المشركين:﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾[3].

والأمر، هنا، يبدو غريبا من عالمٍ في حَجم مرجليوث، إذ كيف يمكن أن يكون العربُ جاهلين للكتابة بسبب أنّهم لم يكونوا أصحابَ كتابٍ سماوي كما اليهودُ والنصارى، وهو يذهب إلى أنّ الشعرَ الذي وصل إلينا، ويزعمون أنّه جاهلي، إنما هو مرحلةٌ تاليةٌ للقرآن الكريم لا سابقة عليه، ذلك أنّ الفنونَ الأدبيَّة سواءً النثر المسجوع أو الشعر فيها تشابه

---

[4] الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية. إبراهيم عبد الرحمن. ص: 68 .

[1] دراسات في الشعر العربي. مصطفى هدارة. دار المعرفة الجامعية. القاهرة. 1981. 57/1.

[2] سورة القلم. الآية: 37.

[3] سورة القلم. الآية: 47.

مع أسلوب القرآن، وإنّ القرآن يحوي نثرا مسجوعا، وفيه أيضا أمثلةٌ على أوزان شعرية، ولذلك فإنّ النّثر والشعر العربيّين جاءا على نسَق القرآن الكريم لا قبلَه.

والظاهر أنّنا نقف مدهوشين لهذا الكلام، لأننا، ومن أقرب طريق، لَنقتَنِع، إنْ نحن صدّقنا نظرتَ هذه، بتكذيب جحافل الرّواة الثّقات من علماء العربية كأبي عمرو بن العلاء، والأصمعي، والمفضّل الضّبي، وأنّ ما نقلوه من شعر الأوّلين كان كِذبةً وجهلا مضحِكَين!، ولا نزيد في القول، بعد هذا، إلاّ أنّ مرجليوث قد خرج متسلِّلا لوحده في هذه النظرة.

ولكي يصل مرجليوث إلى تكذيب جحافل الرواة الثقات رمى سهما أخيرا من أدلته الخارجية، وهو أنه جمع الأخبار و الروايات التي ذكرها الرواة في قدح بعضهم بعضا، فنراه يطعن في حماد الراوية وجنّاد وخلف الأحمر والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء وأبي عمرو الشّيباني وابن إسحاق والمبرّد، وهو يتساءل عن مصادر هؤلاء الرواة إذا كان الإسلام قد حارب الوثنية العربية وأبطل نظامها وطمس معالمها وناصب دعاتها الحرب. " فإذا كان الشعراء هم لسانَ الوثنية النّاطق، فمن هم أولئك الذين حفظوا في صدورهم ثم نقلوا إلى غيرهم تلك الأشعارَ التي تنتسب إلى نظامٍ أبطلَه الإسلام؟"[1].

لقد بدا مرجليوث، في هذا الرأي، متطرفا إلى أبعد حدٍّ حين تناول الرواة كلَّهم، والثقات منهم خاصة، بهذه النظرة المجحفة التي تدل على سوء نيّةٍ بهم، ويجدر بنا أن نردَّ الأمور إلى نصابها والحقيقةَ إلى

---

[1] مصادر الشعر الجاهلي. ناصر الدين الأسد. ص: 360.

طريقها حول ما يقال عن روّاتنا بدءًا من حماد الراوية الذي لقيَ هجوما شرسا على طول التاريخ الأدبي، والذي فنَّد بشأنه الدكتور ناصر الدين الأسد كلَّ الروايات التي طعنت عليه والمنسوبة إلى الأصمعي والمفضّل الظبي وأبي عمرو بن العلاء وابن سلاّم وخلف الأحمر، وانتهى إلى القول:" فنحن إذن – بعدما عرضنا هذه الأخبار وبيّنا ما فيها من زَيف- نميل إلى أنْ نَعُدَّ أكثر ما اتُّهم به حمادٌ موضوعا، دعت إلى وضعه عواملُ عدّة: منها هذه العصبية التي كانت متأجِّجةً بين البصرة والكوفة، ومنها تلك المنافسات والخصومات الشّخصية، كالتي كانت بين المفضّل وحمّاد، ومنها العصبيّة السياسيّة: فقد كان حمادٌ أُمَوِيَّ الهوى والنزعة، وكانت دولة بني أمية قد ولَّت، وأقبلت دولة جديدة تناصبها العداء، وتريد أن تمحوَ محاسنها وآثارها، وتحطّ من قيمة من اشتُهِر فيها، أو نال لديها حظوة، ومنها: أنّ حمادا كان- باعتراف الرواة- كثيرَ الرّواية، واسعَ الحفظ، فكان يروي مالا يعرفه غيره، ويحفظ ما لا يحفظون، فاتّهموه بالتّزيّد والوضع"[2]. وكذا الشأن في خلف الأحمر الذي انتهى، ناصر الدين الأسد، إلى توثيقه، وإلى إثبات أن العصبية هي التي كانت وراء توهين رواياته[3].

وقد عقد ابن جني في الخصائص بابا في " صدق النقلة وثقة الرواة والحَمَلة" وذكر فيه من أخلاق العلماء الرواة من مثل أبي عمرو بن العلاء والأصمعي وأبي زيد وأبي عبيدة، وأبي حاتم ما يوثّقهم ويبعد عنهم ما اتهموا به، ويذكر العصبية التي كانت متأجّجة بين البصرة

---

[2] المصدر نفسه. ص: 450.

[3] المصدر نفسه. ص : 462.

والكوفة، وحرص على أنّ ذلك كان علامةً على تحرِّي الثّقة والتّشـــدّد في الرواية[4] .

ثم انتقل مرجليوث إلى الحديث عن **الأدلة الداخلية** كخطوة أخرى للإجهاز على الشـــعر الجاهلي القديم، ومن هذه الأدلة حديثُه عن خُلوِّ هـذا الشـــعر من الأثر الوثني الـذي نجـده في النقوش، وكأنّ هـذا الشعر لابدّ أن يكون مصوِّرا للديانة الوثنية تصويرا كاملا، فإنْ كان هذا فذاك، وإلاّ يكن فهو منحول في رأيه. وذلك ظنّه في سـبب مجيء الإسـلام، إذ أن الشـعر كالأصـنام، مَحَاهُما معا، وتحتم على العرب الذين أسـلموا ألاّ يَرؤُوا هـذا الشـــعر الوثني. يقـول مرجليـوث:"...وتخلـو الأشـــعـار (الجاهلية) من الجوّ الوثني الذي نجده في النقوش، ولعلّ هذا ما أوحى إلى الأب شـــيخو بنظريته القائلة بأنهم (أي بعض الشـــعراء الجاهليين) كانوا جميعا نصـارى!، ولأن هذه النظرية – على ما يبدو- عديمةُ القيمة، إذ أن بعض هؤلاء الـذين افترض بـأنهم نصـــارى عبروا عن مكنونـات نفوســهم بطريقـة تشـــير بوضـــوح وجلاء إلى أنهم ينتمون إلى طبيعـة مختلفة، وعلى ذلك فأعشـى قيس، وهو معدود من الشـعراء النصـارى عنـد شـــيخو، يتحـدّث عن العُبّاد المتبتِّلين وهم يطوفون بباب راعيهم، مشـبّها طوافهم بطواف النصـارى ببيت وثنهم[1]. وأن من الأمثلة القليلة التي نعثر فيها على قَسَم بآلهة وثنية تجده عند الأعشى في بيت يُعزى إليه، وأينما تكن النصارى تكن لهم كتبهم المقدسـة، وتتأثر لغتهم وأفكارهم إلى

---

[4] ينظر الخصائص. ابن جني.

[1] يقصد قول الأعشى: تَطوفُ العُفاةُ بِأبْوابِهِ طَوافَ النَّصارى بِبَيتِ الوَثَنْ.

حدٍّ كبير بأساليب الإنجيل والرسائل الدينية والمزامير، ويسير شعرهم، في معظم الأحيان، على نسق الترانيم، إلا أنه في الشعر، الذي يُتَصَوَّر أنه شعرٌ جاهلي، فَقْرٌ في الإشارات إلى الكتاب المقدس والعادات المسيحية، حتى عند أولئك الشعراء الذين يفترض أنهم انتعشوا في بلاطات نصرانية ، وعلى الرغم من أن الشعراء الجاهليين يقسمون كثيرا فإن قسَمهم بالله لا يتغير في الغالب، وهذا القَسَم منتشر حقا في دواوينهم، وحتى عبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلي يقول في لغة قرآنية:

حَلَفتُ بالله إنَّ الله ذو نِعَمٍ لِمَن يشاء وذو عَفْوٍ وتَصْفاحِ

ولا يمكن لموحِّد أن يستنكر فكرتهم عن أفعال الله، إذ أنها تسبق تعابير القرآن في جميع التفاصيل تقريبا. فالله " يقبض الدنيا ويبسطها"[2]، ويجزى المحسنين خيرا ويجمع شملا متفرقا[3]وأمره بالغ[4]، وتلتمس النساء رحمتَه في المصائب[5].

والحق أن الدين الوحيد يمكن أن ينتسب إليه هؤلاء الشعراء الجاهليون هو الإسلام، فهم، كما رأينا، ليسوا ملتزمين بالوحدانية

---

[2] يقصد قول ذي الأصبع: إنَّ الذي يَقبِضُ الدُّنيا ويَبسُطُها إنْ كان أغْناكَ عنِّي سوفَ يُغْنِيني

وهنا إشارة إلى قوله تعالى:" والله يقبض ويبسط" البقرة. الآية: 245.

[3] وهنا يشير إلى قيس بن الحدادية: لا تَعْذِليني سَلمَى اليومَ وانْتَظِري أنْ يجمَعَ الله شمْلاً طالما افْتَرقَا.

[4]وهنا يشير إلى قول الحارث بن حلزّة:فَهَداهُم بالأسْوَدَينِ وأَمْرُ اللّهِ بِلْغٌ تَشقَى به الأَشقِياءُ

[5] ويقصد هنا بيت جَلِيلة بنتِ مُرَّة زوجةِ كُلَيب: إنّني قاتلةٌ مَقتُولةٌ ولعَلَّ اللهَ أنْ يرتاحَ لي.

فحســـب، لأنهم نادرا ما يشـــيرون إلى آلهة غير الله... بل إنهم يُظهرون معرفتهم بمســـائلَ يؤكِّـد القرآن أنهـا لم تكن معروفـةً للعرب قبـل الوحي[6]"[7].

وظاهرٌ من قول مرجليوث الســـابق أنه يســـتبعد نظرية الأب لويس شـــيخو لوجود فَقْرٍ شـــديدٍ في الإشـــارات إلى الكتاب المقدس والعادات المســـيحية في أشـــعار العرب الجاهليين، ويذكر أن الشـــعراء كثيرا ما كانوا يقســـمون، وكان قســـمهم بذكر كلمة "الله" كما هو في بيت عبيد بن الأبرص الســـابق، وهو قســـم بلغة القرآن، كما أن فكرة القبض والبســـط عند ذي الأصـبع العدواني تقتصـر على قبض وبَسـط الدّنيا في حين أن موضـــوعها في الآية القرآنية" والله يقبض ويبســـط" تعني أن الله وحده بيده قبض أرزاق الخلق وبسطها، وبين المعنيين بَونٌ شاسع وفرقٌ كبير.

وأما حديثه عن جمع الله للشـــمل وقدرته على ذلك، فإن مرجليوث تغاضـــى عمّا جاء في كتاب الأغاني، وتعليق أبي الفرج على الأبيات التي جاء فيها هذا البيت، فقد روي عن أبي عمرو بن العلاء قوله:" وهذه الأبيات من رواية أصـحابنا الكوفيّين، وغيرهم يزعم أنها مصـنوعة، صـنعها حماد الرواية لخالد القسـري في أيام ولايته، وأنشـده إياها فَوَصَلَه، والتّوليدُ فيها بَيّنٌ جدا"[1].

---

[6] يشير هنا إلى قوله تعالى:" تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنتَ ولا قومُكَ منْ قَبلِ هذا، فاصبر إنَّ العاقبة للمتَّقِين" سورة هود الآية: 49.

[7] الشعر الجاهلي.قضاياه الفنية والموضوعية.ابراهيم عبد الرحمن.ص:69.

[1] الأغاني. الأصفهاني. 149/14.

وتَحامُلُ مرجليوث في هذا الشـأن بيّن واضـح، فهو يرمي وراءه المنهجَ العلميَّ المعتمد على التّوخي والأمانة العلمية، إذ يتغافل عن الشك في هذه الأبيات وضـعفها، ويسـوقها على أنها صـحيحة من أجل أن يؤيّد شـكوكَه حول موضـوع آخر، وهو أمرٌ يدل على سـوءِ نيّةٍ واسـتدراجٍ مفضوح مُسبَقا، لا يحتاج صاحبه إلاّ إلى تبصُّر بسيط دون إعمال فكرٍ أو إجهاد عقل، بل إنّ الرجل كمن يبني بناءً شـاهقا عظيما على أسـاسٍ هشٍّ ضعيف!.

وقد وجد مرجليوث في أشـعار عنترة بن شـداد مادةً دسـمة تتمثل في وجود ألفاظ ومعان إسلامية في هذا الشـعر الجاهلي، متجاهلا أن قصة عنترة وشجاعته أصبحت سيرةً شعبية مثلُها مثل سيرة أبي زيد الهلاليِّ وسـيرة سـيف بن ذي يَزَن، وأن هذه السـيرة قد دخلها كثيرٌ من الوضـع والنحل، خاصـة إذا احتضـنتها العامة، وأصـبحت تتلذّذ بها في نواديها ومجالسـها وحلقات القصـص، وكان على مرجليوث– وهو العالم المحقّق- أن يتأكّد من هذه الأشعار التي ساقها أمنحولةٌ هي أم صحيحة.

ولقد أشـار" بلاشـير" إلى ذلك بعد أن عَدَّ قصـائد عنترة فقال:" إنّ هذه الكتلة الشـعرية هائلةٌ نسـبيا، ولكنها خادعة، إذ نكشـف فيها أحيانا كثيرة مقلَّدات غيرَ موفَّقة"[2]، وذكر مرجليوث بأن عنترة العبسـي " كان يعرف وحي القرآن ومصـطلحات الإسـلام"[3] وأنه اسـتخدم ألفاظا من مثل: قِبْلَة القُصّاد، وهو بيت مدح به عنترة كسرى أنو شَروان:[1]

---

[2] تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 276/1.

[3] مصادر الشعر الجاهلي. ناصر الدين الأسد. ص: 363.

[1] شرح ديوان عنترة. دار الكتب العلمية. بيروت. (د.ط). 1995. ص: 141.

يا قِبلَةَ القُصّادِ يا تاجَ العُلا يا بَدرَ هَذا العَصْر في كِيوانِهِ

مع أن لفظة " قِبلة" لفظة عربية قديمة تعني الجهةَ والنّاحية، ومنه قال الجوهري:" مالَه قِبلة ولا دِبْرة، إذا لم يهتد لجهة أمره، وما لِفُلانٍ قِبلةٌ أي جِهة"

وذكر مرجليوث ألفاظا أخرى من مثل " السّجود" في قول عنترة[2].

إذا بَلَغَ الفِطامَ لنَا صَبِيٌّ تخِرُّ لَه أعَادِينَا سُجُودَا

ولفظة" حَجَر المقام" في قوله:[3]

عَجُوزٌ مِن بَني حَامِ بنِ نُوحٍ كَأنَّ جَبِينَها حَجَرُ المقامِ

ولفظة" المحشَر" في قوله:[4]

ورَجَعتُ عَنهُم لم يَكُن قَصْدِي سِوى ذِكرٍ يَدومُ إلى أوانِ المحْشَرِ

ولفظة" الجحيم" في قوله:[5]

كُلَّما ذُقْتُ بَارِدا مِن لَمَاهَا خِلْتُهُ في فَمِي كَنارِ الجَحِيمِ

وبعد أن ذكر مرجليوث عددا من الأبيات التي تدل ألفاظها على أنها قيلت في العصر الإسلامي لا قبلَه لعدد من الشعراء غير عنترة بن شداد العبسي، خَلُص إلى نتيجة مشوقة وهي ذهابه إلى أنه من المحتمل ظهور أناسٍ سابقين قبل النبي ص ثاروا على عبادة الأوثان في بلاد العرب، ولو أن الشعراء الجاهلين نظموا أشعارَهم وضمّنوها مبادئ المسيحيّة

---

[2] المصدر نفسه. ص: 46 .

[3] المصدر نفسه. ص :131 .

[4] المصدر نفسه. ص: 70 .

[5] المصدر نفسه. ص: 132 .

مظهرين معرفتهم بتعاليمها - لأن النصرانية قد سيطرت على بعض أجزاء شبه الجزيرة- لكان من الجائز أن تواجهنا بعض الصعوبات في قصائدهم، ولكننا نجدهم يتحدثون كالمسلمين، ويتشدّدون في توحيدهم كما تشدّد أصحاب النبي من بعد، وكانوا مُرَدِّدين لصدى كتابٍ مقدَّس هو القرآن، إن أشعارهم، بعد هذا، تعتبر زائفة غير صحيحة، وإنه لمن الصعب بمكان أن نفهم عن العرب، الذين كانت تمثلهم آلهتهم المتعددة من خلال نقوشهم، فنراهم يؤمنون بإله واحد هو إله محمد ص الذي دعا إلى توحيده وتنزيهه، وإذا افترضنا أن هذه النقوش قد صدرت عن مجتمعات تختلف عن مجتمعات الشعراء، فماذا يحدث لرسالة محمد ص حين يكون هؤلاء الناس الذين" أنذرهم" معتقدين بإله واحد وينتظرون يوم البعث؟[1].

إننا نخلص، بعد هذا الذي ذكرناه فيما يخص رفض مرجليوث وشكه المؤسس على الأسماء والألفاظ والمعاني الإسلامية، ورفضه لهذا الشعر الذي يذكر فيه اسم " الله"، إلى أنّ الرواة قد نسبوا هذا الشعر إلى شعراء كانوا يعيشون في فترة قريبة من ظهور الإسلام من مثل: عنترة بن شداد، والمتلمس، وطُفَيْل الغَنَوي، وأوس بن حجر، وزهير بن أبي سلمى، ولبيد بن ربيعة وعروة بن الورد وغيرهم...

وأما فيما يخص الاتّجاه التّوحيدي في الشعر الجاهلي، فإنه كان ثمرةَ اجتماع ديانات سماوية ظهرت في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، أو انتقلت إليها، وهي ديانة إبراهيم، والديانة اليهودية والمسيحية، على نحو

---

[1] ينظر إلى: مصادر الشعر الجاهلي. ناصر الدين الأسد. ص: 363 وما بعدها.

ما ذكرناه في دراستنا للحياة الدينية للعرب في الفصل الأول[2].

ويرمي مرجليوث بسهمه الأخير في مَقتَل الشعر الجاهلي للتشكيك فيه ويتمثل في اللغة من أمرين:

أولهما: الاختلاف بين لهجات القبائل، وثانيهما: الاختلاف بين لغة الشمال ولغة الجنوب. ويذهب إلى أن الشعر الجاهلي جاء بلغة القرآن في حين كان من الواجب أن يأتيَ بلهجة القبائل التي ينتسب إليها أصحابها " ويقدّم افتراضا غريبا- كدأبه- وهو أن الإسلام قد ألزم القبائل العربية استخدامَ لغة القرآن، ويقارن ذلك بما حدث في الاحتلال الروماني لإيطاليا وبلاد الغال (فرنسا) وإسبانيا، ثم يقرر مرجليوث أنه :" من الصعب أن نتصور وجود لغة مشتركة قبل مجيء الإسلام" وهو يعني بذلك الاشتراك بين القبائل الشمالية في هذه اللغة، أما القبائل الجنوبية فيستبعد تماما كتابتها باللغة العربية الموحَّدة- لغة القرآن- ويعتقد أن أشعارها إنما " صُنِعت لأجل الحوادث التي لها صلة بالأساطير "[3].

وهو يربط هذا الموضوع- أي موضوع اللغة- بالموضوع السابق وهو الإشارات والأسماء والمعاني الإسلامية، ويقرّر بأن:" وجود الأفكار الإسلامية في أشعارٍ وثنية تبرهن بوضوحٍ على التزييف والوضع واستخدام اللّهجة التي جعلها القرآن لغةً فصحى، فقدم أسسا للشك

---

[2] ينظر إلى الفصل الأول:" اليهودية والنصرانية في أرض العرب" و " الصابئة والمجوس" من موضوع: " الحياة الدينية عند العرب".

[3] مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية. بحث لمصطفى هدّارة بعنوان:" موقف مرجليوث من الشعر العربي". المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تونس .1985. 427/1.

الخطير"[4].

إن الرجل، هنا، لَيُقدِّم أدلةً واهية تدل على عدم فهمه لطبيعة اللغة العربية وآدابها، إذ كيف يُلزِم الإسلام قبائلَ العرب باتخاذ لغة القرآن لغةً رسمية لهم؟[1]. بل كيف تكون لغة القرآن، آنذاك، ليست هي لغةَ القبائل العربية إلاّ إذا كان القرآن بلغةٍ أخرى غير لغة العرب، وهذا فرضٌ باطل، وإلا إذا كان العرب يتكلمون لغة غير العربية التي أنزل بها القرآن، و هذا فرض آخر باطل، و إلا إذا كان العرب يتكلمون لغة غير العربية بالاحتلال الروماني لأوربا القديمة، و كأن رجال الإسلام الأول ليسوا عربا، أو كأنهم استخدموا في القضاء على الوثنية الشيء نفسه الذي استخدمه الرومان في أوربا من وحشية و دمار.

أما عن وجود لغة عربية مشتركة بين قبائل العرب الشمالية والجنوبية، فهذا أمر تحدّث في شأنه الكثير، وأوضحوا أنّ القبائل الشمالية بدأت منذ القرن الرابع الميلادي تُغِير على قبائل الجنوب بعد ضعف الدولة الحِميَرية، وأنّ هذه القبائل استقرّت هناك ونشرت لغتها، كما أن عددا من الجنوبيين قاموا بهجرةٍ معاكسة إلى الشمال، وغَدَت لغةُ الشمال لغةً لهم.

ولقد ذكرنا في الفصل الأول في موضوع" اللغة العربية" النقوشَ التي عُثِر عليها في الجزيرة العربية، وأن الخطّ العربي قد نشأ وتطور في

---

[4]المرجع نفسه.427/1.

[1] هذا الرأي أخذه طه حسين في كتابه " في الأدب الجاهلي" حيث قال:" ...أي إنّ الإسلام قد فرض على العرب جميعا لغةً عامة هي لغةُ قريش"

ينظَر إلى آخر الفصل الأول من هذا البحث:" تطور اللغة العربية وأسباب تكوّنها"

شـمال الحجاز، وهو امتدادٌ للخطّ النبطي، وأنّ نقش " النمارة" المستكشف عام 328م[2] في مدفن امرئ القيس بن عمرو ملك العرب إنما " تشفّ أحرفه عن الأصل النبطي الذي أُخِذ منه، كما تدل الكتابة فيه على طور الانتقال من الحروف النبطية إلى الحروف العربية الشمالية التي لا تزال مستعملة حتى الآن"[3].

ونخلص بعد هذا الذي أثاره مرجليوث من أجل الطعن في صحة الشعر الجاهلي إلى ما ذكره الدكتور مصطفى هدارة من أنّ الرجل" لا يستطيع الادّعاء بأن الشعر الجاهلي الموجود بين أيدينا يخلو تماما من لهجات القبائل المختلفة، كما لا يستطيع الادّعاء بأنّ القرآن الكريم اقتصر على اللهجة القرشيّة"[4].

وقد جاء في البيان والتبيين على لسان الجاحظ قال:" حدثني أبو سعيد بن روح قال: قال: أهل مكة لمحمد بن مناذر الشاعر: ليست لكم أهلَ البصرة لغةٌ فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهلَ مكّة، فقال ابن مناذر: أمّا ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثرها له موافَقَةً، فضعُوا القرآن بعد هذا حيث شئتم، أنتم تسمّون القدرَ برمةً، وتجمعون البرمة على بَرَام، ونحن نقول: قِدْر ونجمعها على قُدور، وقال الله عز وجل(وجِفانٍ كالجوابي وقدورٍ راسياتٍ)، وأنتم تسمّون البيتَ إذا كان فوق البيت (عليّة)، وتجمعون هذا الاسم على علاليّ، ونحن نسمّيه

---

[2] العصر الجاهلي. شوقي ضيف.ص: 35 و 118. وقد اكتشف هذا النّقشَ كلٌّ من دوسوواكلر سنة 1904 على بُعْدِ ميل من النمارة بسوريا.

وينظر أيضا: تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 71/1 وما بعدها.

[3] الجامع في تاريخ الأدب العربي. حنّا الفاخوري. ص: 53.

[4] مناهج المستشرقين. بحث مصطفى هدارة. 428/1.

غرفـةً، ونجمعـه على غرفـات وغرف، وقـال الله تبـارك وتعـالى:(غُرَفٌ من فوقهـا غُرفٌ مبنيـة)، وقـال: (وهم في الغرفـات آمنون)، وأنتم تســمون الطّلعَ (الكافور) و(الاغريض) ونحن نســميه (الطلع)، وقـال الله تبـارك وتعـالى: (ونخلٍ طلعُهـا هَضِــيم)، فعـدّ عشــرَ كلمـات لم أحفظ منهـا إلا هذا"[1].

ونفهم من هذا أنه كانت اختلافات بين لهجات القبائل، أُثِر بعدها ما يعرف بالترادف وكثرة المسـمَّيات للشـيء الواحد، كما هو حاصـلٌ عندنا الآن في لغتنـا العربيـة أو في لغـات أخرى منطوقـة، فصـيحـةً كانـت أو عاميّةً، ولكن هذا الاختلاف لا ينفي وجود اللغة المشــتركة الواحدة التي تحدّثنا عنها، وقد ذكر إبراهيم أنيس ما مفاده: أنّ هناك عواملا وظروفا هيّأت هذا الاشــتراكَ في قوله:" ... وهكذا نرى أن بيئة مكة قد هُيِّئَت لها ظروف وفرص بعضـها ديني، وبعضـها اقتصـادي واجتماعي، مما سـاعد على أن تصــبح المركز الذي تطلّعت إليه القبائل، وشُــدَّتْ إليها الرِّحال قرونا عدّة قبل الإسلام، فكان أنْ نشأت بها لغةٌ مشتركة أُسِّست في كثير من صفاتها على لهجة مكة"[2].

وإذ يذكر إبراهيم أنيس هذا الكلام إلا أنه تحدّث بعد هذا على أن القرآن الكريم لم يكن ممثِّلا للغـة قريش وحـدهـا، وإنمـا كان ممثلا لهـذه اللهجـة ولغيرهـا من اللهجـات العربيـة الأخرى حين يقول:"فلا يمثِّل القرآن لغةَ قريش وحدها، كما يتردد أحيانا، في بعض الكتب والروايات، وإنما يمثل اللغـة المشــتركـة بين العرب جميعـا، لغـةَ الأدب من شــعرٍ

---

[1] البيان والتبيين. الجاحظ. 1/18-19 .

[2] مستقبل اللغة المشتركة.إبراهيم أنيس.ص:08.

وخَطابةٍ وكتابة"[3].

ونرى مرجليوث، بعد هذا، يتحدث عن نهج القصيدة العربية القديمة التي أخذت شكلا واحدا من خلال الموضوعات المطروقة، ويذهب إلى أنه نهج مزيف صُنِع خصّيصا ليكون على نقد ما ذكره القرآن في أواخر سورة الشعراء، حيث إنّ النسيب المطّرد في أوائل القصائد إنما وُضع ليفسِّر قوله تعالى:" ألم تر أنهم في كل واد يهيمون" وإنْ هم وصَفوا أسفارهم ورحلاتهم ومطاياهم فذلك تفسير لقوله تعالى:" والشعراء يتّبعهم الغاوون"، واتّباع الغاوين لهم دليلٌ على أنهم غاوون ضالّون، وإن هم قالوا وأذاعوا حديثهم- والذي يكون غالبا مخالفا للآداب والأخلاق- فذلك لأنهم " يقولون ما لا يفعلون"[1].

إن نظرة مرجليوث إلى هذا الموضوع لتبدو ضيّقةً ومحدودة، إذ كيف يُعقَل أن تكون هذه الرّتابة في قصائد الشعر الجاهلي موافقةً لنقد القرآن للشعراء الغاوين، وأين نضع، مع هذا، الشعراء الذين دافعوا ونافحوا عن الأخلاق والقيم والسلام في المجتمع العربي آنذاك، وأين يمكن أن نضع مضامين الشعر الجاهلي الأخرى، كوصف الموجودات والحيوانات والتجارب الإنسانية الخاصة، أم نرى أن هذه الرتابة إنما شملت مضامين محدّدة دون أخرى، بل إننا نتساءل كما تساءل شكيب أرسلان حين قال:" مَن كانت تلك العصابة التي تولّت كلّ هذا التزوير

---

[3] المرجع نفسه. ص: 09 .

- ينظر في آخر الفصل الأول حيث فصّلنا هذه الأقوال، وأتينا على ذكر آراءَ أخرى في مبحثٍ حول: اللغة العربية ولهجات القبائل.

[1] ينظر إلى: مناهج المستشرقين. بحث مصطفى هدارة. 429/1، ومصادر الشعر الجاهلي. ناصر الدين الأسد. ص: 366.

العبقري؟ فليخبرنا" مرجليوث" أو" طه حسين" مَن ذا الذي قام بهذا العمل كلِّه بعد الإسلام؟ ومَن الذي نظم هذه الألوف من القصائد وألقى عليها هذه المسحةَ مَسْحةَ الجاهلية؟"[2] .

ولقد ختم مرجليوث مقالته بالحديث عن موضوع كآخر بَذْرٍ من بذور الشك حول الشعر الجاهلي متمثلا في أن هذا الشعر مرحلة متطورة عن الأسلوب القرآني، سابقةٌ له، وأنّ الشعر والنثر كليهما مشتَقّان من القرآن، وأن هذه الآثار الأدبية التي جاءت قبل القرآن أقلُّ فنًّا من تلك التي أنشِئَت بعده، وأنه لما كان القرآن يخلو من الإشارة إلى الموسيقى، وفي حين أن المصادر العربية تقول إنّ الموسيقى عُرفت بدءًا من العصر الأموي [3]" فهل نستطيع أن نتصور أن الوزن الشعريَّ قد وُجِد عند العرب من قبل بهذا الانتظام والغزارة اللّذين يكشف عنها شعرُهم!؟"[4].

وظاهرٌ من هذا أن مرجليوث يبعد عن الرجل البدائي معرفته بالموسيقى، مع أننا يمكن أن نتوصل إلى نوع من الموسيقى المصاحبة للعمل، أو من خلال التأمل في الموجودات والظواهر الطبيعية التي تأتي على نسَقٍ واحد، وقد قال المستشرق:" برونيلسن" في ردّه على مرجليوث: " ليس من المستبعَد ازدهارُ مَلَكَة فنيّة لدى أقوامٍ ذوي حياةٍ بدائيّة"[5].

وعلى خلفية ما كتبه مرجليوث في مقالته" أصول الشعر

---

[2] مناهج المستشرقين. بحث مصطفى هدارة. 1/ 429.

[3] جاء في قول بلاشير:" إن القرآن لا يحتوي أيَّ إشارةٍ إلى الموسيقى العربية، وأنّ أوّلَ ذِكرٍ لها ورد سنة 65هـ/ 684 م"- بلاشير: 184/1.

[4] المرجع نفسه. 430/1.

[5] المرجع نفسه. 430/1.

العربي"، فقد عدّه الدكتور عبد العزيز نبوي من الذين تناولوا القضية بسوءِ منهج ومقصَد، إذ يقول:" كما لا ينكر باحثٌ مُنصف واعٍ بأبعاد القضية، أن أسوء مَن تناولوا القضية من حيث المنهجُ والمقصد هو المستشرق الإنجليزي ديفيد صمويل مرجليوث، أمّا سوءُ المنهج وفساد المقدّمات والنتائج فيكفي للدلالة عليها أن نشير إلى تفنيد كثيرٍ من المستشرقين لمقاله المشهور"[1].

وقد رصد ناصر الدين الأسد أهم الردود على مرجليوث من المستشرقين أمثالِه ومن أهمهم شارلس جيمس ليال(Charles James Lyall) الذي أشار في مقدمته للمفضليات عام 1918[2] بقوله:" ...وأما أن نذهب كما ذهب أحد العلماء المحدَثين (يعني مرجليوث) إلى أنّ جميع ما نسميه بالشعر العربي القديم موضوعٌ منحول، فهو مذهب مخالفٌ لجميع وجوه هذه القضية واحتمالاتها"[3].

ثم إن "ليال" تحدث عن موضوع وجود رواة وضّاعين للشعر ينسبونه إلى شعراء جاهلين فيقول:"... ولكن هذه الحقيقة نفسَها، المحاكاة، تدلّ على وجود أصل يحاكَى، أمّا أن نذيع أنّ ما بين أيدينا لا

---

[1] دراسات في الأدب الجاهلي. عبد العزيز نبوي. مؤسسة المختار. القاهرة. (د.ط). 2003. ص: 80.

[2] تمّ نشر مقالة مرجليوث: أصول الشعر العربي" عام 1925، وإذا لاحظنا أن " لُيَال" كتب يردّ على مرجليوث عام 1918 فذلك لآرائه السابقة قبل مقالته المشهورة حين نشر كتابه:"محمد ونشأة الإسلام" (Mohammed And The Rise of Islam) عام 1905، وفي مقالته " محمد" المنشورة في مَعْلَمَة الدّين والأخلاق (Encyclopedia of Réligion And Ethics).

[3] المرجع نفسه. ص: 80.

يعدو أنْ يكون الصورةَ المحكيّة، وأنّه لم يبق شيءٌ من الأصل نفسِه، فذلك أمرٌ لا يُقِرُّه الفهمُ السليم على ضوء هذه الظروف"[4].

تحدث " ليال"في مقدمته حول صحة الشعر الجاهلي [5]، وأتى على موضوعات تخص الشّك في رواية "حماد الراوية" وتعليقات " المفضل الضبي" حول روايته التي شكّ فيها، ويذهب إلى أنّ حمادا قد أفسد الشعرَ فلا يصحُّ أبدا، وهو يعلّق على هذه الرواية التي قيلت على لسان المفضل وتناقلها " أبو الفرج الأصفهاني" عن طريق ثلاثة رواة هم: محمد بن خلف وكيع عن أحمد بن الحارث الخراز عن ابن الأعرابي ، وأضاف "ليال" أنه قد يزيد واحد من هؤلاء شيئا ما، كالذي يزيده الرّواة، وإن كان المتنُ صحيحا والرواة لم يضيفوا شيئا فإنّه كان من الرّواة العرب من يستطيع أن يفتحَ خزائن الشعر ويُلقيَها بين يدَي المفضل، الذي كان يعرف صحيحَ الشعر من زائفه، ولو أنّنا سلمنا بصحّة ما رواه الأصفهاني من أمر الوضع والنّحل فإنّ حمادا هذا يكون قد نقل إلينا شعرا أصيلا شبيها بشعر القدماء الأصيل، وإن كان هذا والحال هذه فمَن يا ترى يستطيع أن يتفطّن إلى أن هذه القصائد موضوعةٌ منحولة؟ إلاّ إذا كان يعرف سَلَفاً القصائدَ الأصلية الصحيحة في صورتها الأولى.

وهو بعد أن يأتي إلى ذكر قصصٍ عن حماد الراوية في تراث العرب مبيّنا زَيفها وعدمَ منطقيّتها يتوصّل إلى أنه ليس ثمّةَ ما يحملنا على الظن من أنّ الشعر الذي جمعه المفضّل قد أفسده ما يوعز إلى حمّاد من وضْعِ الشّعر ونحله.

---

[4] المرجع نفسه. : 80.

[5] مصادر الشعر الجاهلي. ناصر الدين الأسد. ص: 368-374.

ثم يعرض " ليال" لسيرة " خلف الأحمر" ولما يُنسَب إليه من قول الشعر ونحله الشّعراءَ الجاهليين، ويذهب إلى أنّ حمّادا وخلفا كانا من أصلٍ فارسي، وأنّ رواة الشعراء كانوا عربا نقلوا الشعر وحفظوه في صدورهم، وعنهم أخذه العلماء الجامعون له في القرنين الأول والثاني الهجريين وأمّا أن نذهب، كما ذهب مرجليوث إلى أنّ جميع الشعر العربي القديم منحولٌ موضوع، مستدلين على ذلك بالأخبار والقصص التي تروى عن حماد وخلف، فهذا أمرٌ غير مقبول به من وجهة علمية بحتة، وأن الرّجلين كانا يحاكيان أسلوبا عُرِف قبلَهما، وأخذ صورته، التي هو عليها، منذ زمنٍ بعيد قبل الإسلام، وقاله شعراءٌ وثنيون، أو غير مسلمين في زمن محمد ص ثم أسلموا، وكُتِب هذا الشعر وتُعُهِّدَ بالرعاية والحفظ إلى القرن الأول في زمن شعراء معروفين كجرير والفرزدق والأخطل وذي الرّمّة.

ويهتدي، بعد ذلك، إلى منهج يتّكئ على استنتاجٍ هام مفاده أنّ ما نستخلصه من هذه القصص عن حماد وخلف لا تزُدُّ الشعر القديم ولا تصفه بالوضع والانتحال دون بحث وتمحيص، بل يجب وضع هذا الشعر موضعَ البحث الدقيق بالاهتداء إلى الأدلة التي يمكن الأخذ بها زمن الرواية دون نسيان موضوع القصيدة وأسلوبها والصفات الشخصية المميزة لقائلها، لنستنتج بعد ذلك إمكانية وجود زيادات دخيلة أو تغييرات على مستوى الأبيات، أو الحكم عليها بالوضع والانتحال.

ويظهر أنّ ما كتبه" ليال" في موطنٍ آخر، في أثناء مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص، مشابهٌ تمام الشبه للّذي تحدثنا فيه آنفا في

مقدمته للمفضليات[1].

ومن المستشرقين الذين تحدثوا في قضية الانتحال في الشعر العربي القديم، نجد الدكتور بلاشير حيث عقد فصلا هاما في كتابه " تاريخ الأدب العربي" بعنوان" قضية الشعر المنحول"، حيث ذكر أنّ الحديث عن الشعر الجاهلي وصحّته قديمٌ قدمَ الشعر نفسِه، إلاّ أنّه مازال يستأثر اهتمام المستشرقين والعرب على حدّ سواء، وأثنى على علماء العراق في دورهم الهامّ في التنقيب عن صحة هذا الشعر وأتى على سردٍ تاريخي لهذه القضية بدءاً من المستشرق" نولدكه" سنة 1864 م فآهلوارد عام 1872م إلى علماء آخرين شايعوا المستشرقَين نولدكهوآهلوارد طوال ثلاثين سنة، أمثال: موير وباسيه، وليال، وبروكلمان. وظلت الحال على ما هي عليه إلى أن أعاد المستشرق مرجليوث البحثَ عن قضية الشعر المنحول في مقالته المشهورة سنة 1925 م. وعرض بلاشير أهمّ ما جاء في المقالة مشيرا في الوقت نفسه إلى النقد الذي سار معها، وعرّج إلى بحث طه حسين في كتابه " في الشعر الجاهلي" ثم " في الأدب الجاهلي" من بعد، متحدثا عن الجرأة التي أبداها طه حسين حين هاجم التقاليد المقدسة المقبولة في الشرق الإسلامي فيما يتعلق بالشعر الجاهلي، وهو يذهب إلى أنّ ما أظهره كتاب طه حسين من مزايا لَيَفُوقُ ما فعله المستشرقان نولدكه، وآهلوارد قبله، ويصرح بأنّ طه حسين انفرد عن مرجليوث في نقطة واحدة:" فهو يسلّم، مبدئيا، بأنْ ليس كلُّ ما يسمى بالشعر الجاهلي مصنوعا، ولكن ما بقي

[1]ينظر إلى : مصادر الشعر الجاهلي. ناصر الدين الأسد. ص: 372.

من القديم منه قليل، لا يمثل شيئا، ولا يدل على شيء"[1].

و يعرض بلاشير قضية الانتحال في الشعر الجاهلي القديم مُبدِياً أن الشكوك التي أثارتها النصوص الشعرية الجاهلية قد امتدت إلى آثار معاصرة للإسلام، أو جاءت بعده بقليل، كما أنه يذهب إلى أن الانتحال لم يكن مقصورا على الشعر فحسب، وإنما امتدّ إلى النثر أيضا- باستثناء القرآن- حتى إنه لَيَجْزِمُ أنه ليس لدينا سطرٌ واحد من النثر يرجع تاريخه إلى العصر الجاهلي، ويبين أن ذلك راجعٌ إلى ما أفسدته الرواية الشفهية والتدوين، كما أن بعض القطع الأدبية لَيَظهر فيها التقليد بديعا مطابقا لتلك الوجوه للتقاليد الشعرية المعروفة المتّبعة طوال النصف الثاني من القرن السابع (أي النصف الثاني من القرن الأول للهجرة)، في حين تظهر بعض الأشعار ساذجةً تدلّ على انتحالٍ ووَضعٍ مفضوحَين تكفي تجربةٌ قليلة لكشفها.

ثم أفْرَدَ بلاشير عددا من القصائد التي تعبّر عن كميات هائلة من الشعر المزيّف المنحول كتلك التي وردت في سيرة ابن هشام، وكتاب "التيجان" لعبيد بن شرية الجرهمي[2]، وكتاب الأغاني فيما يتعلق بالأشعار المنسوبة إلى العمالقة والثموديين والجدثيين الذين كان علماء العراق أول من سخر منها، وكذا تلك القصائد الدينية من مثل قصائد ورقة بن نوفل وأمية بن أبي الصّلت، وتلك القصائد المتأخرة جدا، والتي تحمل طابعا سياسيا دينيا تنسب إلى أقارب النبي ص كأبي طالب وابنه علي (ض) وكذا تلك القصائد المنثورة في روايات عدّة كرواية مجنون ليلى.

---

[1] تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 187/1 .

[2] ينظر الحديث عنه في الفصل الثاني في موضوع :" الرواة الوضاعون".

ويضيف بأن من خواص الأشعار المقلدة أن تكون أكثر أصالة من الأصيل، ولكي نكشف عن هذا الكم الهائل من الشعر، لابد أن تكون لنا آثار غير مشكوك في صحتها، يمكننا بعدها أن نتخذها معيارا، ولكن هذا شيء عزيز ينقصنا لأننا مجبرون على الانتقال إلى عصرٍ متأخّر لتكوين فكرة عن الآثار الشعرية السابقة للقرن السابع الميلادي.

ويؤكد بلاشير بأنه منذ عصر المفضل الضبي تمّ فقدُ الأمل في تمييز الشعر المنحول الذي دسّه حماد الراوية وخلف الأحمر، ويطمئن إلى أننا لسنا في وضعٍ يسمح بأن نكون ناجحين في مهمة الكشف عن الشعر المنحول أكثرَ من علماء القرن الثالث للهجرة، ويرى بأن الخوض في هذا الأمر عقيم غير مثمر، وأنه لابد أن نعدل عن هذا نهائيا، ثم يعود إلى الحديث عن تلك الأشعار التي عدّت منحولة، وكذا الحذر من قصائد امرئ القيس التي رواها حماد الراوية، وأن نضرب صفحا عن تلك القصائد التي تدل على أنها تمارين لتلاميذ يريدون تبيين مقدرتهم اللغوية والعلمية في شتى أصناف الشعر، ومن ثمة ومن طريق الحذر أكثر منه إبعاد الشعر المنحول، نجد أنفسنا أمام كميات من القصائد والأشعار التي يمكن أن نعتبرها انعكاسا للشعر الجاهلي.

ويخلص بلاشير إلى أنّ دراسة النصوص الشعرية تقتضي منّا أن نضع لها مبدأ هاما وهو أننا لا نملك أي أثر جاء من طريق الرواية الشفهية في شكله الأصيل، حتى إنّ القصائد التي تبدو قديمة مُورِسَت فيها تعريفات سواء بقصد أو بغير قصد، كما تعرّض جزء منها إلى إعادة تركيب متأخرة كما أن بعض المقلّدات الشعرية امتزجت بتلك الآثار القديمة حتى لَيَصعب علينا- في كثير من الأحيان- كشفُ تلك الانتحالات.

كما أن هذه الأشعار والآثار الأدبية التي تبدو مبهمة ومحرفة في أقسامٍ منها- قليلةٍ أو كثيرة- يجب أن نقبلها بجملتها، و ألاّ نعتبر " سوى العواطف العامة التي عبّرت عنها، دون الدخول في جزئيات العبارة والصيغ اللغوية التي قد تكون مزوّرة"[1].

وينتهي بلاشير إلى رؤيته لقضية الشعر المنحول وذلك بعدم أهمية ذلك النزاع الدائر حول الانتحال، إلاّ أن المهم في ذلك كلِّه أن نعرف هل هذه القصيدة المعروفة أو المقطوعة تتجسد مع الفكرة التي كونّاها عن الشعر الجاهلي أو لا؟ وبالتالي فإن انتحالات حماد الراوية وخلف الأحمر لا تزعجنا، بل تصبح مساعدا ثمينا لنا، وأننا ، إذا قارنا تلك الآثار القديمة بالأشعار المؤلّفة في العصر الأموي من مثل شعر جرير والفرزدق وجاءت موافقةً لها، انتهينا إلى أنها نتاجٌ صادق لتلك التقاليد الشعرية قبل الإسلام، وهي وإن بَدَت مختلفةً في بعض المضامين أو الموضوعات، لكنها لا تشوّه- في الجملة- ذلك النّموذجَ المحتذى ولا تلك العواطفَ التي أحسّها القدامى، تغنوا بها.

ويقرّر بلاشير، أخير، في استسلامٍ واضح، بأن العلماء العراقيين لم يخطئوا حين اعترفوا بأنهم عاجزون عن كشف انتحالات حماد وخلف الأحمر، وأنه من الخطأ بمكان، وبعد مرور أكثر من ألف سنة أن نكون أكثر تشدّدا منهم.

II- آراء العرب المحدثين:

1- **الر افعي**:

لقد يُعَدّ مصطفى صادق الرافعي أولَ الأدباء العرب المحدَثين

---

[1] تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 1/ 198.

الذين بحثوا موضوع الانتحال والوضع في كتابه الذي ألّفه عام 1911م، وهو " تاريخ آداب العرب" حيث خصّ الجزء الأوّل منه ببابين، تحدّث في أوله عن تاريخ اللغة العربية ونشـأتها وتفرّعها وما يتصـل بذلك، في حين عقد الحديث في الباب الثاني عن تاريخ الرواية ومشاهير الرواة وما تقلب من ذلك على الشـعر واللغة، وخصّ فيه الحديثَ عن مشـكلة النحل والوضع في الشعر على ألسنة الرواة الشعوبيين لإفساده والشكّ فيه.

ومع هذا الجَهد العظيم والعمل الجليل إلاّ أنّ الرجل اكتفى فقط بما وُجِد في كتب القدامى حيث جمع ما تفرّق في الأخبار والموضـوعات التي عالجها دون أن يكون له نقدٌ ظاهر أو بحثٌ علمي خالص يميز فيه الروايات وينقدها ويمحّصـها إلاّ في القليل النادر، ومع ذلك فإن للرجل قصبَ السَّبق في هذا الجمع والتّقصّي، وسنبيّن حديثَه عن" وضع الشعر" [1] وأسبابه التي دعت إليه.

ذكر الرافعي أنّ من بين الأسـباب التي دعت إلى انتحال الشـعر هو اسـتكثار القبائل من أشـعارها لتعوّض ما فقدته بعد اندفاع العرب إلى الفتوح الإسـلامية حيث اشـتغلوا بالجهاد والغزو مما كان سـببا في ضياع كثيرٍ من الشعر.

وكانت قريش أكثرَ القبائل استكثارا للشـعر حيث وضعت على حسـان بن ثابت شـعرا كثيرا وحَمَلَته عليه[2]، ثم تحدّث عن شـعر

---

[1] تاريخ آداب العرب .الرافعي. 297/1.

[2] المصدر نفسه . 295/1-296، وهنا نلاحظ مدى استفادة الرافعي من آراء ابن سلام، وتكاد تكون استفادةً واتكاءً كبيرين في كثير من الموضوعات، و مَن يطّلع على ما ذكرناه في الحديث عن ابن سلام، يجد هذا واضحا.

الشّـــواهد وذكَر بأنه نوعٌ يدخل فيه أكثر الشـــعر المنحول وذلك لحاجة العلماء الماسّـة إلى الشـواهد يفسـرون بها غريبَ اللغة ومسـائل النحو[3]. ولقد ســنّ لهم هذه الطريقة وأوضـح مســالكها وبيَّن سُــبُلَها شــيخُهم الكسـائي. " قال ابن درسـتويه: كان يسـمع – أي الكسـائي- الشـاذَّ الذي لا يجوز إلا في الضــرورة فيجعله أصــلا ويقيس عليه، فـأفســد النحو بذلك"[4].

كما تحدث عن شــواهد المعتزلة والمتكلمة في القرن الثالث للهجرة، حيث يضـعون من الشـعر ما يقوّون به آراءهم ويدحضـون به آراء خصومهم[5]، ثم ذكر الشواهد على الأخبار، وتحدث عن القصّاصين والوضّــاعين وتزيدهم للشــعر لغرض جلب العامّة من الناس، فقالوا الشــعرَ على لســان آدم والأنبياء وأبنائهم وأقوامهم، وعرّج على ابن إسحاق في سيرته وما حمله من شعرٍ ضعيف[1] ثم جاء على ذكر شعر الجنّ وأخبارها[2]، وخَلُص أخيرا إلى ســبب آخر متمثّل في الاتّســاع في الرواية، وقصـد به الفحولَ من الرواة الذين وضـعوا الشـعر على فحول الشــعراء من مثل حماد الراوية وخلف الأحمر وأنهم إنما فعلوا هذا إظهارا لمقدرتهم وتفوّقهم على من سـواهم من المشـتغلين في هذا الميدان، ثم ما أذكته روحُ التنافس الشـديد بين فحول مدرسـتي البصـرة والكوفة من الرواة العلماء.

---

[3] المصدرنفسه. 297/1.

[4] المصدر نفسه. 299/1.

[5] نفسه. 300/1.

[1] المصدر السابق. 302/1 وما بعدها.

[2] نفسه. 303/1 وما بعدها.

هكذا نطمئن إلى أن الرافعي، وإن كان سبّاقا إلى الحديث في هذا الموضـوع إلا أنّه دار في فَلَك القدامى حيث أتى إلى أخبارهم وذكرها ذكرا يدل على اطّلاعٍ واسـع في التراث العربي، دون أن تراه مُعَقِّبا على خبرٍ أو شـاكّا فيه أو ذاكرا لفرضـيةٍ من الفَرَضـيات أو مُدِلاًّ على نظرية من النظريات.

2- طه حسين:

تناول الدكتور طه حسـين موضـوع الانتحال في الشـعر العربي القديم في كتاب ألّفه سـنة 1926م، وسـمّاه آنذاك " في الشـعر الجاهلي" ومع أن هذا الكتاب أثار ضجّة كبيرة في الأوسـاط الأدبية والدينية آنذاك إلاّ أن طه حسـين اسـتدرك الأمر وأعاد طبعَ الكتاب باسـم" في الأدب الجاهلي" سنة 1927م بعد أن حذف منه وزاد فيه.

وقبل أن نأتي على آرائه التي ضـمّنها كتابَه لابدّ أن نشـير بادئ ذي بدء إلى أن طه حسـين إنما اعتمد أيضـا- مثل الرافعي- على آراء القدامى وخاصـة ابن سـلام في مادته الإخبارية، كما أنه قد اتُّهم بأنه قد أعاد آراء واسـتنتاجات المسـتشـرق مرجليوث، التي بيّناها في أول هذا الفصل.

وإن كان مرجليوث قد نفى أن يكون هناك شـعر جاهلي مطلقا، إلاّ أن طه حسين اقتصد في هذا الزعم وخفّف منه وذهب إلى القول بأن " الكثرة المطلقة مما نسـميه أدبا جاهليا ليسـت من الجاهلية في شـيء، وإنما هي منحولةٌ بعد ظهور الإسـلام، فهي إسـلامية تمثل حياة المسـلمين

وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين"[1]. وقد علّق بلاشير على هذا حين قال:" وينفرد طه حسين عن مرجليوث في نقطة واحدة، فهو يسلّم مبدئيا بأنْ ليس كلّ ما يُسمَّى بالشعر الجاهلي مصنوعا ولكن ما بقيَ من القديم منه لا يمثل شيئا ولا يدلّ على شيء، وهكذا فهو بوقوفه موقفا حذِرا اقترب بفكرته من آراء عدد من المستشرقين المعاصرين أمثال نحو لدزيهر وتور آندره، ووليام مارسيه وتريتون، وغودفروادیمونبینوبرونلیش في نقده الثاني لبحث مرجليوث سنة 1937"[2].

القارئ لهذا الكتاب يدرك أن كاتبه قد أدار موضوعَه على ثلاثة أقسام، فأما الأول فهو دوافع الشك في الشعر الجاهلي، وأما الثاني فتمثل في أسباب الوضع والنحل، وأما الثالث فقد درس فيه مجموعةً من الشعراء وشكَّ في نسبة الشعر إليهم.

1- دو افع الشك في الشعر الجاهلي:

بعد أن استقر رأي طه حسين على أن مرآة الحياة الجاهلية لا يمكن أن نعرفها إلا من خلال نظرتنا إلى القرآن الكريم خلُص إلى أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسيةوالاقتصادية والاجتماعية للعرب الجاهليين، وقد فصّل ذلك على النحو التالي:

أ- الحياة الدينية:

---

[1] في الأدب الجاهلي. طه حسين.ص: 67.

[2] تاريخ الأدب العربي. بلاشير. 187/1.

رأى أن هذا الشعر يُظهر لنا حياةً غامضة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني والعاطفة الدينية التي تتسلّط على النفس وتسيطر على الحياة العملية. وأنت حين تبحث في شعر امرئ القيس أو طرفة بن العبد أو عنترة فأين يمكنك أن تجد هذا الشعور؟ ثم يتساءل متعجبا:" أَوَلَيس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين!؟"[1].

ومن خلال اعتماده على القرآن في تمثيل الحياة الجاهلية رأى أنه يمثل شيئا مخالفا لشعر الجاهليين، رأى أنه يمثل لنا حياة دينية قوية جعلت من أصحابها مجادلين أقوياءَ وخصوما أشداء، وأن قريشا ما كانت لتقوم بكل هذا الذي قامت به من كيدٍ لأبنائها ومحاربتهم والبطش بهم واضطهادهم ومناصبتهم العداءَ لو كان لها هذا القدر الضئيل من التديّن الذي يظهره هذا الشعر، وخلص إلى أن قريشا كانت متدينة قويةَ الإيمان بدينها، وأن جهادها وتضحياتها باللّسان والسّنان دليلٌ على ذلك التدين. وظاهر من هذا أن الدكتور طه حسين يتقاطع مع مرجليوثويوافقه في هذا الطرح المتمثل في خلوِّ الشعر العربي القديم من تصوير الحياة الدينية.

ب- الحياة العقلية:

ذهب الدكتور طه حسين إلى أن القرآن لا يمثل فقط الحياة الدينية للجاهلين فحسب وإنما يمثل شيئا آخر لا يحسب أن هذا الشعر القديم يمثل العرب الجاهليين فيه وهو الحياة العقلية القويّة، وراح من خلال بعض الآيات في القرآن، التي أشار إليها، يصف الجاهليين بأنهم

---

[1] في الأدب الجاهلي. طه حسين. ص: 75.

كانوا على قدرةٍ فائقة في المجادلة والخصـــومة، ذلك أن القرآن أنفق في جهادها حظا عظيما، وراح يتســـاءل: " أليس القرآن قد وصـــف أولئك الذين كانوا يجادلون النبيّ بقوة الجدال والقدرة على الخصـام والشـدة في المحاورة؟ وفِيمَ كانوا يجادلون ويخاصمون ويحاورون؟ في الدين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفَّقوا لحلها"[2].

ويأتي على هذا الذي ذكرنا من أجل أن يبين لنا أن الجاهليين لم يكونوا أغبياء ولا جهالا ولا أصـحابَ حياة خشـنة بحيث يمثّلهم لنا هذا الشـعر الذي يضـاف إليهم، بل كانوا على حدٍّ من الذكاء والفطنة، وأصحابَ حياة فيها لينٌ ودَعَة، وإن كان طه حسين قد استدرك بعد ذلك في أن حيـاة الجـاهليين لم تكن كلهـا على نمط واحـد، فقـد كـان منهم المســتنيرون الذين امتازوا بالثروة والجاه والذكاء والعلم، وكان منهم العامة الذين لا يكادون يظفرون بحظ من هذا كله.

جـ- الحياة السياسية:

رفض الدكتور طه حســين تلك الآراء التي كانت تقول بأن الأمة العربية آنذاك كانت معتزلة بعيدة عن المؤثرات الخارجية التي تأثرت بها الأمم الأخرى، كما انتقد هذا الاتكال على الشعر الجاهلي في إبراز وتأكيد هذه الآراء، معتقدا من جهة أخرى، ومن خلال القرآن نفسِـه، أن العرب كانوا على اتصـــال بمن حولهم من الأمم، بل إن هذا الاتصـــال كان قويّا بحيث قسم العرب أنفسهم إلى أحزاب وشيع، وراح طه حسين يتساءل:" أليس القرآن يحـدثنـا عن الروم ومـا كـان بينهم وبين الفرس من حربٍ

---

[2] المصدر نفسه.ص:75.

انقسمت فيها العرب إلى حزبين مختلفين حزب يشايع أولئك، وحزب يناصر هؤلاء؟ أليس في القرآن سورة تسمى سورة الروم تبتدئ بهذه الآيات:" ألم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين.لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ..."[1].

ثم نراه مرة أخرى يستشهد بسورة " قريش" ودلالة الرحلتين شتاءً وصيفا على الاتصال الاقتصادي بين الأمم الأخرى من رومٍ وفرسٍ وحَبَش .

د- الحياة الاقتصادية:

اعتمد طه حسين في توضيح الحياة الاقتصادية للعرب الجاهليين مقارنا بين ما ورد في القرآن وما جاء في هذا الشعر على جملة من القضايا أهمها: أن القرآن أشار كثيرا إلى موضوع الربا واستئثار الأغنياء المرابين بالمال ودفع الكثير من المحتاجين- الذين يمثلون الزاد الأول للإسلام، والذين كانوا موضوعَ الخصومة بين النبي وقريش – إلى الوقوع في هذه الآفة التي نخرت المجتمع العربي في الجاهلية وأوضحت مدى سوء العلاقة الاقتصادية بين هؤلاء المرابين وبين الذين وقعوا بين فَكَّي الربا، ثم ذهب الدكتور يتساءل قائلا: " أفتظن أن القرآن كان يُعْنَى هذه العناية كلَّها بتحريم الربا والحثِّ على الصدقة وفرض الزكاة لو لم تكن حياة العرب الاقتصادية الداخلية من الفساد والاضطراب بحيث تدعو إلى ذلك؟ "[2].

---

[1] المصدر السابق.ص:77.

[2] نفسه. ص:78.

ثم راح يتكلم عن أهمية وصحة هذا الشعر من حيث إنه طَلَبَ منَّا أن نلتمس له شعرا أو نثرا يصور لنا مدى قوة النضال بين الأغنياء والفقراء، و إلى أيّ حدّ لا يمكن أن نجد شاعرا فقيرا مُعدَما قال شعرا يشكو فقره وحاله بين هؤلاء المرابين، وقل إن شئت العكس، فإنك تعدم أن تجد شاعرا غنيّا مُرابيا، متسلّطا أخذته العزّة بالإثم فراح ينظم شعرا يمثل كبرياءه وتسلّطه على هؤلاء الفقراء.

ثم إن الدكتور ذهب إلى أن الشعر الجاهلي إنما يمثّل العرب أجوادا كراما أصحاب عطاء ونوال يهينون المال ويبخسون قيمته، لكن القرآن يحدثنا عن شيء خلاف ذلك، يحدثنا عن البخل والطمع وغيرها من الآفات الاقتصادية والاجتماعية، وهو يذمّ هاتين الصّفتين الذميمتين ويدعو إلى الإنفاق والزكاة، ومن هنا يتساءل طه حسين عن هذا الشعر أصادقٌ هو أم كاذب بحيث يعجز عن وصف حقيقة ثابتة في القرآن الذي يمثل جانب الصدق كلِّه .

هـ- الحياة الاجتماعية:

ذكر طه حسين في هذا الشأن الشعر العربي الجاهلي بأنه قد مسّ الحياة العربية في الصحراء والبادية دون الإلمام بالكثير من جوانبها، وأنه لم يهتم بحياة المدر إلا بالقدر اليسير، وهذا شيء لم نجده في شعر الإسلام، كما أن القرآن الكريم تحدث عن البحر والسفن والصيد واللؤلؤ والمرجان وغيرها من هذه النِّعم التي مَنَّ الله بها على العرب، إلاّ أن الشعر الجاهلي لم يتطرق إلى هذه الآلاء والنعم، ولم يذكرها، مع أنهم- أي العربَ- لا يجهلون هذا ولا ينفونه" فأين تجد هذا

أو شيئا من هذا الشعر الجاهلي؟"[1] .

الأدب الجاهلي واللغة:

بعد أن تحدث طه حسين عن السبب الأول الذي دفعه إلى الشك في الشعر الجاهلي في أنه لا يكاد يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية مقارنة مع القرآن الذي اعتبره مرآة تكشف حياة العرب الجاهلين، رأى، من وجهة نظر أخرى، سببا مخالفا تمثَّل في اختلاف اللغة وأنّ هذا الشعر الذي جاء بلغة عربية فصحى تماثِل ما نعرفه من معاني الألفاظ في المعجَمات لَبَعيدٌ كلَّ البعد عن أن يمثل العصر الذي يُظَنُّ بأنه قد قيل فيه، أو بعبارة أخرى، إن هذا الأدب الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية، وراح يسرد لنا سردا تاريخيا في أن علماء العرب قسّموا العرب إلى قحطانيين باليمن وعدنانيين بالحجاز وأن القحطانيين هم عربٌ بالخِلقة ويعرفون بالعرب العاربة، أما العدنانيون فقد تعرّبوا اكتسابا، وكانوا يتكلمون اللغة العبرانية أو الأكادية، ثم إنهم تعلموا لغة القحطانيين، وقد أحسّ هؤلاء العلماء بهذا، ومنهم أبو عمرو بن العلاء الذي قال- حسب ما ذكر طه حسين-:" ما لسان حِمْيَر بلساننا ولا لغتهم بلغتنا " كما أن العلم الحديث اكتشف الفروق بين اللغة التي كان يصطنعها أهل الشمال وبين تلك اللغة التي اصطنعها أهل الجنوب، ثم إنه- وبعد ذِكر أمثلة أوردها الأستاذ جويدي في الفروق بين اللغة العربية واللغة الحميرية- راح يتساءل عن شأن هؤلاء الشعراء القحطانيين الذين كانوا ينزلون اليمن ويتكلمون لغةً غيرَ اللغة العربية بقوله:" ما خَطْبُ هؤلاء الشعراء وما خطب فريقٍ من

---

[1] المصدر السابق. ص: 81 .

الكهان والخطباء يُضـــاف إليهم نثر وســجع، وكلهم يتخذ لشـــعره ونثره اللغةَ العربية الفصـــحى كما نراها في القرآن؟ أما أن هؤلاء الناس كانوا يتكلمون لغتنا العربية الفصحى ففرض لا سبيل إلى الوقوف عنده فيما يتصل بالعصر الجاهلي، فقد ظهر أنهم كانوا يتكلمون لغةً أخرى، أو قل لغاتٍ أخرى"[1].

ويذهب الدكتور إلى فرض آخر وهو كيف أنّ لغة العدنانيين غدت هي اللغةَ التي أنشـــأ فيها القحطانيون الآثار الأدبية، رغم أنّ القحطانين كانوا، بفضل سلطانهم وحضارتهم وسيادتهم، هم الأجدرَ في احتواء العدنانين لا العكس!

الأدب الجاهلي واللهجات:

بعد أن تحدث طه حســين عن الفرق بين لغة القحطانيين والعدنانيين راح يبحث في اللهجات التي كانت تتكلم بها القبائل العدنانية، وذكر أن الرواة القدامى بيّنوا أن هذه القبائل كانت تختلف فيما بينها اختلافا في اللهجة قبل ظهور الإســلام[2] وأن نظرية العزلة العربية التي تحدّث عنها في الحياة الســياســية تجعل من الصــعب أن تتوحد لهجات العرب بسبب الفرقة والتنابذ، لكننا نستطيع أن نقرأ " هذه المطولات أو المعلقات التي يتخذها أنصـــار القديم نموذجا للشـــعر الجاهلي الصـحيح فترى فيها مطولة لامرئ القيس وهو من كِنْدَة أي من قحطان، وأخرى لزهير، وأخرى لعنترة وثالثة لِلَبيد وكلُّهم من قيس، ثم قصيدة لطرفة وقصيدة لعمرو بن كلثوم وقصيدة أخرى للحارث بن

---

[1] في الأدب الجاهلي. طه حسين. ص: 90-91.

[2] ينظر إلى المزهر للسيوطي. من النوع التاسع إلى آخر الثالث عشر: 146/1 إلى 191.

حلزة وكلهم من ربيعة... تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيءٍ يشبه أن يكون اختلافا في اللهجة أو تباعدا في اللغة أو تباينا في مذهب الكلام، البحر العروضي هو هو، وقواعد القافية هي هي، والألفاظ مستعملة في معانيها كما تجدها عند شعراء المسلمين، والمذهب الشعري هو هو"[3].

ثم استطرد في الحديث عن القرآن والأحرف السبع وذهب إلى القول بأننا لابد أن نفهم الأحرف السبع على أنها لغات مختلفة لا قراءات تتمايز ألفاظها في الصورة والشكل لا في المادة واللفظ، واحتج بحديثٍ طويل للطبري في تفسيره. ولما كانت اللغات مختلفة فلا بد أن تدل على أن الشعر الجاهلي يختلف باختلافها خاصة قبل ظهور الإسلام أمّا وقد ظهر فإنه يذهب إلى أنّ القبائل اتخذت لأدبها لغةً مشتركة تنثر فيها وتنظم وهي لغة قريش[1].

الاستشهاد بالشعر الجاهلي على ألفاظ القرآن والحديث:

ختم طه حسين حديثه في موضوع دوافع الشك في الشعر الجاهلي بالتطرق إلى قضية الاستشهاد بهذا الشعر على ألفاظ القرآن والحديث، وذهب إلى القول بأن هذا الشعر " إنما قُدَّ على قَدِّ القرآن والحديث كما يُقَدُّ الثوب على قَدِّ لابسه لا يزيد ولا ينقص عما أراد طولا

---

[3] في الأدب الجاهلي. طه حسين. ص : 95-96.

[1] فصلنا الحديث في اللغة العربية الفصحى و أتينا على آراء عدد من العلماء في الفصل الأول، و ذكرنا رأي طه حسين في أن لغة قريش هي اللغة العربية الفصحى التي فرضت على العرب فرضا أساسه المنفعة و تبادل الحاجات الدينية و السياسية و الاقتصادية.

وسـعة"[2] وشـك في أن يكون هذا العمل بريئا أو مصـادفة، وإنما هو مفتعلٌ أنفق فيه أصحابه بياض الأيام وسواد الليالي حتى حبكوا نسجَه وأبْرَموا حَبْلَه.

2- أسباب نحل الشعر:

انتقل طه حسين بعد ذلك إلى الحديث عن أسباب الانتحال في الشـعر، ورأى أن النّحل ليس مقصـورا على العرب وحدهم، وأتى على أمثلةٍ لأمّتين تشـابهت أدوارُ حضـارتيهما مع الأمة العربية آنذاك وهما اليونان والرومان، وذكر أنّ المحدَثين من مؤرخي الآداب لهاتين الأمّتين قد شكّوا أيضا في هذه الأشعار التي تضاف إلى هوميروس، وهيزيودوس، وإلى هذه المصنَّفات الخالدة كالإلياذة والأوديسة.

وحصـر طه حسـين أسـباب النّحل في السـياسـة والدين والقَصَص والشعوبيّة والرواة:

أولا: السياسة:

حدّد طه حسـين السـياسـةَ وأثرَها في نحل الشـعر بالعصـبيّة القَبَلِيَّة، فهو وبعد اسـتطراده في الحياة الإسـلامية الجديدة والتي كان قِوامُها الصّـراعَ الشّـديد بين النبي ص وخُصـومِه من قومه في مكّة قبل الهجرة، ثم امتداد تلك الخصـومات إلى حروبٍ بعد الهجرة حين اسـتقرّ المسـلمون بالمدينة وأنشـأوا دولتَهم فيها، وراح يتحدّث عن وفاة الرسـول ص وما أحدثته تلك الوفاة من شـقاق وخلاف بين المهاجرين من قريش

---

[2] المصدر السابق. ص: 110.

والأنصار من الأوس والخزرج، وما حدث في خلافة عثمان بن عفان (ض) من خصومةٍ بلغت أوْجَها وتطايرَ شررها، ثم فتنة علي (ض) ومعاوية (ض) وما خلَّفته من عداوات بين الأمويين بعد ذلك وبين باقي الفِرَق والأحزاب من شيعةٍ وموالي وزبيريين وخوارج...

ويذكر أنه بالرغم من حزْم عمر بن الخطاب (ض) وسياسته في نبذِ الفرقة ومنع المسلمين من تذاكر أشعارهم فيما بينهم - قصدَ التذكير بالماضي الحافل كما حدث مع الأنصار حين تذكروا نُصرة النبي ص في المدينة، ومن ثمّة تذكير القرشيين بتلك العداوة وذاك الكفر الذي أبدوه في وجه النبي ص أيام الدعوة الأولى- إلاّ أنّ الأمر لم يستقر على حاله التي خطط لها مما زاد وأشعل نار العصبيّة وإذا كلٌّ من الفريقين يريد أن يقف موقف البطولة والشهامة والسؤدد، وإذا كلٌّ منهما يضيف شعرا ويضعه على لسان شعرائه القدامى، ويستشهد بقول ابن سلام " يحدّثنا (أي ابن سلام) بأنّ قريشا كانت أقلَّ العرب شعرا في الجاهلية فاضطرّها ذلك إلى أن تكون أكثر العرب نحلا للشعر في الإسلام"[1]، وبما أنّ قريشا تُعَدُّ قبيلةً من القبائل العربية فإنّ هذه القبائل لم تشذ عن القاعدة واستكثرت من الشعر حتى يكون قديمُها في الجاهلية خيرَ قديم ومجدُها رفيعا بعيدَ العهد، خاصة عندما استقرّ المسلمون في الأمصار بعد الجهاد والغزو والفتوح والفتن، وإذا كثيرٌ من الحُفَّاظ قد قُتِلوا، وإذا كثيرٌ من الشعر قد ضاع وقليلٌ منه بقيَ بأيدي الناس، وإذا هذه القبائل " في حاجة إلى الشعر تقدِّمه وَقُودا لهذه العصبية المضطرمة، فاستكثرت من الشعر وقالت منه القصائدَ

[1] في الأدب الجاهلي. طه حسين. ص: 132 .

الطِّوال وغير الطوال ونَحَلَتها شعراءَها القدماء"[2].

وقد وصل طه حسين إلى قاعدةٍ علمية مفادها أنّ مؤرخ الآداب مضطرٌّ إلى أن يشك في أيّ شعرٍ جاهلي رأى فيه شيئا مُقَوّيا للعصبية، بل إنّ هذا الشك لابدّ أن يشتدّ" كلّما كانت القبيلة أو العصبيّة التي يؤيّدها هذا الشعر قبيلةً أو عصبيّةً قد لعبت- كما يقولون – دورا في الحياة السياسية للمسلمين"[3].

ثانيا: الدين

رأى طه حسين أنّ للدين أثَراً في تكلّف الشعر ووضعه وإضافته إلى الجاهليين، وأعطى جملةً من الأمثلة منها:

1- الشعر الذي قيل تمهيدا لبعثة النبي ص لِيُرضِيَ طائفة العامة بأنّ علماء العرب وأحبار اليهود ورهبان النصارى كانوا ينتظرون هذه البعثة لإثبات صحّة النبوة وصدق النبي ص.

2- الأشعار التي نُحِلت إلى عرب الجنّ ليثبت واضعوها أن الجن كانت تعلم بوقت البعثة وصدقها، وذلك حتى تؤمن العامة من الناس بهذه المعجزة، وضَرْبٌ آخر من شعر الجن قيل في رثاء عمر بن الخطاب(ض)، وكذا بيتان من الشّعر قيلا في سعد بن عُبادة الأنصاريّ الذي زعموا بأن الجنّ قتلته، وقالت فيه شعرا تفتخر بذلك بعد أن رفض مبايعة أبي بكر الصديق (ض) بعد وفاة الرسول ص.

3- ما أضيف من شعرٍ كان الغرض من ورائه تمجيدَ النبي ص وتعظيمَ شأنه من ناحية أسرته ونسبه في قريش.

---

[2] المصدر نفسه، ص : 132.

[3] المصدر نفسه. ص: 134 .

4- عَمَلُ القصّاصين الذين أضافوا شعرا لتفسير ما يجدونه في القرآن من أخبار الأمم البائدة كعاد وثمود، وما أضافه الرواة على ألسنة هؤلاء، وقد تصدّى ابن سلام لهم في الطبقات وردّ على ابن إسحاق وغيره مما ذُكِر سابقا.

5- شعور المسلمين من عربٍ وموالي بالحاجة الماسّة إلى درس القرآن دراسةً لغوية لإثبات صحة ألفاظه ومعانيه ومطابقته للغة العرب، والحرص على الاستشهاد بألفاظه من شعر العرب حتى لا يرقى إليها شكٌّ في عربيتها .

6- الخصومات التي كانت بين العلماء أنفسهم حين كانوا يحرصون على أن يظهروا دائما بمظهر المنتصرين الغالبين، فتراهم يستشهدون في القرآن والتفسير والحديث والتاريخ وأصناف العلم بالشعر الجاهلي، ولم يكن للعالم " إلاّ أن يمدّ يده إذا احتاج فيظفَرَ بما شاء الله من كلام العرب قبل الإسلام، كأن كلام العرب قبل الإسلام قد وعى كل شيءٍ وأحصى كلَّ شيء"[1]، بل إن استشهادهم لم يقف عند هذا الحدّ فحسب، إنما جاوزه حين انتهت الحضارة العباسية إلى ما انتهت إليه من علمٍ ودقّة فنية فنجد المعتزلة يستشهدون في علومهم بهذا الشعر، وتجد غيرَ المعتزلة من الطوائف الأخرى والمذاهب الفكرية المختلفة يستشهدون هم أيضا في نقض آراء المعتزلة وغيرهم بهذا الشعر.

7- شيوع فكرة أنّ الإسلام يجدّد دينَ إبراهيم الخليل، ووجود بعض الحَنَفِيّين الذين بقوا على هذا الدين وما أُثر عنهم من شعرٍ يتشابه مع الإسلام في الدّعوة إلى التوحيد، وقد رأى طه حسين بأن أحاديث هؤلاء

---

[1] المصدر السابق. ص: 141.

الناس" قد وضعت لهم وحملت عليهم حملا بعد الإسلام لا لشيء إلا ليثبت أنّ للإسلام في بلاد العرب قِدْمةً وسابقة، وعلى هذا النحو تستطيع أن تحمل كل ما تجد من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التي تضاف إلى الجاهليين والتي يظهر بينها وبين ما في القرآن والحديث شَبَهٌ قويٌّ أو ضعيف"[2] ويستنتج، بعد حديث طويل عن شعر أميّة بن أبي الصّلت وشبهه بالقرآن في الحديث عن الأمم السابقة، أنّ هذا الشعر الذي يضاف إليه وإلى غيره من المتحنفين المعاصرين للنبي ص أو الذين جاؤوا بعده إنما نُحِل نحلا ليثبت المسلمون بأن للإسلام – كما ذكر- قِدمةً وسابقة في بلاد العرب.

8- صلة اليهودية والنصرانية بنحل الشعر، حيث أضاف أصحاب هاتين الديانتين شعرا إلى أسلافهم يتعصبون هم أيضا إلى سؤددهم وعزّهم ومجدهم في بلاد العرب كما هو الحال عليه في وضع الشعر على السمو أل بن عاديّاء وعديّ بن زيد وغيرهما .

ثالثا: القصص

لعب القَصَص[1]– باعتباره فنّا يتوسّط بين آداب الخاصّة وآداب العامة- دورا خطيرا في نحل الشعر ووضعه، ذلك أن الذين كانوا يتصدرون حلقاتِه لم يكن لهم بدٌّ من أن يُدخِلوا في قصصهم شعرا منحولا موضوعا على ألسنة مَن يقصّون سِيَرهم في أخبار الأمم السابقة وأخبار المشاهير من الناس الذين أحدثوا نوعا من البطولة في أيام

---

[2] المصدر نفسه. ص: 143وما بعدها.

[1] تحدثنا في الفصل السابق عن القصص و القصاصين في موضوع: " الرواة الوضاعون" يحسن الرجوع إليه.

العرب والعجم، واهتموا في قصصهم بتفسير القرآن والحديث والسيرة والمغازي والفتوح، وأضافوا شعرا كثيرا كانت الغايةُ منه جلبَ اهتمام المستمعين إليهم، كما كان لسياسة الخلفاء دورٌ في هذا، حيث اهتموا بالقُصَّاص واستغلوا قصصهم في مآربهم السياسية كما هو الشأن في استغلال الشعر قبل ذلك، يقول طه حسين:" وأنت تعلم أن القَصَص العربي لا قيمةَ له ولا خطرَ في نفس سامعيه إذا لم يزيّنه الشعر من حينٍ إلى حين...وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون وفوق ما كانوا يشتهون"[2].

وقد اعتمد طه حسين على ابن سلاّم في موقفه من شعر السيرة عند ابن إسحاق وأضرابه من القصّاصين، وذهب إلى أنّ ابن سلام نفسَه انخدع بما انخدع به العلماء في الشعر المنحول، وفي طائفةٍ منه قال بأنها أقدمُ ما قالته العرب من الشعر الصحيح، ولذلك فإنّ طه حسين راح يشكّ في هذه الأبيات إلى تُنسَب إلى جذيمة الأبرش وإلى زهير بن جناب وإلى العنبر بن تميم وإلى مالك وسعد ابنَي زيد مناة وغيرهم، ونخلص في الأخير إلى أنّ مؤرّخَ الآداب لابدّ أن يقف موقفَ الشّاك أمام هذا الشعر الذي يصوّر تفسيرا لقصة أو اسم من الأسماء أو مَثَل من الأمثال، والذي يصوّر أيضا أخبار المعمَّرين من الأمم البائدة أو أخبار العرب وأيامها وما كان بينها وبين الأمم الأجنبية من علاقاتٍ قبل الإسلام كالفرس والحبشة واليهود.

---

[2] في الأدب الجاهلي. طه حسين. ص: 153 و ما بعدها.

رابعا: الشّعوبية

رأى طه حسين أن الشعوبية أسهمت إسهاما كبيرا في وضع الشعر ونحله، ذلك أنّ الموالي من المسلمين في عهد بني العباس أحسّوا بتلك العداوة التي يضمرها لهم العرب، وخاصة بعد أنْ توسّعت رقعة المسلمين وتناحرت الأحزاب والفرق فيما بينها طمَعاً في الملك والخلافة، وكان أن زادت تلك العداوة واضطرمت نارها وعَظُم شَرَرُها، وأصبح كلّ فريقٍ يدافع عن نفسه، فمنهم من تعصّب للعرب لا يعرف أمّةً أخرى تنافسها في المجد والسؤدد، ومنهم من تعصّب للشّعوبية من الفرس خاصة، وشارك في هذه الخصومة العلماءُ والشعراء والأدباء وأهل السياسة والرّياسة، وكان أهل الشعوبية يثبتون في دعاويهم أنّ العرب قبل الإسلام قد شَهِدوا بتفوّق الفرس عليهم وتقربوا إليهم يبتغون الفضل منهم، ويذهب طه حسين إلى أنّ الموالي " انطَقُوا العربَ بكثيرٍ من نثر الكلام وشعره، فيه مدحٌ للفرس وثناءٌ عليهم وتقرّبٌ منهم، وهم زعموا لنا أنّ الأعشى زار كسرى ومدحه وظفر بجوائزه، وهم أضافوا إلى عديّ بن زيد ولقيط بن يعمر وغيرهما... كثيرا من الشعر فيه الإشادة بملوك الفرس وسلطانهم وجيوشهم"[1] .

ثم ما لبِثَ فتيلُ الشّعوبية أنْ اشتعل في العصر العباسي حتى غَدَت شعوبيّةً علميّة، كلّ جانب يدّعي التفوّق في العلم والأدب، فكان منهم أبو عبيدة مَعْمَر بنُ المُثنى الذي كان أشدَّ الناس بُغضا للعرب وازدراءً لهم، وألّف كتابا سماه" مثالب العرب" كما ألّف الجاحظ كتابَ " البيان والتبيين " وردّ في كتاب " العصا " منه على الشعوبية ردّا قويّا مما

---

[1] المصدر السابق. ص: 156.

جعل طه حسين يُرَجِّح أنه مهما بلغ الجاحظ من العلم والأدب إلاّ أنه لا يستطيع أنْ يعصم نفسه من النّحل والوضع الذي اضطُرّ إليه اضطرارا للردّ على الشعوبية، يتساوى في هذا مع أضرابه الذين دافعوا عن العرب أو خصومه الذين ازدرَوهم وحطّوا من قيمتهم.

وما ألّفه الجاحظ في الحيوان وحَشَد مادّتَه العلمية بهذا الكمّ الهائل من الشعر في الحديث عن الحيوانات لَدلالةٌ – عند طه حسين- على أن العرب كانوا يريدون أن يثبتوا للأمم المغلوبة أنّ لهم قوةً وسابقةً في العلم والمعرفة.

خامسا: الرواة

وقف طه حسين على السبب الأخير الذي كان بابا من أبواب نحل الشعر ووضعه وهو هؤلاء النَّفَر من العلماء الذين نقلوا الشعر إلينا والذين عُرِفوا برواة الشعر وحامليه، وذهب في ذلك مذهبَ القدماء من النّقاد الذين شكوا في روايات بعض المطعونين عليهم من شيوخ الرواة كحماد الراوية وخلف الأحمر [1] وأبي عمرو الشيباني الذين فسدت مروءتهم وأحاطت بهم ظروف مختلفة حملتهم على الكذب والوضع .

غير أن الأمر لم يقف عند هؤلاء الرواة فحسب بل جاوزه إلى رواةٍ عرفوا بالأمانة والصدق والثقة كأبي عمرو بن العلاء والأصمعي، إضافةً إلى هؤلاء الرواة من الأعراب الذين دفعت بهم الحاجة والفاقة إلى

---

[1] تناولنا جانبا من الحديث عن حماد و خلف و الشكوك التي دارت حولهما في نحل الشعر و وضعه أثناء الحديث عن ابن سلام و آرائه في قضية الانتحال في الفصل السابق.

الارتحال إلى الأمصـار وبيع ما يملكون من هذه الأشـعار التي نحلوا كثيرا منها والتي رأوا بأنها تجارة مربحة غالية الثمن سـريعة الربح وشـعارهم في ذلك أنّ كثرة الطّلب تستدعي كثرةَ العرض.

ويخلص طه حسـين إلى أن " كلّ شـيء في حياةِ المسـلمين في القرون الثلاثة الأولى كان يدعو إلى نحلِ الشـعر وتلفيقه سـواءً في ذلك الحياةُ الصـالحة حياةُ الأتقياء والبَرَرَة، والحياة السـيّئة حياةُ الفسـق وأصحاب المجون"[2].

3- الشك في نسبة الشعر إلى بعض الشعراء:

في هذا القسـم الخير والذي عَنْوَن له الدكتور طه حسـين بالشعر والشعراء، تحدث عن أنصار القديم من المحدثين وكيف أنهم لا يرون القدامى إلا من زاوية التقديس وأن كلّ عملٍ قاموا به لهو الحقُّ الذي لا يقبل المراء والجدال، وأن كلّ قولٍ لهم لهو المنهاجُ الصحيح والحجة الدامغة لا يكاد يختلف فيه اثنان ولا ينتطح فيه عَنزان، وبعد أن بيّن أن القدامى والمحدثين متساوون في مقاييس الصدق والكذب، والصـواب والخطأ، راح يبحث في شـعر عدد من شـعراء اليمن وربيعة مسـتخدما منهج **ديكارت** الذي بنى عليه كتابه، وخلص إلى أنه ليس لليمن شـعراء في الجاهلية أما ربيعة فحظّها من الشـعر والشـعراء أكثر من حظ اليمنيين وأقلّ من حظّ المضريين.

ومن هؤلاء الشعراء الذين درس شعرهم امرؤ القيس فقد شكّ فيه وشك في ما ينسب إليه من شعرٍ لأسباب كثيرة منها:

* اختلاف الرواة في اسمه وكنيته ونسبه وحياته.

---

[2] المصدر السابق . ص: 175.

* تشابه سيرة حياته- التي جاءت في بعض شعره - مع سيرة شخصية إسلامية كِنْدية من أسرة الأشعث، وهو عبد الرحمن بن الأشعث، مما رجّح دورَ القصاص في نحل هذا الشعر لامرئ القيس اتّقاءً لبطش الأمويين.

* الضعف والاضطراب والتكلف الذي يظهر على الشعر الذي لا يفسّر سيرة امرئ القيس وحياته وقد استثنى منه قصيدتين اثنتين وهما " قِفَا نَبْكِ" و " ألاَ انْعم صَبَاحا أيُّها الطَّلَلُ البَالي".

* نسبة الشاعر إلى اليمن مع أنّ لغة شعره عربيةٌ عدنانية.

وشاعر آخر شك فيه طه حسين وهو عبيد بن الأبرص الذي اعتبره القدامى أحدَ الشعراء الذين تنسب إليهم الخوارق والكرامات، وهو من المعمَّرين أيضا وأحد الذين تنسب إليهم قصص وأحاديث مع الجن، كما أنّ شعره مضطربٌ ضائع.

ولا يكاد يذكر امرؤ القيس إلاّ ويُقْرَن معه علقَمَة الفَحل، وهو شاعر شكّ فيه طه حسين لقلّة ما يعرف عنه من أخبارٍ إلاّ ما أثر عن مفاخرته لامرئ القيس، وإلا ما ذكره في قريشٍ حين كان يأتي إليها وينشدها شعرَه، وإلاّ أنه مات بعد ظهور الإسلام

أما عمرو بن قميئة فهو الشاعر الذي قيل بأنه صَحِب امرأ القيس إلى القسطنطينية وأنه – كما ذكر طه حسين- " ضاع كما ضاع امرؤ القيس من الذاكرة، ولم يُعرَف من أمره شيءٌ إلاّ اسمُه هذا"[1].

كما شك طه حسين في شعر مُهَلْهِل خالِ امرئ القيس وذلك لغموض شخصيته وهَلْهَلَة شعره واضطرابه وملاءمته لقواعد النحو

[1] في الأدب الجاهلي. طه حسين. ص:214.

بالرغم من أنّه أقدمُ شـعرٍ قالته العرب، مع سـهولة في اللّفظ ولينٍ ظاهر.

وأما عمرو بن كلثوم فهو يشـك فيه للأسـباب التي ذكرها في مُهلهِل قبله، ومنها كثرةُ الأسـاطير حول حياته، وسـهولة لفظ شـعره ورقّته، واضطراب معلّقته وتَكرار بعضها.

ويقرن عمرو بن كلثوم بالحارث بن حلزة البكري، والذي لم يعط سـببا للشـك في شـعره بالرغم من أنه أثنى على معلقته الهمزية " آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ " ورأى بأنها أَرْصَنُ وأمتن من معلّقة ابن كلثوم، إلاّ أنه يرجّح أن الذي نحل الهمزية هو من هؤلاء الرواة الأقوياء المحترفين الذين يتخيّرون اللّفظَ ويعرفون تنسـيقَه، وأنّ قصـيدَتي ابن كلثوم والحارث إنما تعودان إلى الخصومة السياسية بين بكر وتغلب في الإسلام لا في الجاهلية .

وشـكّ طه حسـين كذلك في شـعر طرفة بن العبد وخاله المتلمّس؛ فأمّا طرفةُ فقد شـكّ فيما ينسـب له لسـببين: **الأول**: تفرّده وشذوذه عن شعراء ربيعة، حيث كان شعرُه أمتنَ وأرصن وأشدَّ أسْراً، وهو أقرب لشعر المضريين منه لشعر الرّبْعِيين، **والثاني**: يذهب إلى أن بعض أبيات المعلّقة التي وَصَفَ بها النّاقةَ أقرب إلى صنعة العلماء باللّغة، إلاّ أنّه يعترف بأنّ جزءا منها بدويٌّ جاهليّ يصوّر حقيقةَ العربي في الجاهلية، ونعني بها تلك الأبيات التي توضِّح مذهبَ اللّذة والمتعة في الحياة ومذهب الإلحاد كما تصوّره البيئة العربيّة الجاهلية، ومذهب الحزن واليأس الذي يأخذ النّفس الشاردة إلى اللّذة والإلحاد، ولكن طه حسين مع اعترافه بهذا نراه غير مهتمّ إنْ كانت هذه الأبيات لطرفة أم لغيره من الشعراء، ذلك أنّه حُمِل عليه شعرٌ كثير.

وأما المتلمّس فقد شك في شعره الذي وسمه بالرّقة والإسفاف والابتذال وهو يشبه شعرَ الرّبعيين، وأن كثيرا من شعره الذي أضيف إليه إنّما أريد به تفسيرَ جملةٍ من الأمثال والأخبار.

وشاعرٌ آخر من ربيعة يُعَدّ أشهر شعرائها وهو الأعشى، حيث لم يَسلَم هو أيضا من شكِّ طه حسين لتلك الأسباب التي ذكرها سابقا في غيره من الشعراء، ومن ذلك تناقض الأخبار عنه حيث شابتها الأسطورة والخيال والكذب والوضع، وأنّ جزءا كبيرا من شعره في المدح إنما قيل في الإسلام وصنع في الكوفة، ومثّل بشكل جليٍّ ذلك التّحالفَ العصبيّ بين ربيعة واليمن على مُضَر، وأما شعره في الغزل فرأى طه حسين بأنّ فيه لينا شديدا، وخلص إلى القول بأن الأعشى شاعر عاش في آخر العصر الجاهلي، وقال في فنونٍ كثيرةٍ من الشعر إلاّ أن العصبيّة استغلّت شعرَه في المدح فأضافت إليه كثيرا ممّا لم يقل، كما اختلف هذا المنحول من شعره قوّةً وضَعفا.

وينتهي طه حسين بعد هذا إلى أنّ أقدم الشعراء إنما كانوا يمنيين أو ربعيين في عصورٍ لم تتجاوز القرن الرابع للميلاد، وأنّ هؤلاء الشعراء من اليمن أو ربيعة إنما تدلّ أخبارهم على أنّ قبائلهم كانت تعيش في نجد والعراق والجزيرة، وأنهم كوّنوا مع الحجازيين نهضةً عقلية وأدبية لاختلاطهم فيما بينهم، وأنّ هذه النهضة كانت سببا في ظهور الشعر وتطوره واستقامته، إلاّ أنّ هذا الشعر ذهب ومضى ولم يبق منه شيءٌ إلاّ الذّكرى . ومع حلول القرن السادس تغلغلت هذه النهضة إلى أعماق الجزيرة ومسّت أهل الحجاز من المضريين فازداد الشعر قوّةً ومتانة، وأصبحنا نعرف شعر المضريين بعد أن ضاع شعر اليمن وربيعة.

الشعر المُضَري:

استقل هذا العنوان بالكتاب الخامس في مؤلَّف الدكتور طه حسين " في الأدب الجاهلي "وهو نتيجة حتمية بعد أن رفض شعر اليمن في الجاهلية، وكاد يرفض شعر ربيعة أيضا، وأن شعر هذين الفريقين ذهب ومضى، ولم يبق منه شيءٌ إلاّ الذكرى على حدّ قوله.

ولقد بيّن طه حسين أنّ مضر لم تشذ عن القاعدة بل إنها نَحَلت من الشعر كما نَحَل غيرها إرضاءً لعصبيّتها وذهاب شعرها الصحيح، وأنه يقف من شعر مضر موقفَ الشّك والاحتياط لا موقفَ الرفض والإنكار، وذلك أنّ المضريين كانوا يتّخذون لغة قريش التي ظهرت في الحجاز ونَجْد قُبَيل الإسلام، وغدت لغةً أدبية في هذه البلاد العربية عكس لغة اليمنيين والرّبعيين التي بيّنها في أثناء الحديث عن اللغة واللهجات في أسباب ودوافع الشك في الشعر الجاهلي في أوائل هذا الفصل.

ومما سبق القولُ فيه فإنّ النتيجة واحدة أي إنّ شعر المضريين استسلم هو أيضا للوضع والنحل ولم يشذ عما سبقه من شعرٍ في أمم أخرى وأجناس مختلفة، بدوافعَ متباينة، وأنّ علماء الرواية واللغة والشعر اعترفوا بهذا في مثل ما زِيْد في قصيدة أبي طالب في مدح الرسول ﷺ، وفي شعر حسّان بنِ ثابت وأمثاله من الشعراء الجاهليين والمخضرَمين وحتى الإسلاميين، وفي هذا الذي أضافه علماءٌ رواة ثِقات كالأصمعي وغيره إلى شعر الفحول من الشعراء، بل إنّ هذا الشعر المنحول والذي انخدع عنه فَطاحِلُ الرواية وفحولها وعلماء اللغة والنحو لَمِن الصَّعب أنْ نقطعَ فيه برأيٍ ذي حزمٍ وعلم وأن شعر المضريين لَيَحتاج إلى شيءٍ آخرَ متعلِّقٍ به وهو كيف ظهر هذا الشعر وما

هي أوّليّاته ؟ وكيف استقام على الوزن والقافية؟ وساير اللغة والنحو والصرف؟ ثم ما هي الأوزان التي كانت أسبقَ من غيرها إلى الوجود؟ وهل عرفوا المقطوعاتِ الصغارَ قبل القصيدة؟ وهل قالوا شعرا لم يلتزموا فيه بقافيةٍ واحدة؟ وغيرها من التساؤلات التي تكاد تكون لصيقة بأي تاريخ شعري لأمة من الأمم والتي جعلت طه حسين يقرّر بأنّ الشعر المضري " ضاعت كثرته ولم يبق لنا منه إلاّ شيءٌ قليل جدا لا يكاد يمثل شيئا، وهذا المقدار القليل الذي بقي لنا من شعر مضر قد اضطرب وكَثُر فيه الخَلْط والتكلف والنّحل، حتى أصبح من العسير جدا، إنْ لم يكن من المستحيل تخليصُه وتصفيتُه"[1]

مقياس طه حسين في الحكم على صحة الشعر الجاهلي:

بعد أن تحدث طه حسين عن كثرة الشعراء المضريين الذين سجلتهم دواوين العلماء، والغرابة التي تستدعي تلك الكثرة بحيث لا يكاد حيٌّ من أحياء العرب يُذكَر إلاّ و به شعراء كثيرون، مع أن هذا مخالفٌ لطبيعة الأشياء، ورأى- في السياق نفسه - أنّ تطور الحضارة ورقيّها كفيلٌ بتعقّد الحياة وصعوبتها، وبالتالي زيادة الإنتاج المادي والمعنوي وذلك عكس الحياة البدوية البسيطة التي يقلّ فيها ذلك الإنتاج .

وعقد مقارنة بين الحياة البدوية الجاهلية والحياة البدوية للعرب وأمثالهم في الأمم الأخرى في يومنا هذا، وذهب إلى أنّ بَدْوَ العصر الجاهلي ليسوا أقلّ صفاءَ طَبْعٍ ولا أشَدَّ نفاذَ بصيرةٍ وتوقّدَ قريحةٍ وتهيؤاً للشعر من بدو عصرنا، ومع ذلك فإننا لا نجد شعراء باديةٍ بالكثرة بحيث يصبح عددهم أكثرَ من الشعراء المتحضّرين .

---

[1] المصدر السابق . ص : 250.

ونحن لا نشك في أن هذا الطرح وهذه المقارنة إنما هو سهم من سهام الشك في كنانة طه حسين رماه لكي يصل إلى أنّ الرواة والعلماء والمؤلفين كابن سلام وأبي الفرج الأصفهاني تحققوا الأمرَ وفطِنوا له وأحصَوا عددا مقبولا من الشعراء في كتبهم، وبيّن أنّ هؤلاء العلماء وغيرهم في مدارس الرواية والشعر واللغة في البصرة والكوفة وبغداد لم يتّفقوا كثيرا في عدد الشعراء وفيما يضاف إليهم من شعر، مع اختلافٍ في الاحتياط والحذر والتّردد من جهةٍ، وفي القَبول والتّزيّد والاستكثار من جهةٍ أخرى حسب منهاج كلّ مدرسةٍ من هذه المدارس.

ونحسَب، بعد ذلك، أنّ طه حسين إنما قدّم هذا ليخلص إلى المقياس الذي بنى عليه القدماء حكمهم في صحة الشعر ألا وهو نقدُ السّند وتصحيحه مع أنه – حسب رأيه - لا يكفي هذا المقياس من أجل الحكم الصحيح، إذ أنّه قد يكون الراوي ثقةً صادقا محتاطا إلا أنه ينخدع وتذهب حيلته في بعض الشعر، كما قد يكون الراوي ماهرا حاذقا بحيث يخدع الناس ويُظهر لهم مظهر الصّدق والأمانة والثقة، وهو يضرب المثل بأبي عمرو الشّيباني فهو راوية متَّهم في خُلُقِه يشرب الخمر ويتهالك عليها، وهو أيضا كاتبٌ للمصاحف بعد فراغه كلَّ مرّة من جَمْعِ شعر قبيلة، وهو أيضا مُتَّهمٌ بوضع الشعر ونحله.

ولما كان هذا والحالُ هذه فإنّ طه حسين رفض مقياس نقد السّند وتصحيحه، وقد ذكر عدّة مذاهبَ وعناصرَ من هذا المقياس، ورأى بأنها غيرُ مُنجِبة ولا مجدية يشوبها النّقص والخداع منها: **النقد الداخلي** الذي يتناول النّصَّ الشّعري نفسَه من حيث اللّفظُ والمعنى والنحو والعروض والقافية، ثم إنّه يرى بأن هذا النّقد " مع الأسف الشّديد ليس يسيرا ولا مُنتجا الآن بالقياس إلى الشعر الجاهلي، فنحن لا

نســتطيع أن نقول في يقينٍ أو ترجيحٍ علميّ إنّ هـذا النصَّ ملائمٌ من الوجهة اللّغوية للعصــر الجاهلي أو غير ملائم، لأنّ لغة هذا العصــر الجاهلي لم تُضبَط ضبطا تاريخيا ولا علميا صحيحا، وكلُّ ما صحّ لدينا منها صحة قاطعة، ولكنها في حاجةٍ إلى التّدوين، إنما هي لغةُ القرآن"[1].

وأما المذهب الثاني فهم القائلون بغرابة اللّفظ وكيف أنهم اطمأنّوا إلى هذا المقياس للحُكم على صحّة الشـعر الجاهلي، واعتبر طه حســين أن هذا المذهب مذهبٌ خدّاع، وأنه ليس بالإمكان جعلُ غرابة اللّفظ تدلّ على الصّحة والقِدَم، في حين تدلّ سهولةُ اللفظ ويسرُه على نحل الشعر وجِدَّته.

وقد ذكر مذهبا آخر اعتمده قومٌ يريدون به اتّخاذ المعنى دون اللفظ ســببا في التماس الشــعر الصـحيح والمنحول، وأنّ الشــعراء الجـاهليين لهم معـانٍ خـاصــةٌ بهم تبعـا لظروف حيـاتهم وبيئتهم الاجتماعية، وهذه العوامل تجعل الشــعر يخضــع لِصــور وأغراضَ وموضــوعاتٍ خاصــة بتلك البيئة، وبتلك الظروف. وقد رأى أنّ مذهبَي اللّفظ والمعنى لا يمكن أن نضع أيدينا- من خلالهم- على الشعر الجاهليّ الصحيح لأنّ هنالك من الرواة الوضّاعين مَن يستطيع أن يخدعَنا بحيث يســتطيع تقليدَ شــعراء البادية في ألفاظهم ومعانيهم. وضــرب أمثلة عن خلف الأحمر وحمّاد الراوية في حُســن التّقليد والخداع حتى لَيَصْــعب ذلـك على الرواة الثّقـات المحقّقين، وقـد اعترف الخليـل بن أحمـد الفراهيدي وابن سلام بهذا الأمر الذي ذكرناه سابقا[2].

---

[1] في الأدب الجاهلي. طه حسين. ص: 259 .

[2] ينظر إلى قول الخليل في المزهر: 135/1 و قول ابن سلام في الطبقات (46/1 – 47

وانتهى طه حسين إلى مقياسٍ رأى بأنه ليس دقيقا إلى حدّ كبير ولكنه قد ينتهي إلى الترجيح الذي يقرّب إلى اليقين، وهذا المقياسُ المركَّب الذي لا نعتمد فيه على اللّفظ وحده ولا على المعنى وحده وإنما " نعتمد على اللفظ والمعنى وعلى أشياءَ أخرى فنيّةٍ وتاريخية، ومن مجموع هذه الأشياء كلِّها نستخلص لأنفسنا مقياسا يقرّب إلينا صوابَ الرأي في هذا الشعر الجاهلي المضري"[3].

وهذه الأشياء التي تحدّث عنها هي" **الخصائص الفنية**" سواءً عند شاعرٍ واحد فقط من خلال آثاره المتعددة - وأعطى مثالا بامرئ القيس، ولكنه عاد إلى الشكّ في أن يكون راوية واحد هو الذي أضاف إلى امرئ القيس شعرا تميز به وأصبح له ميزة فنية خاصة به تجعلنا نخدع فيه - أو عند مجموعة من الشعراء يشتركون في خصائصَ فنيةٍ واحدة يشكِّلون مدرسةً شعرية تُبعِد عنّا فكرةَ الراوي الواحد وقد مثّل لهذا بمدرسة أوس بن حجر، حيث أخرج صفات وخصائص هذه المدرسة التي منها زهير بن أبي سُلمى وكعب والحطيئة والنابغة الذبياني، ورأى بأنهم يشتركون في ميزتين هما:

1– الخيال الماديّ المتأثّر بالحسّ.

2- اتخاذ الشّعر حِرفةً وصناعةً وفنّا يُدرَس ويُعَلَّم .

) و قولاهما مذكوران في موضوع" ابن سلام و آراؤه حول قضية الانتحال" من الفصل السابق .

[3] في الأدب الجاهلي. طه حسين. ص: 267.

أهم الرّدود على كتاب طه حسين:

أشـرنا سـابقا إلى أنّ كتاب طه حسـين قد أثار ضـجّة كبيرة في الأوسـاط الأدبية والدينية في مصـر آنذاك، حيث تصـدّت مجموعة من العلماء والأدباء إلى الكتاب الأول " في الشـعر الجاهلي" ووصلت الأمور إلى أروقة المحاكم تنادي بإعدام الكتاب وفَصْـلِ مؤلّفه من الجامعة بعد أن اتّهموه بقذف الدِّين الإسلامي بحجّة البحث الحر[1].

ولكنّ الذي يهمّنا في هذا هو تلك الردود التي أذاعها أصـحابها على صـفحات الجرائد والصـحف آنذاك، منها ماكان ردّا لاذعا فيه الحماسـة والعاطفة، ومنها مَنِ اعتدل فيها أصحابها بأسـلوبٍ علميّ بحت غرضه تبيان الحقيقة في أسلوب هادئ.

وقد جُمِعت هذه المقالات في كتبٍ أهمّها " نقد كتاب الشـعر الجاهلي " لمحمد فريد وجدي، وكتاب " الشِّـهاب الرّاصـد " لمحمد لطفي جمعة، و " نقض كتاب في الشـعر الجاهلي " لمحمد الخضـر حسـين، وكتاب " محاضرات في بيان الأخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشـعر الجاهلي " للشـيخ محمد الخضـري، وكتاب " النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي " لمحمد أحمد الغمراوي، وفصـول من كتاب " تحت راية القرآن " للرافعي.

---

[1] ينظر في ذلك إلى كتاب: تحت راية القرآن. للرافعي . ص: 279، و ما بعدها حيث نقل الرافعي جزءا من المحاكمة ونَقْضِ العلماء للكتاب و رأي مجلس الوزراء و مجلس الجامعة فيه وفي صاحبه .

كما اهتمّت كتبٌ بموضـوع الانتحال في الشـعر العربي القديم منها " الشعر الجاهلي " لفؤاد إفرام البستاني في سلسلة " الروائع " سنة 1927م، كما خصّ الأستاذ ناصر الدين الأسد في بحثه رسالة الدكتوراه " مصـادر الشـعر الجاهلي وقيمتها التاريخية " البابَ الرابع منه لبحث الموضوع الذي يُعَدُّ أوسعَ مادةً وأشمل، كما كتب الدكتور شوقي ضيف بعض الصفحات في كتابه العصر الجاهلي في الموضوع نفسه، وأضاف أحمد الحوفي موضـوع توثيق الشـعر الجاهلي إلى الطبعة الرابعة من كتابه " الحياة العربية في الشعر الجاهلي "، وألّف الأستاذ عبد الحميد المسلوت كتاباً اسمه " نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي "، وأضاف الأستاذ علي جواد الطاهر بحثا بعنوان " الشعر المفتَعَل الموضوع عند ابن سلام ".

لقد يكون من العمل الشّاق أن تُجمَع آراءُ كلّ هؤلاء العلماء في الرد على كتاب طه حسين، حتى إنّه لَيَكاد يصبح عملا يحتاج إلى فراغٍ وسعة اطّلاعٍ وطول نَفَسٍ وعِظَمِ جَهد، وإلى كتب تفرغ له ولا تجاوزه إلى غيره من المباحث والموضوعات الأخرى، ولكننا – رغم عدم توفر هاته الكتب وندرتها – نحاول أن نلخّص أهمّ ما جاء فيها مع الردّ على ما ذكرناه سابقا من حجج طه حسين وآرائه في صحة الشعر الجاهلي وأسباب انتحاله مرتبين تلك الردود حسب ما ذكر الأوّل فالأول:

1- الحياة الدينية:

ذكر طه حسين أنّ هذا الشعر لا يمثل الحياة الدينية للجاهليين التي وصفها القرآن، والتي أوضح من خلالها أنّ العرب كانت أمّة متديّنة شديدةَ التديّن، في حين لا نكاد نلمس ذلك في هذا الشعر المنسوب إليهم، فرد عليهم **محمد الخضر حسين** بأن " هذه الشبهة مما

استلبه المؤلف من مقال **مرجليوث** حيث يقول: تجد في هذه الأشعار ما يبعث على الدهشة، فشعراء كلِّ أمّة يشرحون دينهم وعقائدهم شرحا واضحا، والمخطوطات العربية مملوءةٌ بذلك، ففي كلِّ مخطوطة نجد اسمَ معبودٍ أو أكثر وأشياء تتعلق بعباداتهم... وقلّما نعثر في هذه الأشعار على شيءٍ يتعلّق بالدّين إلاّ نادرا "[1] .

وخلص إلى أن معظم شعر العرب إنما كان في الفخر والحماسة، وأن المسلمين لم يهتموا برواية الشعر الذي لا يمثّل دينَ الإسلام، بعد أنْ تبيّن لهم بطلانُه، لكن مع ذلك فقد وصل إلينا بعضُ الشعر الذي يمثّل دينَ الجاهلية مما نجده في كتاب الأصنام لابن الكلبي وغيره .

وفي السياق نفسه رأى الدكتور علي الجندي أنّ مثل هذه النصوص الشعرية التي تمثل الجانب الديني والعقائديَّ لا يُنْتَظَرُ خلودُها " لأنها كانت في عقيدةٍ فاسدة، وطقوسٍ دينية باطلة، جاء الدين الإسلامي لمحاربتها والقضاء عليها، لن يُنتَظَر من العرب أن يحافظوا عليها، وهم قد دخلوا في دين الله أفواجا" [2] ومع ذلك فإن في كتب المؤلفين القدامى كابن سلام وصاحب الأغاني وكتب السيرة ذكراً لأبياتٍ قالها مشركون أيام الدعوة الإسلامية وحروب الغزوات من مثل أميّة بن أبي الصّلت وعبد الله بن الزِّبَعْرَى قبل إسلامه، كما احتفظ لنا القدماء

---

[1] نقض كتاب في الشعر الجاهلي. محمد الخضر حسين. المكتبة العلمية. بيروت (د.ت) ص: 47 .

[2] في تاريخ الأدب الجاهلي.علي الجندي. ص: 188- 189 .

بأبيات تذكر دياناتِ العرب من مثل قول امرئ القيس [3]:

أَحَارِ تَرَى بَرِيقاً هَبَّ وَهْنا كَنَارِ مَجُوسٍ تَسْتَعِرُ اسْتِعَارا

وقوله أيضا [4]:

فَأَدْرَكْتُه يَأخُذْن بِالسَّاقِ والسَّنَا كَمَا يُشْرِقُ الوِلْدَانُ ثَوبَ المقَدَّسِ

وقول طرفة بن العبد يخاطب عمرو بن هند[1]:

إنِّي وَجَدِّكَ مَا هَجَوتُكَ و الْ أَنصَابِ يسْفَحُ بينَهُنَّ دَمُ

وأما الأستاذ **الغمراوي** فقد أنكر بأن القرآن قد صور عرب الجاهلية بأنهم شديدو التدين ورأى بأن هذا الأمر" لا ينطبق إلا على أهل مكة والمدينة، ومن جاورهم لم يكونوا جملة العرب ولا جمهَرَتهم، فمن الخطأ الواضح إذاً أن يجعل الدكتور ما ينطبق عليهم ينطبق على جميع العرب، وأنْ يستند في ذلك على القرآن"[2].

2- الحياة العقلية :

رأى طه حسين أنّ القرآن يمثل حياة العرب بأنها حياة عقلية قوية، وأن أصحابها إنما لهم قدرة على الجدال والخصام وليسوا كما يمثلهم هذا الشعر، فردّ عليه **محمد الخضر** بأن هذا الكلام أُخِذ من

---

[3] ديوان امرئ القيس. دار المعارف. 1965. ص 147. البيت:01، و قيل في شرحه إنه بالغ في وصف النار بقوله تستعر استعارا، خص نار المجوس لأنهم عبدتها، فنارهم أعظم و اشد استعارا .

[4] المصدر نفسه. ص 104. البيت 14.

[1] ديوان طرفة بن العبد. نشر علي الجندي. الدار المصرية.1961. البيت 403 .

[2] مصادر الشعر الجاهلي. ناصر الأسد. ص 412 .

الجاحظ في البيان والتبيين، ومما جاء منه قول الجاحظ:" وذكر الله عزّ وجل لنبيه عليه السلام حالَ قريش في بلاغةِ المنطق ورجاحة الأحلام وصحّة العقول، وذكر العرب وما فيها من الدهاء والنكراء والمكر ومن بلاغة الألسنة واللَّدَدِ عند الخصومة فقال تعالى:﴿ فإذا ذهب الخوفُ سَلَقُوكم بألسِنَةٍ حِدَاد﴾ ثم ذكر خلابة ألسنتهم واستمالتهم الأسماعَ بحُسن منطقهم فقال:﴿ وإن يقولوا تسمَعْ لقولهم﴾[3].

ويذهب الشيخ إلى أنّ " في الشعر الجاهلي معان سامية وحكمة صادقة، ومن يقرؤه خاليَ الذهن من كلّ ما قيل فيه، يقضي العجب من ذكاء مُنشئيه وسعة خيالهم واقصائهم النّظرَ في تأليف المعاني والتصرف في فنون الكلام"[4].

وأما الأستاذ **علي الجندي** فإنه يوافق الأستاذ الغمراوي في ردّه على هذه النقطة بقوله:" فأما الحظّ الذي أنفقه القرآن في الجهاد بالحجّة فعظيم، لكنّ عظمه لم يكن ناشئا عن عظم قدرةٍ على الجدال كانت عند المجادلين، ولا عن حسن بصرهم بمواطن الحجة، بل كان ناشئا عن عظم رسوخ ما كان يجاهده القرآن فيهم من اعتقادات وعادات تأصّلت فيهم على مرّ القرون، فالقرآن أنفق ذلك الحظ العظيم من جهاد العادة لا في جهاد مقدرة على المخاصمة"[5] .

وظاهر من قوله هذا أنّ الجاهليين لم يكونوا أصحاب قوة

---

[3]البيان و التبيان. الجاحظ . 1/8- 9 .

[4]نقض كتاب في الشعر الجاهلي. محمد الخضر.ص: 51 .

[5] في تاريخ الأدب الجاهلي. علي الجندي. ص 191.

عقلية بقدر ما كانت تلك العقيدة التي يعتقدونها مشوّهة وراسخة، حتى إنّه لَيَصعب تخليصهم منها إلا بجهد جهيد وحظ من المقاومة شديد .

3-الحياة السياسية :

رأى طه حسين أن الشعر الجاهلي يمثل العرب أمةً معتزلة، في حين يصوّرها القرآن بأنها أمة تعرف العالم الخارجي وتتصل به، أدى بها، في الأخير، إلى الانقسام إلى فرق وشِيَعٍ يناصر بعضها الفرس، وبعضها الآخر يشايع الروم .

غير أنه من الحق القول بأن العرب لم تكن أمة معتزلة ، وظاهر أن شعر بعض شعرائها ليثبت اتصالهم بالأمم الأخرى ،وأن أبا الصّلت رحل إلى سيف بن ذي يَزَن مهنّئا له بانتصاره على الحبشة وأنشد بين يديه قوله :[1]

لله دَرُّهم مِن عُصْبَةٍ خَرَجُوا مَا إِنْ تَرَى لهم في النَّاسِ أمثَالا
بِيضاً مَرَازِبَةً غُرًّا جَحَاجِحَةً أُسْداً تربّبُ في الغَيْضَاتِ أشْبَالا
لا يَرْمَضُون إذا حَرَّتْ مَغَافِرُهُم ولا تَرَى مِنْهُمُ فِي الطَّعنِ مَيَّالا
مِن مِثلِ كِسْرَى وسابُورُ الجُنُود له أو مِثلِ وهْرز يومَ الجَيشِ إذْ صَالا
فاشْرِبْ هَنِيئاً عَلَيكَ التَّاجُ مُرتَفقا في رَأسِ غُمدانَ دَاراً مِنْكَ مِحْلالا

أما الأستاذ الخضر حسين، فقد تحدث عن استشهاد طه حسين بآيتين من القرآن الكريم إحداهما: «ألم غلبت الرّوم في أدنى الأرض...» والثانية:« لإيلاف قريش...» وحرص على أنّ الدكتور لم يستشف من القرآن مباشرة تلك الرحلة إلى اليمن شتاءً وتلك الأخرى إلى الشام صيفا بل أخذ التفسير عن المفسّرين والمؤرّخين، إذ قد يكون "

[1] طبقات فحول الشعراء . ابن سلام .260/1.

من المحتمل أن تكون رحلتُهم إلى حيث تقيم بعضُ القبائل الأخرى كقيس أو تميم، ولكن المفسرين بحثوا في طريق الرواية فعرفوا أن رحلتهم الشتائية كانت إلى اليمن، ورحلتهم الصيفية كانت إلى الشام"[2].

كما أن سورة الروم في صدر آياتها لا تدل صراحة على أن الحرب قد وقعت بين الروم والفرس، ولا تدل كذلك على أن العرب انشطروا حزبين: حزبٍ يناصر الروم وآخرَ يشايع الفرس.

4- الحياة الاقتصادية:

ذهب طه حسين إلى أنّ القرآن كان عكسَ الشعر الجاهلي في تمثيل الحياة الاقتصادية المتعفّنة عند العرب آنذاك، حيث فيه تصويرٌ لحياة الأغنياء المستأثرين بالثروة والجاه والسلطان، وفيه تصوير آخر لحياة المستضعَفين في الأرض، والذين لاقَوا آثار الرّبا والبخل والفقر والطمع والجشع، ولكن أيّ أدبٍ هذا- حسب طه حسين- الذي لا يمثّل فقر الفقير، وشكواه وآلامه، ألم يكن من الطّبيعي أنْ يسخط أحد الشعراء الفقراء فيصوّرَ ظلم الأغنياء، أو أن تأخذ العزّةُ بالإثم أحدَ الأغنياء فيصوّرَ ظلمَه وأذاه للفقراء.

وقد رُدَّ على طه حسين ما ذكره، وذهب بعض من ردّ عليه إلى القول:" فإذا كان الأدب الجاهلي قد خلا حقا من ذكر الربا فلن يكون في ذلك دليلٌ على أن الأدب الجاهلي موضوع".[1]

ثم إن الشعراء – حسب الدكتور **على جواد**- مُكرَمُون في

---

[2] نقض كتاب في الشعر الجاهلي. الخضر حسين. ص : 62.

[1] مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. ناصر الدين الأسد. ص: 415.

قبائلهم وفي غير قبائلهم ومبجّلون على غيرهم من الناس حيث تُقْضى حوائجُهم في يُسرٍ ومن دون مشقة لرغبةٍ في مديح أو نفور من هجاء، ولذلك فإن الأغنياء ربما أعاروا شاعرا ما بعض المال ولكن من دون ربا تملّقا له وتظاهرا بإكرامه[2] بل إننا نرى شاعرا كالحطيئة قام بهجاء الزبرقان بن بدر لأنّه أحسّ بالإهانة وعدم الإكرام وقلة الاحترام والتبجيل.

الشعر الجاهلي واللغة:

لم يسلم الدليل اللغوي الذي ساقه طه حسين حول لغة القحطانيين والعدنانيين واختلافهما، مما يجعل من الصعوبة بمكان أن ينشئ فريقٌ من الشعراء، يتَّخِذون لغةَ أهل الجنوب لِسانا، شعرا يطابق لغةَ أهل الشمال حتى كأنهما وجهان لعملة واحدة، وراح المشكِّكون في ذلك من العلماء يردّون على طه حسين مقالتَه هذه، حيث رأى محمد الخضر حسين أن أدلّة طه حسين مأخوذةٌ من مرجليوث،وذهب إلى أن مرجليوث وطه حسين لا يشكّان في أنّ اللّغتين اتّصلتا بعد ظهور الإسلام، وأصبحتا كلغة واحدة، ولكن الاختلاف معهما حول هاتين اللغتين قبل ظهور الإسلام، ذلك أنّ اتحادَهما ناشئٌ من قرب تشابههما، وأن هذا التشابه هيّأهُما ليكونا لغة واحدة، وأنه لمن الصعب، إن لم يكن من المستحيل، أن تتّحِد لغتان لا تتقاربان تقاربا تاما من حيث المفرداتُ وقواعد النحو ومخارج الحروف ودلالة المعاني على الألفاظ، خاصة وإنْ كان هذا التقارب من القبائل القحطانيّة التي كانت تجاور القبائلَ العدنانية مباشرةً، والتي ارتاضَت ألسنة أهلها على لغةٍ تشبه

---

[2] ينظر في: تاريخ الأدب الجاهلي.علي جواد . ص: 193-198.

اللغةَ العدنانية.

وأعطى **محمدالخضرحسين** أمثلةً عن الوفود اليمانية [1] التي وفدت على النبي**ص**وخاطبته بلغةٍ هي أقربُ إلى العدنانية منها إلى لغات أخرى، وعرّج الأستاذ نفسُه إلى مقولة أبي عمرو بن العلاء والتي نقلها ابن سلام في الطبقات:" ما لسانُ حِمْيَرَ وأقَاصِي اليَمَن لساننا ولا عربيّتُهم بعربيّتنا"[2] وذكر أن طه حسين حرّف القولَ تحريفا رفيقا وحوّل قوله:" ولا عربيتهم بعربيتنا " إلى " وما لغتهم بلغتنا " لكي يبالغ في الفصل بين اللغتين، ولكي يبعد القارئ عن أن يفهم من قول أبي عمرو:" ولا عربيتهم بعربيتنا " أنّ اللغة القحطانية لغةٌ عربية مثلها مثل اللغة العدنانية، ولكن الاختلاف إنما يمتد إلى بعض مناطق الجنوب، ولذلك أيضا حذف طه حسين قول أبي عمرو:" وأقاصي اليمن" حتى لا يفهم أحدٌ أنّ هناك مناطقَ بعينها حُدِّدَت، وأنه يمكن أن تكون بعض قبائل اليمن المتاخمة للعدنايين قد اتخذت اللغة المضرية لغةً تتكلم بها وتنظم فيها.

وقد ذهب الدكتور **عليالجندي** إلى ما اعتبره رأيا معقولا في هذه المسألة حين يذكر أنّ " لغة الأدب كانت واحدة بين الجنوبيين والشماليين، فقد كان الأدباء في اليمن يؤلّفون بها أدبهم...و هذه اللغة هي اللغة العربية الفصحى، وليس بعجيبٍ أنْ يحدث ذلك بين القِسمَين

---

[1] من أمثلة ذلك: خطبة طهفة بن أبي زهير النهدي اليمني حين وفد على النبي ص يشكو إليه الجدب، و خطاب مالك بن نمط الهمذاني، (ينظر: نقض كتاب في الشعر الجاهلي، ص : 72 و 73).

[2] طبقات فحول الشعراء . ابن سلام. 11/1. و المزهر للسيوطي: 137/1 .

وإن اختلفت لهجاتهم، كما هو حادثٌ الآن بين جميع أقطار العالم العربي، فكلُّ قطرٍ يتكلم بلهجةٍ تختلف عن اللهجات الأخرى في أحاديثهم اليومية... فإذا جاء دور اللغة الأدبية اتحدت على جميع الألسنة في جميع الأقطار"[3].

وأما الأستاذ **محمد لطفي جمعة**، وفي حديثه عن الرواة ذكر أنّ هؤلاء الرواة العلماء هم الذين نقلوا إلينا هذا الشعر الجاهلي، ومن هذا الشعر ما يُنسَب إلى عرب اليمن، وأن هؤلاء الرواة أنفسهم كانوا يعرفون الفروق بين لغة القحطانيين ولغة العدنانيين، وإنه لمن الخطأ المفضوح أن نسلِّم بأن عددا من هؤلاء الرواة، ومنهم مَن كان عالما بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم كحماد وأمثاله، قد وقع في فخٍّ ضيِّق، إذ كيف يُعقَل أنّ راوية كحمّاد العالم باللغات يقع في هذا الخطأ وينقل إلينا شعرا مضريَّ اللغة قاله شعراء لا ينتسبون إلى العدنانيين!؟.[4]

الشعر الجاهلي واللهجات :

ذكر طه حسين في هذا الموضوع اختلافَ لهجات العرب من بني عدنان، حيث رأى أن هذا الاختلاف كان حريّا أن ينتج عنه شعرٌ عربي مختلفٌ عن بعضه البعض، لكن حين تقرأ المعلقات وغيرها تجد أنّ اللغة والعروض والنحو تتطابق فيما بينها تطابقا تاما، مع أن الشعراء كانوا ينتمون إلى قبائل منها اليَمَنِيُّ ومنها القَيْسِيُّ والرَّبْعِيُّ، وذهب إلى أنّ

---

[3] في تاريخ الأدب الجاهلي. علي الجندي. ص: 207 و ما بعدها.

[4] ينظر: مصادر الأدب الجاهلي و قيمتها التاريخية. ناصر الدين الأسد. ص: 418 و ما بعدها.

الشعر إنما قيل على لغة واحدة هي لغة قريش وذلك بعد ظهور الإسلام حيث كان لزاما على القبائل أن تتّخذ لنفسها لغةً مشتركة تنظم فيها وتنثر.

وقد ردّ الأستاذ **محمد الخضر حسين** على طه حسين رأيَه هذا وآراء أخرى في الفصل نفسِه[1]، وعلّق على أنّ العرب في الجاهلية، ومع اختلاف لهجاتهم، أنشأوا لأنفسهم لهجةً مختارة واسعة النّطاق من لغات شتّى، وبهذه اللغات الضّاربة في أنحاء الجزيرة العربية نزل القرآن الكريم، ولم يكن على الكِنـدِيّ والرّبعيّ والقَيْسِيّ والتَّمِيمِيّ والقُرَشِيّ وغيرهم أيّ صعوبة في فهم القرآن وألفاظه ومعانيه، بل إن هذه الألفاظ التي يمكن أن تنطق بها في هيئات مختلفة لدليلٌ على وحدة اللغة بين قبائل العرب العدنانية، وهي دليل آخر يردّ على طه حسين الذي قال بنظرية العزلة العربية وتنابذ القبائل فيما بينهم، إلا أن لسان الحال ينطق باتصال العرب فيما بينهم وأخذِهم كلامَ بعض حتى جعل اللغة العربية كثيرةَ المترادفات والألفاظ المشتركة والتضاد،الأمر الذي سمح للفصحاء منهم الذين تربّت ألسنتهم على هذه اللغة الواحدة أن ينظموا وينثروا فيها.

أما الأستاذ **الخضري** فقد تساءل عن كيفية ظهور تباين اللهجات في الشعر، خاصة وإنْ كان الاختلاف مبنيّا على أمور لا تؤثر في أوزان الشعر وتقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام كالإمالة والتفخيم والإدغام والتسكين والمد وغير ذلك، وقد ذهب إلى القول:"... لا أفهم تأثير الإمالة والتفخيم في بحر الشعر وقافيته، فإنّ مُفَخِّم الألف

---

[1]نقض كتاب في الشعر الجاهلي. محمد الخضر حسين. ص: 96 و ما بعدها.

ينشـــد:" قِفَا نَبْكِ من ذكرى حَبِيبٍ ومَنزِلِ" بأَلِفٍ مُفَخَّمة كما ينشـــدها المميل بألِفٍ مُمالة، فلا يتغير في البيت حركة ولا سكون...".[2]

نقد أسباب نحل الشعر:

ذكرنا فيما سبق من هذا الفصل أن الدكتور طه حسين قصر أسباب النحل في السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة.

1- السياسة:

ذهب النقاد إلى أن الدكتور طه حسين كان بعيدا عن الفصل الذي جعل السياسةَ ونحلَ الشعر عنوانا له، وأنه قد أفاض في موضوع العصبية في صدر الإسلام وعهد بني أمية، وما كان من عداوة وبغضاء بين النبي ص والكفار، وما حدث من خلافٍبين المهاجرين و الأنصـــار بعد وفاته ص، وإذا هو يذهب إلى أنّ قريشـا أخذت تزيد في الأشـعار وتنحلها لكي تدافع بها عن نفسها أمام الأنصار، وإذا الأنصار هم أيضا يزيدون في شـعر شـعرائهم في الجاهلية كي تضـطرم هذه النار بوقود العصـبية ويلحق الآخرُ بالأول والضّعيفُ بالقويّ والذّليلُ بالعزيز.

غير أن طه حسـين، إذ يورد هذا السـبب، قد خلط العصـبية بالسـياسـة، واستشـهد بأشـعارٍ كلُّها من الشـعر الإسلامي وليس فيها بيت جاهلي واحد، وإنّ القارئ للشـعر الجاهلي لَيَجد أنه لم تخل قصـيدة من عصبية جاهلية، بل كانت هذه العصبية هي الملهم للنزعة الشـعرية، وإن كان هذا والحال هذه، فإننا أمام إشـكالية صـعبة وهي هل نشـك في كلّ قصيدة جاهلية نشتم من ورائها رائحةَ العصبية والفخر بالأهل والقبيلة.

---

[2] مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية . ناصر الدين الأسد. ص: 420.

أما الأستاذ محمد الخضر فقد ختم ردّه في باب" السياسة وانتحال الشعر" بالتأكيد على أنّ طه حسين عقد الفصل في نحو عشرين صحيفة في قضيّة تحدّث عنها القدامى والمحدثون وأفاضوا فيها وهي العصبية في صدر الإسلام وعهد بني أمية وأنه " لم يأت بمقدمات تنتج أن في الشعر الجاهلي ما اصْطُنِع لغاية سياسية"[1]، ووصل إلى حدّ التّحدّي بقوله:" ومَن أراد أن يقرّر أنّ من الشعر الجاهلي ما افتُعِل لغرض سياسي ويضعَ لذلك عنوانا يكتبه بأحرف ممتازةٍ فليأتِ ولو بمَثَل أو مَثَلين واضحين ويُرِح القارئ من أقوالٍ لا تقع في عين الموضوع فضلاً عمّا فيها من صَبْغ بعض الوقائع بألوان لا تلائمها".[2]

وفي القصد نفسه ذكر الشيخ محمد الخضري أنّ طه حسين، وبالرّغم من أنه أستاذ كبير، أَفَلَم يكن من الواجب عليه " أنْ يذكر لقرّاء كتابه بعضَ الشعر الذي وضعته قريش في الإسلام، ونسبته إلى بعض شعرائهم في الجاهلية، وكان الداعي إلى وضعه السياسةَ؟ إنه لم يذكر شيئا من ذلك، وكان كلامه حول الشعر الذي قيل في العهد الإسلامي، وليس لهذا وضع الشيخُ كتابَه".[1]

وإن من باب الإنصاف في هذه القضية أنْ تُرَدَّ الأمور إلى مواضعها، وإنه من شروط البحث أن يرسوَ على قاعدةٍ متينة يرضاها العلم، وإنّ ما قال به الثّقات من العلماء والنقاد والرواة السابقين واطمأنوا إليه في هذا الشأن لَحَرِيٌّ أن يُتَّبعَ ما لم يقم عليه برهانٌ ثابت

---

[1] نقض كتاب في الشعر الجاهلي . محمد الخضر حسين . ص: 185.

[2] المصدر نفسه . الصفحة نفسها.

[1] مصادر الشعر الجاهلي و قيمتها التاريخية. ناصر الدين الأسد. ص : 423 .

بالدّليل فيقطع بخلافه، ولكن أنَّى يستقيمُ لنا هذا الأمر؟.

2- الدين:

أرجع الدكتور طه حسين مسألة الدين ونحل الشعر إلى مسائل أهمها:

ما قيل من الشعر تمهيدا لبعثة النبي ص وما نُسب إلى الأحبار والكهان، وما أضيف إلى الجن، وما اتّصل لتعظيم شأن النبي ص من ناحية أسرته ونسبه من قريش، وما نُسِب إلى الأمم القديمة عند تفسير الآيات، وما نسب إلى الموحِّدين من أتباع دين إبراهيم(عليه السلام) وما أضيف إلى شعراء اليهود والنصارى.

وقد حاول الأستاذ **عليالجندي** أن يناقش موضوع الشعر الذي قيل تمهيدا لبعثة النبي ورأى أن الثورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية إنما تحدث بعد تدهورٍ وفوضى وفساد، فينهض المصلحون وذوو العقول إلى التماس الحلول الناجعة، والبحث عن وسائل الإصلاح، ويلهمهم الله لأمرٍ مقدَّر، ولسان الحال أنَّ الأزمةَ تلد الهمَّة ولا يتّسع الأمرُ إلاّ إذا ضاق.

وإذا كان هذا الشأن بالنسبة إلى نواحي الحياة العلمية " فلماذا لا يكون ذلك في النواحي الروحية ؟ لماذا لا يحدث ذلك في الناحية الدينية حينما تنتشر فيها الفوضى ويعم الفساد ويسود الجهل ويضل الإنسان الطريق الصحيح إلى الدين القويم".[2]

وعلى ذلك فإنه من الممكن أن تكون قبيل بعثة النبي ص فئةٌ من الناس قد صفت نفوسهم وهداهم تفكيرهم السليم إلى حقيقة

---

[2] في تاريخ الأدب الجاهلي.علي الجندي. ص: 223.

وجودهم وفلسفة خَلْقِهم، فسعوا إلى التحقّق من الدّين القويم، وقد قال ابن سلام:" وكان أميّة (أي ابن أبي الصِّلت) كثيرَ العجائب، يذكر في شعره خلقَ السماوات والأرض، ويذكر الملائكة، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحدٌ من الشعراء، وكان قد شام أهلَ الكتاب"[3]، وقال أيضا:" فحدّث سفيانُ وابنُ دأب أنّ أميّة مرّ بزيد بن عمر بن نفيل أخي عديّ بن

كعب، وكان قد طلب الدّينَ في الجاهلية هو ووَرَقة بن نوفل، فقال أمية: يا باغِيَ الخير، هل وجدت؟ قال: لا".[1]

وأما ما ينسب إلى الجنّ من أشعارٍ، فقد قال السيّد محمد الخضر حسين معترضا على ما ينسب إلى الجنّ من رثاء عمر بن الخطاب، وهي القصيدة التي مطلعها:

عَلَيكَ سَلامٌ مِن أَمِيرٍ وبَارَكَتْ يَدُ اللهِ في ذَاكَ الأدِيمِ المُمَزَّقِ

بأنّ ابن سلام وابن قتيبة وابن دُرَيد قد نسبوها إلى جزء بن ضرار، وأما صاحب الحماسة فقد نسبها إلى الشّماخ بن ضرار، ومنهم من نسبها إلى مزرد، ويعلّق على ذلك بقوله:" فأولئك علماء الأدب يَعزُون الأبياتَ إلى جزء أو مزرد أو الشّماخ، ولا يتعرضون لعزوها إلى الجن، وصاحب الأغاني عزاها إلى جزء بن ضرار، ثم ذكر الرواية التي تقول: إنها من نَوْحِ الجنّ على ابن الخطّاب، ولم يتحدّث في شيءٍ من السخرية بأن الناس أضافوها إلى الشّماخ".[2]

---

[3]طبقات فحول الشعراء . ابن سلام. 263/1.

[1]المصدر السابق .263/1.

[2]نقض كتاب في الشعر الجاهلي. الخضر حسين. ص: 195.

وهو يقصد في إشارته الأخيرة بالسخرية إلى قول طه حسين:" والعجب أن أصحاب الروايات مقتنعون بأنّ هذا الكلام من شعر الجنّ، وهم يتحدّثون في شيءٍ من الإنكار والسخرية بأنّ النّاس قد أضافوا هذا الشعر إلى الشّماخ بن ضرار".[3]

وأما ما يضاف من شعرٍ يُقصَد من ورائه تعظيمُ شأن النبي ص من ناحية أسرته ونسبه في قريش، فقد ردّ عنه الرافعي بعد أن حمَّق الدكتور طه حسين ووصفه بالقبح والسوء، وذكّره بالحديث الصحيح:" إن الله تعالى اصطفى كِنانةَ من ولدِ إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريشٍ بني هاشم واصطفاني من بني هاشم"[4].

وقد عقّب الشيخ محمد الخضر حسين على رأي طه حسين قائلا بعد أن ذكر الحديث السابق الذكر:" فلو وجَّه المؤلف غمزه إلى المفاضلة بين بني هاشم ومَن بعدهم لقلنا أنكر حديثا، ولم نؤاخذه إلاّ على مهاجمة الحديث بالإنكار المجرد من البحث العلمي مثلما يهاجمه الصمّ الذين لا يعقلون، ولكنه لم يقنع بأنْ ينكر حديثا في صحيح مسلم، ولم يُشْفِ ظمأه أن يرمِيَ ساحة القرآن بالكذب، فجعل يضع غمزه في عقيدةِ أن النبي ص صفوةُ بني هاشم..."[5].

وأما الشعر المنسوب إلى الأمم البائدة كعاد وثمود فقد نبّه عليه القدماء وبينوا انتحاله، وقد قال طه حسين بأن ابن سلام قد كفاه ذلك " حين جدّ في طبقات الشعراء في إثبات أنّ هذا الشعر وما يشبهه

---

[3] في الأدب الجاهلي. طه حسين. ص:136.

[4] تحت راية القرآن. الرافعي. ص: 152.

[5] نقض كتاب في الشعر الجاهلي. الخضر حسين. ص: 197.

مما يضاف إلى تُبّع وحمير... موضوع منحول وضعه ابن إسحاق، ومَن إليه من أصحاب القصص".[1]

وأما الذي نُسِب إلى الموحِّدين من نصوصٍ شعرية ورأى طه حسين أنها قد انتحلت انتحالا ليدل واضعوها على أنّ للإسلام في بلاد العرب قدمةً وسابقة، وكذا ما أثر عن شعرٍ لأمية بن أبي الصّلت وإلى غيره من المتحنّفين الذين سبقوا عهد الرسول ص أو عاصروه، فقد رُدَّ عليه مما في معناه أن القرآن الكريم هو الذي يخبرنا أنّ الإسلام هو دينُ الحقّ الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام وغيره من الأنبياء، وأنهم قد أتّبعوا هذه الرسالة، ودعوا الله أن يموتوا كلُّهم مسلمين له غيرَ مشركين، وقد نطقت بذلك آياتُ القرآن من مثل قوله تعالى:﴿ وما جعل عليكم في الدين من حَرَج مِلَّةَ أبيكم إبراهيم﴾[2] وقال:﴿ قُلْ صَدَقَ اللهُ فاتّبِعُوا مِلَّةَ إبراهيمَ حَنِيفا﴾[3] وقال:﴿ قُلْ إنَّني هَدَاني رَبّي إلى صِراطٍ مستَقِيم دِيناً قَيّما مِلَّةَ إبراهِيمَ حَنِيفا﴾[4] فمعنى ذلك " أن للإسلام أولويةً في بلاد العرب ثابتٌ بنصّ القرآن لا أنّ المسلمين يريدون إثباته"[5] .

وأما ما قاله طه حسين من أنّ الرسول ص نهى عن رواية شعر أمية، وأنّ هذا وحده كافٍ لأن يضيع هذا الشعر، فقد ردّ عليه الشيخ محمد الخضر حسين بأنّ هناك حديثا صحيحا للإمام مسلم جاء فيه:"

---

[1] في الأدب الجاهلي. طه حسين. ص: 140.

[2] سورة الحج.آية:78.

[3] سورة آل عمران.آية:95.

[4] سورة الأنعام.آية:161.

[5] نقض كتاب في الشعر الجاهلي. الخضر حسين. ص: 208.

عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردفت رسول الله ص يوما، فقال: هل معك من شعر أميّة بن أبي الصّلت شيء؟ قلت: نعم، قال: " هيه" فأنشدته بيتا، فقال:"هيه" حتى أنشدته مِائة بيت"، وقال معلِّقا بعد ذلك:" فهذا الحديث الصحيح يدلّ على أن النبي ص سمع شعرَ أميّة واستحسنه واستزاد المنشد منه حتى بلغ مِائة بيت، ولم يرد أثرٌ في النّهي عن رواية شعره إلاّ ما وُجِد في مثل كتاب الأغاني[6] من أنه ص نهى عن رواية القصيدة التي رثى بها أمية قتلى قريش في وقعة بدر".[7]

وما قيل عن شعراء اليهود والنصارى من أنّ قبائلهم تعصّبت لأسلافهم من الجاهليين وأضافوا لهم شعرا حتى يكون لهم مجد وسؤدد مثل المسلمين، فشأنه مثل شأن الشعراء من العرب حيث ينطبق عليهم المبدأ العام الذي يتمثل في معرفة آراء العلماء الثقات وفحول الرواية والشعر فما قبلوه وارتضوه كان موضعَ قَبول واحترام مالم يقم عليه دليل أو بينة تبطله.

3- القصص:

أجمع النقاد أن طه حسين لم يأتِ بجديدٍ حول هذه القضية، إذ قد سبقه القدماء إلى جملة من الآراء التي عرضها ووقف عليها، وما زاد إلا أن أعطى أحكاما وأطلقها إطلاقا مطمئنا في الوقت نفسه من أنه يجب الشك في هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين، والذي إنما يفسر قصة من القصص ويوضح اسما من الأسماء، أو يشرح مثلا من الأمثال، خاصة وأن القصص يحتاج إلى شعرٍ يزيّنه ويضفي عليه طابعا يوحي

---

[6] الأغاني. الأصفهاني.130/4.

[7] نقض كتاب في الشعر الجاهلي. الخضر حسين. ص: 219-220.

بالصدق في وجه من الوجوه، أو قل في الوجوه كلّها.

وقد تحدث طه حسين أيضا عن فطنة العلماء والنقاد حول هذه القضية حين قال:" وقد فطن بعض العلماء إلى ما في هذا الشعر من تكلّف حينا ومن سخف وإسفاف حينا آخر، وفطن إلى أن بعض هذا الشعر يستحيل أن يكون قد صدر عن الذين ينسَب إليهم"[1]، وقد علّق الشيخ محمد الخضري على قول طه حسين الأخير، وقال:" وهذا هو الذي نريد أن نقوله، وهو أنّ النقاد في العصور الماضية لم يقصِّروا في تمييز طيّب الشعر من خبيثه، وقد عبَّدوا الطريقَ لمن يخلفهم حتى لا يزعجَهم كذبُ كاذبٍ، أو تلفيقُ ملفِّق، فيرفضون جميع ما رُوِيَ من الشعر كما فعل مؤلف الشعر الجاهلي".[2]

4- الشعوبية:

ذهب طه حسين إلى أنّ للشعوبية دورا كبيرا في نحل الشعر حيث تدعو إليها الخصومة بين العرب والأعاجم، وأن الشعوبيين أنطقوا شعراءَ العرب بشعرٍ منحولٍ يقصَد من ورائه تفضيلُ الفرس والاعتراف بتقدّمهم وقوة سلطانهم قبل أن يتفوق العرب الفاتحون عليهم، وأن العرب من المسلمين دخلوا في هذا الصراع من قبيل الردّ بالمثل وإعلاء شأن العرب وفضائلهم وعزّتهم، وقد ضرب مثالا بما كتبه الجاحظ في كتاب" العصا " من البيان والتبيين، وذكر أنه من الصّعب تصديق كل ما رواه الجاحظ من الأشعار والأخبار حول العصا والمخصرة، وأقرّ بأن الخصومة حين تشتدّ فإنّ أيسرَ وسائلها الكذبُ والانتحال.

---

[1] في الأدب الجاهلي. طه حسين. ص: 156.

[2] مصادر الشعر الجاهلي . ناصر الدين الأسد. ص:426.

وكان الذين ردّوا على طه حسين زعمَه هذا أنه " لم يأتِ برواية تدلّ على أن بعض الشعوبية انتحل شعرا جاهليا"[1] و " أن علماء العربية يعدّون الجاحظ ممّن لا يوثَق بروايتهم، فإذا انفرد بإنشاد شعرٍ جاهلي نقلوه على وجه الأدب دون أن يُعَوّلوا عليه في لغةٍ أو تاريخ".[2]

وإن مما لا مجال للشكّ فيه أنّ الشعوبية [3] فصلٌ من رواية وُضِعت بين العرب والعجم من الفرس وغيرهم، وقد تحدثت عنها كتب الأدب والتاريخ فأسهَبَت، ولكنها لم تكن بالتصوير المخيف الذي صوّره طه حسين .

5- الرواة:

رأى الدكتور طه حسين في هذا الفصل أنّ الرواة لعبوا دورا هاما في نحل الشعر ووضعه واقتصر على رواةٍ بعينهم هم حمّاد الراوية وخلف الأحمر وأبو عمرو الشيباني، وأتى على طائفة من الأقوال والشهادات والأخلاق التي كانت تطبع هؤلاء الرواة من سوء الخلق والزندقة والكذب ومعاشرة الشُطَّار والصعاليك مما جاء في كتب القدامى وآراء العلماء الثقات، وانتهى إلى القول بأنه:" إذا فسدت مروءة الرواة فأحاطت بهم مثلُ هذه الظروف كان من الحقّ علينا ألاّ نقبل مطمئنين ما ينقلون إلينا من شعر القدماء".[4]

وقد ردّ عليه الشيخ محمد الخضر حسين بأنّ هذا موجودٌ في

---

[1] نقض كتاب في الشعر الجاهلي. محمد الخضر حسين. ص: 247.

[2] المصدر نفسه . ص: 248.

[3] ينظر إلى تعريف الشعوبية وبعض الأخبار في الفصل الأول (الحياة العقلية) .

[4] في الأدب الجاهلي. طه حسين . ص: 173.

كتب القدماء، كما أشـــار إليه الرافعي في " تاريخ آداب العرب " وجرجي زيدان في " تاريخ آداب اللغة العربية " والمســتشــرق مرجليوث في مقاله " أصــول الشــعر العربي". وأورد أن طه حســين إنما يريد أن يكون هذا الشــعر الجاهلي منحولا، وأنه إن كان هناك رواة من العرب والموالي ينحلون الشــعر ويضــعونه فإنّ هناك رواةً من الطائفتين كليهما من يأبى الكذبَ والتزيد والنحل والوضع.

وأما في ما يخص حمادا وخلفا فإنه قال في شــأنهما:" لم يكن حمـاد وخلف مرجعَ الروايـة كلهـا، وأن الطعن فيهمـا طعنٌ في الروايـة جميعا، فقد كان في عهدهما من رواة الشــعر من لم يأخذ عنهما كأبي عمرو بن العلاء والمفضل بن محمد الضبي"[5] .

وأما رَميُ طه حسـين أبا عمرو الشـيباني بالكذب والنحل فليس له دليلٌ ولا بيّنة، حتى إن خصــومه قالوا:" إنه كان ثقةً لولا إســرافُه في شرب الخمر"[1]

ونلاحظ هنا أن الدكتور قد بنى حكمه هذا على الظن والتخيل إذ أننا لا نلمح العلاقة بين وصـف خصـومه بأنه ثقة وبين شـربه الخمر، خاصـة وأن الخصـومة بين الأقران من العلماء يشـوبها الحذر والتثبت، وأن الحكم على نزاهة الشــخص وأمانته ثابتٌ مالم تقم الأدلة القاطعة على نقض الدعوى وثبوت الاتهام.

كما أنّ المنافسـة والشـهرة والغيرة والحسـد ربما تسـير بصـاحبها إلى التشـهير عن طريق بثّ الافتراء والادّعاء ورمي الآخرين بالكذب وسـوء

---

[5]نقض كتاب في الشعر الجاهلي. محمد الخضر حسين. ص:267.

[1]في الأدب الجاهلي. طه حسين . ص: 173.

الخلق، إذ أنّ طبائع الناس متباينة، وليسوا كلُّهم على قوةٍ من التدين والإيمان، ومن ثمة فإنه لا يمكن أن نأخذ أقوال العلماء في بعضهم البعض، فقد يكون هذا من باب المنافسة لا غير، ولأمرٍ ما صفح القدامى عن هذا الأمر وقالوا بأن " المعاصرة حجاب" وأن كلام الأقران بعضهم في بعض لا يقدح في العدالة.

غير أن الذي يقرأ كتاب طه حسين " حديث الأربعاء" في جزئه الأول ليشدّه ذلك التخفيف من الشكّ الذي وُسِم به في كتابه " في الأدب الجاهلي" أي بعد عشر سنوات بين الكتابين حيث تحدث عن شعر شعراء جاهليين كلبيد بن ربيعة العامري، وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد، وهم من مضر، كما تحدّث عن طرفة بن العبد وشعره، وعن سُوَيْد بن أبي كاهل وشعره، وهما من ربيعة، ولم يُبْدِ شكّه إلاّ في وصف الناقة في معلّقة طرفة بن العبد، ومن جملة الآراء التي ضمّنها كتابه نذكر ما يلي، قال:

1- ونحن نحب لأدبنا القديم أنْ يظلَّ قواما للثقافة، وغذاءً للعقول، إنه أساس الثقافة العربية، فهو إذن مقوّم لشخصيتنا، محقِّقٌ لقوميتنا، عاصمٌ لنا من الفناء في الأجنبي، مُعينٌ لنا أن نعرف أنفسنا.[2]

2- إنّ ما يصرفك عن الشعر القديم يغريني به، وما يزهدك فيه يدفعني إليه، فأنت تكره هذه الألفاظ التي تكلفك البحث في المعاجم، وأنا أحب هذه الألفاظ لأنها تكلفني البحث في المعاجم.[3]

3- وإن قرأت هذا القسم من أقسام القصيدة، فسترى أنك لا تستطيع

---

[2] حديث الأربعاء. طه حسين.دار الكتاب اللبناني.1982. 13/1

[3] نفسه. 16/1.

أن تقدّم فيه ولا أن تؤخر، وإنما أنت مضطرٌ إلى أن تدَعَه كما وضعه صاحبه (ويذكر الأبيات الثلاثة الأولى لمعلّقة لبيد بن ربيعة والتي مطلعها:

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّها فَمُقَامُها بِمِنًى تَأَبَّدَ غَولُها فَرِجَامُها [1]

4- وقال في نهاية حديثه عن معلّقة طرفة بن العبد:" ثم انظر إليه كيف يعود في آخر القصيدة إلى فلسفته التي كان فيها، مجدِّدا تهوينَ الحياة، وتحقير أمرها وتعظيم أمر الموت، وما يصور من اليأس فيقول:

أرَى الموتَ أعْدَادَ النُّفُوسِ ولا أَرَى بَعِيداً غَداً مَا أقْرَبَ اليَومَ مِنْ غَدِ

سَتُبْدِي لَكَ الأيَّامُ ما كُنْتَ جَاهِلاً ويَأتِيكَ بِالأَخبَارِ مَن لم تُزَوِّدِ

قال صاحبي: ألم أقل لك إن هذه القصيدة من أجود الشعر وأجمله وأروعه وأرقاه! قلت: وهل أريد منك يا سيدي ومن أمثالك إلاّ أن تعترفوا بأنّ في الشعر القديم جمالاً وروعةً ومتاعا، لا للقدماء وحدهم بل للمُحدَثين مهما يبعد بهم العهد".[2]

5- وقال في نهاية حديثه عن معلّقة عنترة بن شداد:" كلُّ القصيدة جيّدة، وكلّ أبياتها خليقٌ أن نطيلَ الوقوفَ عنده والتّفكيرَ فيه والإعجابَ به".[3]

---

[1] المرجع السابق. 32/1

[2] نفسه. 76/1.

[3] نفسه.153/1.

خاتمة:

إن قضية الشك في النصوص الأدبية القديمة موضوعٌ ليس بالجديد، ولا يخص الأدبَ العربيَّ وحده فقد قرأنا كثيرا من المقالات والكتابات تشكّك في آثار الآداب الأوروبية القديمةكإلياذة هوميروس عند اليونان، حيث شكّوا في أن تكون من إبداع هذا الشاعر، ونسبوها إلى عدة شعراء آخرين تشاركوا في تأليفها، بل ذهبوا إلى حدّ التّشكيك في وجود هوميرس نفسه، إذن لم يكن الأدب العربي بِدْعًا من الآداب الأخرى كاليونانية والرومانية والفارسية والهندية.

لقد يكون الدافعُ القويُّ إلى الشّك في صحّة هذه النصوص ونسبتها إلى قائليها الروايةَ نفسّها، وذلك أنّ هذه النصوص والآثار وصلت عن طريق الرواية بالمشافهة والتخزين في الذاكرة الجماعية قبل التدوين والجمع والتصنيف، وبين هذه وتلك يدخل التحريف والإضافة والتدليس والكذب والانتحال.

إنّ القرآن الكريم باعتباره مصدرا تشريعيا ربانيا، ووثيقةً تاريخية لا يتسرَّب إليها شك لَيَجزِم ويخبر بأنّ أهل الكتاب قد حرّفوا الكتب المنزّلة كالتوراة والإنجيل حيث قال في شأنهم بأنّهم يحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه، وإنْ كان هذا والحالُ هذه، وإن كان التحريف قد مسّ الكتب المطهّرة فكيف بالآثار التي يتركها الناس وهم مخلوقون لا يقدرون على شيء، ولا يثبتون على حال ولا يستقيم لهم أمر. وشيءٌ آخر يثبت هذه النظرة ويؤيّد هذا الاتّجاه وهو الحديث الشّريف الذي صدر عن الرسول (ص)، والذي توعّدَ الكاذبَ عنه بالنار في قوله "من كذب عليّ فليتبوّأ مقعدا من النار "، ولكن بالرغم من هذا الوعيد فقد كثر

الوضّاعون والمزيفون والكذابون مما اضطرّ علماء الحديث والسنة إلى تأليف كتب تبيّن أشهرَ هؤلاء الواضعين واضطروا أيضا إلى تقسيم درجات الحديث من صحيح وحسن وضعيف ومردود وغيرها، وألّفوا تآليفَ ضخمةً وأسفارا ومنظوماتٍ شعريةً كالشاطبية والبيقونية وغيرها ممّا تزخر به المكتبة الإسلامية.

إن الحديث عن هذا الموضوع يأخذنا إلى الجنس العربي الذي كان يسكن بلا شك بيئةً عربية محدودةً بمناطق معينة وتضاريس متباينة ومناخ صعب، لأننا وببساطة ندرس بيئة صحراوية تمثل الصحاري والقفار جزءا كبيرا منها، هذا إنْ علمنا أنّ رُبعا كاملا كان خاليا وهذا الذي يُعرَف عند الجغرافيين بالرّبع الخالي أو صحراء الدهناء، ومن هنا كان تحديد الموقع الجغرافي للعرب هاما بالنسبة لمثل هذه الدراسة لأسبابٍ تتعلّق بالبحث عندما تتقدم موضوعاته، ولحصر هذا الجنس في نطاقٍ معيّن من جهة أخرى، إذن لم يكن الجنس العربي بِدْعا من الأجناس الأخرى، فقد كانت تربطه أفراده وقبائله علاقات اجتماعية تتراوح بين القوة والضعف وبين التآلف والتناحر وبين الاتحاد والتفرق وبين السلم والحرب. كما كان ذلك الالتزام من الفرد نحو رَهْطِه ومن الرهط نحو القبيلة، ومن القبيلة نحو أبناء العمومة والخؤولة والمصاهرة من القبائل الأخرى وبين القبيلة وحليفاتها في السلم والحرب وغير ذلك من العلاقات والالتزامات التي تشكّل حلقة تكبر كلّما زادت العصبية وتضيق كلّما ضاقت.

إنّ هذه القبائل التي تنتشر في بيئة عربية وتنطق بلسان عربي لَتَعود إلى فروع وبطون يختلف النّسابون وأهل التاريخ في تحديد منابعها وأصلها، فهم يوزّعونهم بين عربٍ عاربةٍ وعربٍ مستعربة، وبين قحطانيين

وعدنانيين، وبين جنوبيين وشـماليين وغير ذلك من النعوت والصـفات التي تتبـاين فيهـا الآراء وتتشـعـب وتـدعو إلى الشـكّ والحيرة في هـذه التقسـيمات التي تطغى عليها العصـبيات القبلية أكثر من ردّ الأمور إلى حقائقها ومضانّها .

ومما لا شك فيه أن هؤلاء العرب كانوا يعيشـون حياةً كغيرهم من الأمم الأخرى، فيهـا جـانـبٌ اقتصـادي متمثل في التجـارة التي كانوا ينشـطون إليها مع جيرانهم من أهل الشـام ومصـر وفارس والحبشـة والقرآن يذكر في سـورة قريش تجارةَ العرب في الشـتاء والصـيف، وكيف أن الله مَنَّ عليهم بالخير والبركة والأمن، كما يذكر أيضـا أنّ العرب كانوا عَبَدَة أوثانٍ يعرفون الدِّين والتّديّن، ويهرعون مسـرعين إلى ذبح القرابين تقرّبا للآلهة، فقد كان لهم أوثان وأصـنام ذكرها القرآن كاللاّت والعزّى ومناة، وكان منهم مَن تنصَّـر أو تهَوَّد مما يدلّ على تأثير أهل الكتاب في بعضـهم من جهة، وأنهم لم يكونوا منعزلين عن الأمم المحيطة بهم من جهة ثانية.

وإضـافة إلى حياة العرب الدينية والاجتماعية والسـياسـية والاقتصـادية فقد كانت لهم حياة عقلية تتمثّل في هذه اللغة التي كانت وسيلة الاتّصال بينهم، والتي يأخذها الخلف عن السّلف، وينقِصون منها ويضـيفون إليها بحسـب حاجتهم إليها، إذ أنّ اللغة كائن حيٌّ تنموا ألفاظه وتتطوّر، وقد يُهمَل بعضٌ منها فيموت.

لقـد نزل القرآن الكريم بلغـة عربيـة متميزة بقوة عجيبـة من البلاغـة والإعجـاز ممـا جعـل العرب أنفسَـهم يسـحرون من ألفـاظه ومعانيه، وقد حاولوا معارَضَـته لكنهم فشـلوا، وتحدّاهم الله بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعضٍ منه، ولقد اسـتَيْقَنَت نفوسـهم هذا الكلام

ليس بكلام محمد(ص)، ولا يقدر عليه بشـــر، ولكنهم بالرغم من ذلك، وبالرغم ممّا أُثِر عن زعمائهم في حقّ القرآن من أقوالٍ كالوليد بن المغيرة إلاّ أنهم تكبّروا وتجبّروا واعتبروا القرآن ســحرا، واعتبروا النبيَّ الأميَّ ساحرا.

إن القرآن الكريم بلغته وألفاظه ومعانيه ما كان الله لينزلَه عليهم لولا أنهم قومٌ عُرِفوا بالفصاحة والبلاغة وقَرْضِ الشعر وضرْبِ المثَل وإيراد الحكمة وسـرْدِ القَصَص، وإنّ القرآنَ نفسَه لَيَذكُر في آياته ويشهد بأنّ الكفّارَ الذين عارضـوا الدعوةَ المحمدية كانوا من الفصـاحة والبلاغة بمكان. إذن فقد خلّف العرب آثارا كلامية فيها شـيءٌ من فنٍّ وبلاغة، خلَّفوا هذا الشـعر الذي كانوا يتباهَون به بين القبائل، وخلّفوا الخُطَبَ التي كان يتناقلها الرواة، وغيرهما من فنون القول والكلام بلغةٍ عربية فصـيحة كانوا يقولون إنها لغةُ قريش التي كانت تتخيّرُ الألفاظ من القبائل وتدخلها إلى لهجتمها بما لها من سلطان ديني واقتصادي في بلاد العرب آنذاك، ولحجّ العرب وغير العرب إلى مدينتهم المقدّسـة التي بُنِيَ فيها أوّلُ بيتٍ على الأرض، وقبل هذا وذاك لدعوة إبراهيم الخليل: ربِّ اجعل هذا البلدَ آمنا وارزُقْ أهلَه من الثمرات...واجعل أفئدةً من الناس تهوي إليه....

إن الشـيء المهمّ في هذه الدراسـة هو أصـلُ اللغة العربية الفصـحى التي يعتبرها بعض المؤرخين والعلماء العرب كابن خلدون والسيوطي وجورجي زيدان وطه حسين قرشيّة ضمن ما يعرف بالنظرية الإسلامية الراجعة إلى قِيَمٍ منطقية وعقائدية ثابتة، إضافة إلى حصر اللغويين القدامى للمناطق العربية إلى أخذت منها اللغة على مقاييس بَنَوها واحكموا بناءها على أسـاس تصـفيتها من الشـوائب. وكان أكثر

اعتمادهم في أخذ اللغة على قيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطّائيين، غير ناسين أن هذه القبائل نفسها كان فيها اختلاف متباين مثلما لاحظ ذلك اللغويون القدامى، ممّا أدّى إلى الشكّ في النصوص الشعرية الجاهلية عن طريق هذه اللغة نفسها التي كان يتكلّم بها أهل الشمال وأهل الجنوب أي العدنانيون والقحطانيون ذاكرين لغةَ أهل اليمن، والتي يرى اللغويون القدامى، ومنهم عمرو بن العلاء الذي قال:" ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا لغتهم بلغتنا "، قلت يرونها دليلا على انتحال الشعر القديم حين قالوا إنّ لليَمَن شعراءَ في الجاهلية، مع أن علم الآثار والمستحثّات لَيُبدي تباينا عظيما بين لغتي الشماليين ولغة الجنوبيين.

لم يكن الشكّ في نصوص وآثار الأدب الجاهلي موقوفا على المُحدَثين من المستشرقين والعرب، بل سبقهم إلى ذلك عددٌ من النُّقاد القدامى كابن سلاّم الجمحي وابن هشام وعلماء المدارس اللغوية كالبصرة والكوفة من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة. غير أنّ هناك سؤالا يطرح نفسه بإلحاح شديد وهو ما الشيء الذي جعل العلماء يشكون في النصوص الشعرية؟ وإن كان جواب هذا السؤال إنما يرجع لأسباب عديدة إلاّ أنّ هذا السؤال نفسه يستدعي قبله سؤالا آخر، وهو كيف وصلت إلينا هذه النصوص؟ وما هي طرائق تبليغها وإشاعتها بين الناس ؟.

إنّ مجتمعا بدائيا جاهليا لا يعرف الكتابة ولا القراءة مثل المجتمع الجاهلي لَتَكون الروايةُ هي أهمَّ وسائله، بل إنّ هذا الأمر إنما يُعَمَّم على كل العصور وفي كلِّ المجتمعات حتى وإن كان هذا في عصرنا الذي نعيش فيه، ولذا فنحن مضطرون في دراستنا هذه إلى أن نأتيَ على

جملـة من النصــوص والقرائن التي تُظهِر جوَّ الروايـة، وكيف كـانـت طرائقها لنصِــل بعد ذلك، مختصــرين وقتا زمنيا طويلا، إلى التدوين وأشـكاله فيما عرف عن العرب، وكذا تأثّرهم بمن كانوا قد سـبقوهم إلى ذلك من الأمم المجاورة .

مع تطوّر التدوين واختلاف ضـروب العلم وتنمهج التفكير عند العرب والمسـلمين كان لا بدّ للعقلية العربية أن تسـاير الحضـارات، وأن تُدفَع عن طريق الملاحظة والحتمية التاريخية إلى أن تجعل لنفسها علوما تطمئنّ إليها لـدراســة لغتها، وكل ما يتعلق بها من أجل خدمة الدين في بداية الطريق إلى الحاجة في المعرفة واستغلال ذلك كلِّه في تطوير الحياة وضـروب المعيشـة التي كانت تتطلب نوعا من العلوم متّصلةً بالدين حينا أو بعيدة عنه بعدا يقرب أو يبعد .

من هنا كانت الدراســات اللغوية والنحوية التي ما فتئت تأخذ حظا وافرا من الاهتمام لحفظ اللغة العربية من جهة، ولخدمة النص القرآني من جهة أخرى، ولا ننســى ما لهذه الدراســات من أثرٍ جليٍّ في تحقيق الشـعر العربي القديم وتصـحيح نصـوصـه أو تعديلها أو إثباتها. وكان لا بد لهذا العمل الضخم الجليل أن يقوم به رجالٌ نصبوا أنفسهم لخدمة الدّين أو اللغة أو كليهما معاً.

وكان أنْ قام رجالٌ علماء من الرعيل الأول بدراسـة شـعر القوم وأعلنوا صراحةً أن هناك بعض الشعر منحول مشكوك في صحّته سواء إلى قـائله من جهة أو بـالإضــافـة والنقص من جهة أخرى، وقـامت على ضوء هذا مدارسُ ونظريات وأفكار بعضها كان صائبا وبعضها الآخر جاء عن طريق التخمين أو الشــك دون إعطاء المقاييس العلمية الصـحيحة والاكتفاء بالذوق الساذج أو حتى مجرّد الشك البريء.

ولما كانت طبيعة الإنسان أنه لا يطمئن إلى شيء ولا يستقر على حال، وكذا حقيقة العلم وكنهه وطرقه، فإن هذه المدارس وتلك الأفكار تطوّرت وتبلورت على أيدي المحدثين من المستشرقين والعرب على حد سواء.

لقد رأى المستشرقون رأيهم في هذا الشعر القديم وخرجوا بنظريات ونتائجَ، بعضها يحتاج إلى تقدير أصحابها ومدى نظرتهم الصائبة أو القريبة من الصواب فيما طرقوه وبحثوا عنه، في حين جاءت دراساتٌ أخرى لهم بعيدةً كلَّ البعد عن الواقع والموضوعية ، ولوحِظَ في ذلك تحامُلٌ على لغة العرب وشعرهم، ومن ثمّ الحطّ من قيمة تراثهم وهذا كلّه من أجل الحطّ من قيمة الدّين الذي نزل بهذه اللغة التي شرّف الله بها جزيرة العرب، وجعل أهلَها قَيِّمين على بيته وكتابه ورسالة نبيّه .

إن عددا هاما من المستشرقين كان لهم رأيٌ في الشعر القديم حيث ألّفوا كتبا هامة وأثاروا قضايا جديدة تستحقّ الإعجاب والتقدير من جهة، كما يستحق بعضها إعادة النظر لما فيها من مغالطات ودسائسَ للحطِّ من اللغة والقرآن والدين، ومن أهمّ هؤلاء المستشرقين نجد مرجليوث وكارل بروكلمان وهُوار وبلاشير.

لقد كان من الطبيعي أن يستفيد بعض العرب المحدثين من القضية التي أثارها العرب القدامى كابن سلاّم وإلى ما أثاره المستشرقون بعد ذلك بزمن طويل، ويؤلفوا كتبا في ذلك ويعطوا نظريات ومفاهيمَ وآراء في هذا الأمر، ونجد الدكتور طه حسين على رأس مَن شكّوا في نسبة هذا الشعر إلى قائليه، وإنْ كان الرجل قد أشار إلى أشياء قيّمة إلاّ أنه مقلِّد لما تناوله السابقون من قبله، وقد تعرض هو وكتابه إلى نقدٍ شديد وعِراكٍ طويل مازالت آثاره إلى اليوم، تعرّض إلى معادات

الإسـلاميين من جهة، وإلى نقد الناقدين من المشـتغلين في ميدان الأدب، ممّا أثرى الحركةَ النقدية لعقود من الزمن، كانت شـبيهة إلى حدٍّ ما بما أثاره المعتزلة قديما في علم الكلام وفتنة خَلْق القرآن، وبالرغم من أنّ الموضـوعين مختلفـان أشـدّ الاختلاف إلاّ أنّهمـا أثـارا جـدلاً طويلا، واسـتفدنا أدبا ونقدا، ما كنّا لنسـتفيد بشيءٍ لولا شيءٌ من خصـومةٍ وردٍّ يصـل- بعض الأحيان- إلى حدّ التشـنيع والعنف والمحاكمات القضـائية. إذن تعرّض الدكتور طه حسـين لنقدٍ من طرف خصـومه التقليديين، ونخصّ بالذكر الأسـتاذ مصـطفى صـادق الرافعي في كتابه " تحت راية القرآن "، وكانت لـه آراء بنّاءة عنـدما عَرَضَ في كتـابٍ لـه تـاريخ الآداب العربية، وأعطى آراءه في الموضوع.

القرآن الكريم.

المصادروالمراجع:

1) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي.محمد هاشم عطيّة.دار الكتب.مصر.1977.
2) أساس البلاغة. الزّمخشري. مراجعة وتقديم الأستاذ: إبراهيم قلاّتي. دار ا لهدى. الجزائر.1998.
3) أصل العرب ولغتهم بين الحقائق والأباطيل. عبد الغفار هلال. دار الفكر العربي. القاهرة. 1996.
4) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. الرافعي. دار الكتاب العربي. بيروت. ط3 .2001
5) الأغاني.الأصفهاني. شرح سمير جابر. دار الكتب العلمية. بيروت ط2 .1992
6) البداية والنهاية. ابن كثير. مكتبة المعارف. بيروت. (د.ت).
7) البيان والتبيين. الجاحظ. تحقيق وشرح: عبد السلام هارون. دار الفكر . (د.ت).
8) تاريخ آداب العرب. مصطفى صادق الرافعي.المكتبة العصرية. بيروت.ط1. 2000.
9) تاريخ آداب اللغة العربية.جرجي زيدان. طبعة دار الجيل.بيروت.1982.
10) تاريخ الأدب العربي.أحمد حسن الزيات.دار الثقافة.بيروت.ط:28. 1978.

11) تاريخ الأدب العربي.بلاشيررجيس. ترجمة إبراهيم الكيلاني. الدار التونسية للنشر
و:م.و.ك.الجزائر.1986.
12) تاريخ الأدب العربي.كارل بروكلمان. ترجمة:عبد الحليم النجار. دار المعارف. مصر.(ط3).1974.
13) تاريخ بغداد.الخطيب البغدادي. دار الكتب العلمية. بيروت. (د ت).
14) تاريخ ابن خلدون. دار إحياء التراث العربي. 1971.
15) تاريخ الجاهلية. عمر فروخ. بيروت. 1964.
16) تاريخ العرب قبل الإسلام.عبد العزيز السيد سالم. مؤسسة شباب الجامعة.الإسكندرية.مصر1997
17) تاريخ الفكر الديني الجاهلي.محمدالفيومي.دار الفكر العربي.القاهرة.(ط4).1994.
18) تحت راية القرآن. الرافعي.دار الكتب العلمية.بيروت.ط 1. 2000.
19) تفسير ابن كثير. دار الفكر.بيروت. 1410هـ
20) تفسير الطبري. دار الفكر.بيروت. 1405هـ
21) تيسير العليّ القدير لاختصار تفسير ابن كثير. محمد نسيب الرفاعي. دار بيروت. 1972.
22) الجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم).حنّا الفاخوري.دار الجيل.بيروت.1986.
23) جواهر الأدب في أدبيات وإنشـــاء لغة العرب. أحمد الهاشـــمي. مؤسسة المعارف. بيروت. (د،ت).

24) حديث الأربعاء. طه حسين.دار الكتاب اللبناني.1982.
25) الحيوان. الجاحظ. تحقيق: عبد السلام هارون. دار الجيل. بيروت. (ط 2).1969.
26) الخصائص. ابن جنّي. تحقيق. محمد علي النجار. عالم الكتب. بيروت.(د.ط) (د- ت).
27) دراسات في الأدب الجاهلي. عبد العزيز نبوي. مؤسسة المختار. القاهرة. (د.ط). 2003.
28) دراسات في الشعر العربي. مصطفى هدارة. دار المعرفة الجامعية. القاهرة. 1981.
29) ديوان امرئ القيس. دار المعارف.مصر.1965.
30) ديوان طرفة بن العبد. نشر علي الجندي. الدار المصرية.1961.
31) ديوان لبيد بن ربيعة. تحقيق: إحسان عباس.ط الكويت.1962.
32) رسالة الغفران. المعرّي . تحقيق وشرح: محمد عزّت . المكتبة الثقافية . بيروت. (د.ت).
33) سيرة ابن هشام. تحقيق، طه عبد الرؤوف سعد. دار الجيل. بيروت. (ط1). 1411هـ
34) شرح ديوان عنترة. دار الكتب العلمية. بيروت. (د.ط). 1995.
35) شرح المعلقات السبع.الزوزني.مكتبة المعارف. بيروت. 1994.
36) الشعر الجاهلي وخصائصه وفنونه.يحي الجبوري . ط(7). مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان. 1994.
37) الشعر الجاهلي وقضاياه الفنية والموضوعية.إبراهيم عبد

الرحمن.لونجمان.مصر.ط 1. 2000.
38) شعر السيرة النبوية.شوقيرياض.دار المأمون.مصر.ط1.1987.
39) الشعر والشعراء. ابن قتيبة. تحقيق: مفيد قميحة. دار الكتب العلمية.بيروت.ط2 .1985.
40) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي. يوسف خليف. مكتبة غريب. مصر. (د ط).(د-ت).
41) طبقات فحول الشعراء. ابن سلام الجمحي.تحقيق محمود محمد شاكر.دار المدني جدة.(د ط).(د-ت)
42) الطبقات الكبرى. ابن سعد. دار صادر. بيروت .(د.ت).
43) العصر الجاهلي.شوقي ضيف. دار المعارف. مصر. ط18. 1995.
44) فجر الإسلام. أحمد أمين. دار الكتاب العربي. لبنان. ط11. 1975.
45) الفهرست.ابن النديم. دارالمعرفة. بيروت. 1978.
46) في الأدب العباسي. الرؤية والفن. عز الدين إسماعيل. دار النهضة العربية. بيروت. 1975.
47) في تاريخ الأدب الجاهلي. علي الجندي. دار غريب. القاهرة. مصر. 1998.
48) القاموس المحيط.الفيرزأبادي.
49) قطر الندى وبَلُّ الصّدى. ابن هشام.تحقيق. محمد محي الدين عبد الحميد. ط11. القاهرة. 1383هـ.
50) لسان العرب. ابن منظور. دار صادر. بيروت. (د.ط). (د.ت).
51) اللّهجات العربية في القراءات القرآنية.عبدهالراجحي.دار

المعرفة الجامعية. مصر. 1998.
52) مجمع الأمثال. الميداني. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. دار المعرفة. بيروت. (د،ت).
53) المجموعة الكاملة – الأدب والنقد (ج1) –في الأدب الجاهلي.طه حسين. دار الكتاب اللبناني.
بيروت.1982. المجلّد:05.ص: 105.
54) مختار الصّحاح. الرازي. تحقيق محمود خاطر. مكتبة لبنان. بيروت. 1995.
55) المزهر في علوم اللغة وأنواعها.السيوطي.دار الكتب العلمية. بيروت. ط1.
56) المستشرقون. نجيب العقيقي. دار المعارف. مصر. (د ت).
57) مستقبل اللغة العربية المشتركة.إبراهيم أنيس. مطبوعات الجامعة العربية.1960.
58) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. ناصر الدين الأسد. دار المعارف. مصر. (ط 4).1969.
59) معجم البلدان للحموي. دار الفكر. بيروت.(د.ط).(د- ت).
60) معجم ما استعجم. البكري. تحقيق مصطفى السقا. عالم الكتب. بيروت. ط3. 1403هـ
61) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. ابن هشام. تحقيق:مازن المبارك ومحمد علي حمد الله. دار الفكر.
بيروت.(ط6).1985.
62) مقدمة ابن خلدون .دار القلم ، بيروت ، لبنان. (ط2).1984.
63) مقدمة في فقه اللغة العربية. لويس عوض. الهيئة المصرية

العامة للكتاب. القاهرة.(د.ت).

64) مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية. بحث لمصطفى هدّارة بعنوان:" موقف مرجليوث من الشعر العربي". المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تونس 1985.

65) ميزان الاعتدال.الذهبي. طبعة الحلبي. 1963.

66) نقض كتاب في الشعر الجاهلي. محمد الخضر حسين. المكتبة العلمية. بيروت (د.ت).

67) وفيات الأعيان.ابن خلكان. تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت. 1968.

المجلاّت:

التأصيل الإجرائي لمفهوم الشعر عند ابن سلام - دراسة- أ. مسلك ميمون. مجلة " عالم الفكر".
الكويت. العدد (1) المجلد. 30

فهرس الموضوعات:

المقدمة 2

الفصل الأول 6

العرب في شبه الجزيرة العربية: 6

الحياة الاجتماعية للعرب : 26

طبقات المجتمع: 30

المرأة في المجتمع الجاهلي: 36

مظاهر الحياة العقلية : 57

الفصل الثّاني 88

مجال الشعر العربي القديم : 88

الشعر العربي القديم بين الرواية والتّدوين 91

طبقات الرواة: 95

تدوين الشعر العربي القديم: 110

قضيّة الانتحال في الشعر العربي القديم: 119

ابن هشام ومنهجه في توثيق وتنقيح شعر السيرة: 125

حذف الأشعار المنحولة: 127

التحقيق وإضافة الأشعارونقدها: 130
ابن سلام و آراؤه حول قضية الانتحال: 132
الفصل الثالث 140
الانتحال في الشعر العربي القديم عند المحدَثين: 140
الأدب الجاهلي واللغة: 177
الأدب الجاهلي واللهجات: 178
2- أسباب نحل الشعر: 180
أولا: السياسة: 180
ثانيا: الدين 182
ثالثا: القصص 184
رابعا: الشّعوبية 186
خامسا: الرواة 187
3- الشك في نسبة الشعر إلى بعض الشعراء: 188
مقياس طه حسين في الحكم على صحة الشعر الجاهلي: 193
أهم الرّدود على كتاب طه حسين: 197
الشعر الجاهلي واللغة: 204
الشعر الجاهلي واللهجات : 206
نقد أسباب نحل الشعر: 208

1- السياسة: 208
2- الدين: 210
3- القصص: 214
4- الشعوبية: 215
5- الرواة: 216
خاتمة: 220